أدب الخطاب

في القرآن الكريم

الدكتور عبد الرحمن سعود إبداح



دروب ثقافية للنشر والتوزيع
Dorub Thakafya For Publishing & Distribution



أدب الخطاب
في القرآن الكريم

أدب الخطاب
في القرآن الكريم

الدكتور/عبد الرحمن سعود إبداح



الطبعة العربية ٢٠١٦

رقم الإيداع (٢٠١٣/٣/٧١٨)

التحرير : هيئة تحرير
تصميم الغلاف : نضال جمهور
الصف والإخراج: سامي أبو سعدة
المطبعة: سمير منصور للطباعة



عمان - العبدلي
هاتف +962 6 4626626
تلفاكس +962 6 4614185
ص. ب 520646 الرمز البريدي 11152



أدب الخطاب في القرآن الكريم

الدكتور

عبد الرحمن سعود إبداح



دروب للنشر والتوزيع



الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى اله وصحبه اجمعين

أصل هذا الكتاب رسالة جامعية مكملة لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير في التفسير وعلوم القران من كلية الشريعة في الجامعة الاردنية

وقد نوقشت هذه الرسالة واجيزت بتاريخ ١٩٩٢/١/٧م

وتألفت لجنة المناقشة من السادة الاجلاء

-الاستاذ الدكتور فضل حسن عباس /عضوا

-الاستاذ الدكتور احمد نوفل /عضوا

-الاستاذ الدكتور احمد فريد /مشرفا

الإهداء

الى كل محب لكتاب الله العزيز تلاوة وتدبراً وإتباعاً.

واخص بذلك:

سيدي الوالد رحمه الله..براً له واعترافاً بفضله.

سيدتي الوالدة براً لها واعترافاً بفضلها.

زوجتي الفاضلة التي عاشت معي متاعب هذه البحث.

أخي عبد المعطي الذي كان لي مشجعاً

ومعيناً على السير في هذا الطريق

شكر وثناء

احببت بين يدي هذه الرسالة أن أقدم جزيل الشكر والتقدير إلى فضيلة الاستاذ الدكتور احمد فريد على صبره وتحمله متاعب الاشراف على هذه الرسالة، وعلى توجيهاته السديدة وآرائه القيمة التي أثرت هذه الرسالة. كما اتوجه بجزيل الثناء والتقدير للأستاذين الكبيرين والعالمين الجليلين، الدكتور فضل حسن عباس والدكتور احمد نوفل اللذين شرفاني بقبول مناقشة هذه الرسالة، حيث كان لذلك اثر كبير في إغنائها وتكميلها.

سائلاً المولى سبحانه أن يحفظهم جميعاً للعلم والدين وان يتولاهم برعايته وإفضاله.

مقدمة

حول أهمية هذا البحث ووجه الحاجة إليه

مراعاة أدب الخطاب لها أثر كبير في تحقيق هدف المتكلم واستثارة كمائن الخير في نفس المخاطب، وتهيئته نفسياً لاستقبال الكلام، وفهم المراد منه.

وفي أدب الخطاب امتصاص مسبق لرد الفعل المتوقع، حيث إنه يساعد على استنزال الخصم وإطفاء سورة(١) نفسه في رفض الحق.

ويعين هذا الأدب على فهم دوافع المتكلم، وأنه لا يريد الاستعلاء على المخاطبين أو الانتقاص منهم أو الظهور عليهم، بل يريد لهم الرحمة والخير، وبهذا تتهيأ الفرصة للحوار والجدال بالتي هي أحسن.

والكلام الفظ الغليظ ينفر منه الطبع السليم، ويتحفز السامع بسببه للانتقام والرد، وتموت في نفسه عوامل الرغبة في تقبل الكلام أو سماعه، ويحاول أن يرد على قائله بكلام آخر أكثر قسوة، وغلظة، فتتنافر القلوب وتختلف، ويحصل عكس المطلوب.

وإن سلاسة القول كما تتألف النافر، وتقرب البعيد، فإنها تزيد الأليف الفة والقريب قرباً، وتمنحهما باعثاً نفسياً على إتيان ما يطلب منهما من الخير ،وتزيد همتهما نشاطاً، وفكرتهما اتقاداً ورؤيتهما وضوحاً». (٢).

---

(١) سورة نفسه أي شدتها وصولتها، من سَوْرة الخمر: حدتها وسَوْرة البرد،شدته، وسورة السلطان: سطوته واعتداؤه، انظر الفيروز ابادي، مجد الدين محمد بن يعقوب، القاموس المحيط دار العلم للجميع، بيروت(٢/ ٥٣).

(٢) الخليلي، أحمد بن حمد، جواهر التفسير، مكتبة الاستقامة، مطابع دار جديدة عُمان للصحافة، ط١٩٨٦(٢/ ٤١٠).

والقول الفظ يقطع مسالك الحق إلى القلوب؛ فكم من حق ضاع بسبب اللبوس الذي اكتساه من الكلام الفظ الغليظ، وكم من باطل وجد إلى النفوس مسلكاً بسبب معسول القول، ولين الكلام.

وفي هذا الزمان نجد الدعاة والخطباء والمربين بحاجة ماسة للتعرف على هذا الأدب ومناهجه، ومسالكه، وذلك تسهيلاً لطريق الكلمة كي تصل الى القلوب، لئلا تضيع الجهود وتهدر الطاقات، ولكي يتحقق الهدف بأيسر طريق وأقرب سبيل.

وأعتقد ان التجافي عن هذه الأدب باعد المسافة بيننا وبين ثمرات التربية والتوجيه، والوعظ، والارشاد، حيث أصبحت مسالك الفساد ميسرة الى النفوس، وانحرف الكثيرون تحت لمعان الكلام، وبريق القول.

وآمل أن تساعد هذه الدراسة المتواضعة على إبراز أهم مميزات وخصائص الخطاب القرآني الكريم، والتعرف على أدب القرآن في مخاطبة أنواع الناس، حيث سيتيح ذلك لنا فرصة التأدب بأدب القرآن في مخاطبة الآخرين، وهذا هو الخيار الوحيد الذي نملكه اذاً رغبنا لكلمتنا ان تلاقي الاستحسان و الاستجابة والقبول.

ولا بد هنا من القول بأن تعلم قواعد النحو والصرف و علوم البلاغة والمعاني والبيان البديع، وعلم الاشتقاق والخط وغيرها من علوم اللغة أمر أساسي في فهم الأدب القرآني في مخاطبة الآخرين، وفي فهم الكثير من مرامي الكتاب العزيز ومقاصده، وبهذا نكون قد اشتغلنا بما ينفع وصنا أنفسنا عن السعي في خدمة اللغات الأجنبية، تاركين لغة قرآننا، شأننا في ذلك

كتاركه بيضها في العراء وملبسة بيض أخرى جناحا[1]

يقول الشيخ مصطفى صادق الرافعي (رحمه الله):

(وما فرط المسلمون في أداب هذا القرآن الكريم، الا منذ أن فرطوا في لغته فأصبحوا

---

(١) يشير الشاعر الى طائر ابله يضع بيضه ثم يتركه، فينسى مكانه فيحتضن أي بيض يجده لطائر آخر.

لا يفهمون كلمه ولا يدركون حكمه، ولا ينتزعون أخلاقه وشيمه، وصاروا إلى ما هم عليه من عربية كانت شراً من العجمة الخالصة، واللكنة الممزوجة فلا يقرؤون الكتاب إلا أحرفا، ولا ينطقون إلا اصواتاً)[1].

وقد أدركت وأنا أعد هذه الدراسة أسباب الجهد الناصب الخبيث الذي يهدف إلى تجهيل الأمة بلغتها وعلومها، والدعوة إلى الكتابة بالعامية[2] إنه كيد منظم مدروس يرمي إلى فك ارتباط الأمة بكتاب الله، والاكتفاء بالولاء العاطفي له على أنه كتاب مقدس يحتفظ به، ويتلى للبركة ليس أكثر.

وتشير هذه الدراسة إلى نماذج من مخاطبات الكفار التي تكشف عن جهلهم بأدب الخطاب، وتوميء إلى مراكب النقص المتأصلة في نفوسهم، والتي تقود خطاهم العاثرة إلى المكابرة والعناد، وإنما فعلت ذلك رغبة في التنفير من طرائقهم في الخطاب، والترغيب في العدول عنها والاقتراب من الأسلوب القرآني في مخاطبة الناس، تأليفاً لقلوبهم، وتليينا لمواقفهم، واستنزالاً لهم عن رتبة المكابرة والعناد.

****

---

(١) الرافعي، مصطفى صادق، اعجاز القرآن والبلاغة النبوية، المطبعة التجارية الكبرى، مصر، الطبعة الثامنة، ١٩٦٥ص، ١١٣.

(٢) من هؤلاء الدعاة قاسم أمين الذي نعى على الفصحى صعوبتها، واحمد لطفي السيد الذي دعا الى استعمال العامية، واسكندر المعلوف الذي دعا الصحف والمجلات الى الكتابة بالعامية، وسلامة موسى الذي سار على خطا وليم ولكوكس المهندس الانجليزي في الدعوة الى هجر العربية.
انظر د. حسين، محمد محمد، (الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر)، دار الارشاد، بيروت، طبعة،١٩٧ (٢/ ٣٥٩) وما بعدها.



التمهيد

ويتضمن المباحث التالية:

» (اولاً) معنى الأدب لغة واصطلاحاً:

الأدب لغة: الظرف وحسن التناول[١] وذكر ابن فارس ان الأدب هو دعاء الناس الى طعامك، والآدب هو الداعي الى المأدبه، ثم قال: واشتقاق الأدب من ذلك، كأنه أمر قد أجمع عليه وعلى استحسانه[٢].

وعرفه الزبيدي بأنه هو الذي يتأدب به الأديب من الناس؛ سمي به لأنه يأدب الناس إلى المحامد وينهاهم عن المقابح، وذكر ان أصل الأدب الدعاء،[٣] ونقل عن شيوخه أن الأدب ملكة تعصم من قامت به عما يشينه.

وجاء في المعجم الوسيط أن الأدب رياضة النفس بالتعليم والتهذيب، والأديب هو الأخذ بمحاسن الأخلاق[٤].

ويبدو أن ما نقله الزبيدي عن شيوخه هو أقرب التعريفات الى المعنى الذي تقصده هذه الدراسة، والذي يتركز على أدب توجيه الكلام إلى من نخاطبهم،وهو ما سأبينه تالياً.

والأدب اصطلاحاً:»علم يحترز به عن الخلل في كلام العرب لفظاً أو كتابة:

---

(١) الفيروز ابادي، ماجد الدين محمد ابن يعقوب، القاموس المحيط، بيروت، دار العلم للجميع(١/ ٣٦).

(٢) ابن فارس، ابو الحسن احمد(مجمل اللغة)دارسة وتحقيق زهير عبد المحسن، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية،(١/ ٩).

(٣) الزبيدي، محمد مرتضى الحسيني(تاج العروس من جواهر القاموس)، مطبعة حكومة الكويت، طبعة ١٩٦٦.(٢/ ١٢).

(٤) أنيس، د. ابراهيم ورفاقه، المعجم الوسيط، الطبعة الثانية،(١/ ٩).

أصوله اللغة والصرف[١] والاشتقاق[٢] والنحو[٣] والمعاني[٤] والبيان[٥] والبديع[٦] والعروض[٧] والقافية[٨]، وفروعه الخط وقرض الشعر، والانشاء، والمحاضرات[٩].

ويرىٰ الأستاذ احمد البدوي ان الأدب فن من الفنون الجميلة، ينبع من الموهبة، ويفيض من الفطرة، ثم تسدده علوم الأدب و تهدئ خطاه[١٠].

» ثانياً: تعريف الخطاب وبيان مفهوم الخطاب القرآني بوجه عام

يرىٰ أبن فارس أن الخطاب هو كل كلام بينك وبين آخر[١١]، وقريب منه قول

---

(١) الصرف: علم يبحث في صورة الكلمة وهيئتها

(٢) الاشتقاق: علم يبحث في أنتساب بعض الكلمات الىٰ بعض: بدوي، أحمد أحمد، (من بلاغة القرآن)، مكتبة نهضة مصر للطبع والنشر - الفجالة، القاهرة، الطبعة الثالثة ص٢.

(٣) النحو: علم يبحث في احوال آخر الكلمة،من حيث تغيير حركته، أو لزومه حركة أو وضعاً و احداً.

(٤) علم المعاني (علم يبحث في اسرار تركيب الجملة، والمعاني التي تفهم من تكوينها علىٰ نحو مخصوص) انظرمن بلاغة القرآن) ص١٨.

(٥) علم البيان: (علم موضوعه التصوير الذي يهب الفكرة وضوحاً وقوة، وتأثيراً في نفس المخاطب أو القارئ، لذا فموضوعية التشبيه، والكناية والاستعارة والمجاز) انظر (من بلاغة القرآن)ص١٩.

(٦) البديع: (علم يبحث في المحسنات اللغوية أو اللفظية التي تزيد في جمال اللفظ، وقوة تأثيره، ووضوح معناه) انظر من بلاغة القرآن.ص١٩.

(٧) العروض: هو ميزان الشعر.

(٨) القافية: هي آخر كلمة في البيت، أو آخر حرف ساكن فيه أو هي الحرف الذي تبنىٰ عليه القصيدة، انظر القاموس المحيط (٤/ ٣٨).

(٩) الكفوي، ابو البقاء، ايوب بن موسىٰ الحسيني، الكليات (معجم في المصطلحات والفروق اللغوية) منشورات وزارة الثقافة والارشاد القومي، دمشق، سنة ١٩٧٤م(١/ ٩١).

(١٠) بدوي، احمد احمد، (من بلاغة القرآن)ص ٢٢.

(١١) ابن فارس، ابو الحسين احمد (مجمل اللغة) دراسة وتحقيق زهير عبد المحسن، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٦ .مؤسسة الرسالة، (١/ ٢٩٥)

التفتازاني بأن الخطاب هو توجيه الكلام إلى حاضر[١] والاصل فيه أن يكون لمعين وقد يترك الى غير مُعين ليعم كل مخاطب على سبيل البدل، لا بمعنى انه يتناول جميع المخاطبين دفعة واحدة ولكن على البدلية والتناوب[٢] نحو قوله تعالى: (ولو ترى اذا المجرمون ناكسو رؤوسهم) السجدة (١٢) قال السعد التفتازاني «لا يريد بقوله (ولو ترى...) مخاطباً معيناً، قصداً الى تفظيع حالهم، أي أن حالهم تناهت في الظهور لأهل المحشر الى حيث يمتنع خفاؤها فلا يختص بهذا الخطاب مخاطب دون مخاطب، بل كل من تتأتى منه الرؤية فله دخل في هذا الخطاب»[٣].

والخطاب القرآني: هو كلام الله الموجه إلى المكلفين بقصد تفهيمهم ما لهم وما عليهم، مما هو مصلحة لهم في دنياهم وأخراهم،وهذا يستلزم كونه بيناً واضحاً لا اجمال فيه ولا اشتباه، ولو كان فيه بحسب هذا القصد اشتباه واجمال لناقض أصل المقصود من الخطاب فلم تقع فائدة[٤].

ومعلوم عند أهل العربية أن الاعتناء بالمعاني المبثوثة في الخطاب هو المقصود الأعظم، بناء على أن العرب كانت عنايتها بالمعاني، وإنما أصلحت الألفاظ من اجلها، ولا يعُبأ بالمعنى الافرادي إذا كان المعنى التركيبي مفهوماً من دونه.

فاللازم الاعتناء بفهم معنى الخطاب لأنه هو المقصود والمراد،وعليه ينبني الخطاب ابتداء[٥].

---

(١) الخطيب القزويني، محمد بن عبد الرحمن، (تلخيص المفتاح وشرحه مختصر المعاني) مطبعة البابي الحلبي، الطبعة الأخيرة، ص٤٨.

(٢) عباس، د. فضل حسن (البلاغة فنونها وأمتانها وعلم المعاني) عمان، دار الفرقان الطبعة الثانية.

(٣) تلخيص المفتاح ص٤٨.

(٤) انظر الشاطبي، ابو اسحق ابراهيم بن موسى (الموافقات في اصول الشريعة) دار المعرفة بيروت الطبعة الثانية،١٩٧٥(٣١/ ٣٤٤).

(٥) نفس المصدر السابق(٢/ ٨٧)

وكثيراً ما يغفل الدارسون والباحثون في الكتاب العزيز والحديث الشريف عن ذلك؛ فيلمسون غرائبه ومعانيه على غير الوجه الصحيح، فتستعصي عليهم المعاني ولا يستبين لهم القصد، رغم الجهد الكبير الذي يبذلونه في الوقت على المعاني ا لافرادية، والمماحكات اللغوية.

وقد التزم الصحابة رضوان الله تعالى عليهم بالبحث عن المعنى التركيبي في القرآن الكريم، ولم يذهبوا شططاً في البحث عن المعاني الأفرادية؛ فمن أنس رضي الله عنه أن رجلاً سأل عمر بن الخطاب (رضي الله عنه)عن قوله تعالى: ﴿**وفاكهة وأبا**﴾ عبس(٢١) ما الأب؟ فقال عمر: نهينا عن التعمق والتكلف(١).

وظاهر أن هذا النهي انما ورد لأن المعنى التركيبي مفهوم على الجملة، ولا ينبني على تتبع المعاني الافرادية حكم تكليفي، والاشتغال بها عما سواها- مما هو أهم منها- تكلف(٢).

وقد عقب الشيخ الالوسي في تفسيره على هذه الحادثة فقال: ويتراءى من ذلك النهي عن تتبع معاني القرآن والبحث عن مشكلاته. وهو يقصد بذلك تتبع المعاني الافرادية للنص الكريم التي لا يضر الجهل بها في فهم المعنى الاجمالي. ولا يرى الأمام الزمخشري أن في ذلك ما يشبه النهي عن تتبع معاني القرآن ولكنه قال: «...لكن القوم كانت أكبر همتهم عاكفة على العمل، وكان التشاغل بشيء من العلم لا يعمل به تكلفاً عندهم»(٣).

---

(١) اخرجه البخاري عن انس في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب ما يكره من كثرة السؤال ومن تكلف ما لا يعنيه، حديث رقم ٧٢٩٣، ولفظه: «كنا عند عمر بن الخطاب فقال: نهينا عن التكلف، وذكره ابن حجر بتمامه في الفتح انظر ابن حجر العسقلاني، احمد بن علي (فتح الباري وشرح صحيح البخاري) بيروت، دار المعرفة(١٣/ ٢٧١).

(٢) الموافقات (٢/ ٨٨)

(٣) الزمخشري، ابو القاسم جار الله محمود بن عمر، (الكشاف عن حقائق التنزيل)، بيروت، لبنان، دار المعرفة (٤/ ٢٢).

» ثالثاً غرض الخطاب القرآني

القرآن الكريـم كتاب ختم اللـه به الكتـب، وأنزله علىٰ نبـي ختم به الأنبيـاء بدين عام خالد ختم به الأديان.

فهو دستور الخالق لاصلاح الخلق، وقانون السماء لهداية الأرض، أنهىٰ اليه منزله سبحانه كل تشريع، وأودعه شروط النهضة، ومقومات الحضارة الإنسانية، وأوضح فيه معالم السعادة الدنيوية والأخروية.

والعالـم بهذا القـرآن عالم بجملة الشريعة، فهـو عمدة الملـة، وينبـوع الحكمة، وآية الرسـالة، ونور البصائر، ولا طريق الىٰ الله سـواه، ولا نجاة بغيره، وهذا كلـه لا يحتاج إلىٰ تقرير واسـتدلال عليه لأنه معلوم من الدين بالضرورة[1]، وقد بين القـرآن الكريم ذلك في آيات كثيـرة منها قولة سـبحانه (اليوم أكملت عليكـم دينكم) المائدة وقولـه: (ونزلنا عليك القرآن تبياناً لكل شيء) النحل(٧٩).

وقوله عز وجل ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ الاسراء(٩).

ويمكن القول بأن أهم اغراض الخطاب القرآني الكريم تتلخص فيما يلي:

- **اولاً:** التعريف بالقرآن، وأنه معين الهداية وينبوع الحكمة. وإقامة الأدلة والشـواهد علىٰ ذلك. وقد وردت في الذكر الحكيم عشرات الآيات مشيرة إلىٰ هذا الغرض، منها قوله تعالىٰ: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ البقرة(٢).

وقولـه سبحانه: ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ ﴾البقرة(١٠١).

وقوله: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ﴾ البقرة(١٢١).

---

(١) الموافقات في أصوال الشريعة(٣/ ٣٤٦)

وقوله عز وجل:

- ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾ البقرة(١٥٩).
- ﴿وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ ﴾ البقرة (٢١٣).
- ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٌ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ ال عمران(٧).
- ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِيهِنَّ وَمَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ﴾ النساء(١٢٧).
- ﴿قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ﴿١٥﴾ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ ﴾ المائدة(١٥).
- ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٞ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾ الانعام (٩٢).
- ﴿وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ ﴾ النحل (٨٩).

- **ثانياً**: دعوة الناس كافة إلى الدخول في دين الله، وذلك بشتى الأساليب والوسائل وترغيبهم في شعائره وشرائعه، وذكر قصص الأمم السابقة التي اتبعت الرسل كيف نجحت ونجت، وبيان عاقبة الذين كذبوا الرسل كيف هلكوا ودُمروا.

من ذلك قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ ﴾ البقرة(٢٠٨).

قال الأمام الشوكاني: «والسلم بفتح السين وكسرها، قال الكسائي: ومعناهما واحد، وهما جميعاً يقعان للاسلام والمسالمة، وقال ابو عمر وبن العلاء: إنه بالفتح للمسالمة وبالكسر للإسلام، وأنكر المبرد هذه التفرقة، وقال الجوهري: السلم بفتح السين: الصلح، ورجح الطبري انه هنا بمعنى الإسلام»[1] وهو ما يرجحه الباحث، ويميل إليه.

---

(١) الشوكاني، محمد بن علي محمد (فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير) مصر، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، الطبعة الثانية١٩٦٤، (١/ ٢١).

ومن ذلك قوله تعالى:

- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ آل العمران(١٠٢).
- ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ ال عمران(١٩).
- ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ ال عمران(٨٥).
- ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ الانعام(١٢٥)
- ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ المائدة(١١١).
- ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ الاعراف(١٢٦).
- ﴿رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ الحجر(٢).
- ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ فصلت(٣٣).

- **ثالثاً**: دعوة أهل الكتاب دعوة خاصة الى ترك باطلهم والدخول في دين الإسلام[١]. وذلك عبر قنوات الحوار و الجدال بالتي هي أحسن من ذلك قوله تعالى:

﴿يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم﴾ال عمران(٦٤).

وقوله **﴿يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله﴾** ال عمران (٧٠).

وقوله **﴿يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل﴾** ال عمران(٧١).

- **رابعاً**: بيان الأحكام الشرعية العملية.وفي هذا السبيل مهّد الخطاب القرآني اولاً بالدعوة إلى توحيد الله سبحانه، لتقرير وحدة الربوبية ووحدة الالوهية، فلا رب

---

(١) دراز، محمد عبد الله (النبأ العظيم) مطبعة السعادة، مصر طبعة، ١٩٦٠، ص١٥٩.

غيره سبحانه ولا معبود سواه[١]، ثم الانتقال بعد ذلك إلى تقرير وحدة الأمر المطاع؛ حيث أن مقتضى التوحيد الا نجعل لغير الله حكماً في تصرفاتنا، بل المطلوب أن نعتقد بأنه لا حاكمية الا لله تعالى.

والشواهد على ذلك من كتاب الله أكثر من أن تحصى، فأتركها لفطنة القارئ الكريم.

وفي سبيل تحقيق الإغراض الرئيسية المذكورة، عرض الخطاب القرآني للحديث عن الجنة والنار، والحساب والعقاب والحشر والنشور، وبين غاية الخلق ومقصد الموت والحياة، وعرض لبعض الآيات الدالة على الله سبحانه في السموات والأرض وفي الأنفس. وحاور الكافرين وأهل الكتاب، وبين سبل النجاة وأسباب الهلاك وأكد على فقر الإنسان وضعفه وحاجته لخالقه ومولاه سبحانه وبين أهمية العبودية لله وأثرها في تهذيب سلوك الإنسان وحسن عاقبته في الدنيا والآخرة.

وسلك في هذا السبيل أسلوباً عجيباً معجزاً يخاطب النفس الإنسانية بجميع جوانبها عقلاً وقلباً ووجداناً، حيث يتركها أمام الدليل الناصع والحجة الواضحة لتتجه نحو الإيمان بقوة، من غير ريب ولا شك، ولكي تقوم الحجة على المتكبرين والمعاندين الذين رأوا الحق فأعرضوا عنه، وعرفوا الدليل فلم يستجيبوا له.

» رابعاً: انواع الخطاب في القرآن الكريم

وجوه المخاطبات في القرآن الكريم كثيرة، ذكر منها الزركشي في البرهان ثلاثة وثلاثين وجهاً[٢]. وذكر السيوطي في الاتقان اربعة وثلاثين وجهاً[٣].

---

(١) النبأ العظيم ص١٨٨.

(٢) الزركشي، بدر الدين محمد بن عبد الله (البرهان في علوم القرآن) عيسى البابي الحلبي وشركاه، الطبعة الثانية ٢١/ ٢١٦).

(٣) السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن (الاتقان في علوم القرآن) المكتبة الثقافية، طبعة١٩٧٩م، بيروت (٢/ ٣٣).

وقد رأيت أن هذه الوجوه ليست على سبيل الحصر، فالقرآن بحر زاخر بما لذ وطاب من أصناف الكلام وفنون القول، وكما قال ابن القيم فيما نقله عنه صاحب الاتقان:

«تأمل خطاب القرآن تجد ملكاً له الملك كله، وله الحمد كله، أزمة الأمور كلها بيده، ومصدرها منه، ومورد ها اليه، مستوياً على العرش، لا تخفى عليه خافية من أقطار مملكته...فتأمل كيف تجده يثني على نفسه، ويمجد نفسه، وينصح عباده، ويدلهم على ما فيه سعادتهم وفلاحهم، ويرغبهم فيه، ويحذرهم مما فيه هلاكهم، ويتعرف اليهم بأسمائه وصفاته، ويتحبب اليهم بنعمة والائه؛ يذكرهم بنعمة عليهم ويأمرهم بما يستوجبون به تمامها، ويحذرهم من نقمه، ويذكرهم بما أعد لهم من الكرامة إن اطاعوه، وما أعد لهم من العقوبة إن عصوه، ويخبرهم بصنعه في أوليائه وأعدائه، وكيف كانت عاقبة هؤلاء وهؤلاء، ويثني على أوليائه بصالح أعمالهم وأحسن أوصافهم، ويذم أعداءه بسيء أعمالهم، و قبيح صفاتهم، ويضرب الأمثال وينوع الأدلة والبراهين، ويجيب على شبه أعدائه أحسن الاجوبة، ويصدّق الصادق، ويكذب الكاذب، ويقول الحق ويهدي السبيل..وتشهد من خطابه عتابه لاحبابه الطف عتاب، وإنه مع ذلك مقيل عثراتهم، وغافر زلاتهم.ومقيم أعذارهم، ومصلح فسادهم...الخ»(١)

واذكر هنا أهم الوجوه بالقدر الذي تتسع له هذه المقدمة.

١. خطاب العام والمراد به العموم

كقوله تعالى ﴿**يا ايها الإنسان ما غرك بربكم الكريم**﴾ الانفطار(٦).

قال الفخر الرازي(أما قوله – يا أيها الإنسان– ففيه قولان: احدهما أنه الكافر، لقوله بعد ذلك (كلا بل تكذبون بالدين)والقول الثاني: أنه يتناول جميع العصاة، وهو الأقرب، لأن خصوص السبب لا يمنع عموم اللفظ)(٢).

---

(١) نفس المصدر السابق(٢/ ٣٥)

(٢) الرازي، فخر الدين بن العلامة ضياء الدين عمر خطيب الري، تفسير الفخر الرازي، دار الفكر، بيروت، الطبعة الثالثة ١٩٨٥، (٣١/ ٨٠).

وكقوله تعالى ﴿يا ايها الناس اعبدوا ربكم﴾ البقرة(٢١) قال الفخر«اعلم أن قوله (يا ايها الناس) يقتضي أن الله تعالى أمر كل الناس بالعبادة فلو خرج بعض الناس عن هذا الخطاب لكان ذلك تخصيصاً للعموم» ثم ذكر أن لفظ الجمع المعرف بلام التعريف يفيد العموم[(١)].

٢. خطاب الخاص والمراد به الخصوص

كقوله تعالى ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا ﴾ الاحزاب(٣٧).

قال ابو السعود في تفسيره: المراد الامر بتزويجها منه عليه السلام، وقيل جعلها زوجته بلا واسطة عقد، يؤيده أنها كانت تقول لسائر نساء النبي عليه السلام، أن الله تعالى تولى نكاحي، وأنتن زوجكن اولياؤكن)[(٢)].

٣. خطاب الخاص والمراد به العموم

كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ الطلاق(١) افتتح الخطاب بالنبي والمراد سائر من يملك الطلاق.

قال ابو السعود: تخصيص النداء به عليه السلام مع عموم الخطاب لأمته لتشريفه عليه السلام، وتحقيق جلالة منصبه، وتحقيق انه المخاطب حقيقة، ودخولهم في الخطاب بطريق استتباعه عليه السلام إياهم وتغليبه عليهم.[(٣)]

وكقوله تعالى: ﴿يا ايها النبي جاهد الكفار والمنافقين﴾ التوبة(٨٣) يقول الامام القرطبي: (الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم وتدخل فيه أمته من بعده)[(٤)].

---

(١) نفس المصدر السابق(٢/ ٩٣).

(٢) ابو السعود، ابن محمد العمادي، ارشاد والعقل السليم الى مزايا الكتاب الكريم، دار الفكر، (٥/ ٣٢٣).

(٣) تفسر ابو السعود(٥/ ٧٣٢).

(٤) القرطبي، ابو عبد الله محمد بن احمد الانصاري (الجامع لاحكام القرآن) مؤسسة مناهل العرفان، بيروت (٨/ ٢٠٤).

ومنه قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ سورة الاحزاب(٥٠).

قال ابو بكر الصيرفي فيما نقله عنه الإمام الزركشي كان ابتداء الخطاب له صلى الله عليه وسلم فلما قال في الموهوبة(خالصة لك) علم أن ما قبلها له ولغيره صلى الله عليه وسلم.

ومثله قول الحق سبحانه ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾ الإنسان(٢٠) قال الفخر الرازي: (قال بعضهم قوله (وإذا رأيت) خطاب لمحمد صلى الله عليه وسلم خاصه، وقال آخرون بل هو خطاب لكل احد)[1] والذي نرجحه ان هذا الخطاب وإن كان ظاهره للنبي صلى الله عليه وسلم، الا أنه يصدق على كل من يدخل الجنة.

٤. خطاب العام والمراد به الخصوص

كقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ﴾ آل عمران (١٧٣).

فعموم كلمة الناس يقتضي دخول جميع الناس في اللفظين، والمراد بعضهم، لأن القائلين غير المقول لهم[2].

قال ابن جزي: (الناس الأول: ركب عبد القيس، والناس الثاني مشركو قريش)[3].

وقوله: ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةً﴾ النساء(٤) هذا عام في الصغيرة والبالغة عاقلة او مجنونة. ثم خص بقوله تعالى في آخر الآية ﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا﴾، النساء(٤) فخصها بالعاقلة، لأن من عداها عبارتها ملغاة في العفو[4].

---

(١) تفسير الفخر الرازي(٣٠/ ٢٥٢)

(٢) البرهان في علوم القرآن(٢/ ٢١٨).

(٣) ابن جزي، محمد بن احمد بنت جزي الكلبي، تفسير ابن جزي، دار الكتاب العربي، بيروت، طبعة ١٩٨٣م، ص ١٠١.

(٤) البرهان، ٢/ ٢٢١.

٥. خطاب الجنس:

نحو قوله تعالى: ﴿يا ايها الناس اتقوا ربكم﴾ النساء(١) فإن المراد جنس الناس، لا كل فرد فيه فغير المكلف لا يدخل تحت هذا الخطاب.

٦. خطاب النوع:

وهو أخص من الجنس نحو قوله تعالى ﴿يا بني اسرائيل﴾ البقرة(٤٠) والمراد به بنو يعقوب عليه السلام ومعناه بالعبرية صفوة الله وقيل عبد الله، وقد خصهم الخطاب بالذكر بما انهم اوفر الناس نعمة وأكثرهم كفراً بها[١].

٧. خطاب العين:

نحو ﴿ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾ البقرة(٣٥) ﴿يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ﴾ هود(٤٨)، ﴿يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ﴾ الصافات(١٠٥) ﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْآمِنِينَ﴾ القصص(٣١) ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ ال عمران(٥٥).

٨. خطاب المدح:

وقد وقع هذا في القرآن الكريم خطاباً لأهل المدينة الذين آمنوا وهاجروا تمييزاً لهم عن أهل مكة[٢] نحو قوله تعالى(يا أيها الذين آمنوا) ولا شك أن المؤمنين من أهل مكة يدخلون في هذا الخطاب ايضاً.

ونادراً ما يأتي خطاب الذم بهذه الصيغة، حيث ورد في القرآن الكريم في موضعين اثنين لتضمنه الإهانة وهما قوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَعْتَذِرُوا۟ ٱلْيَوْمَ﴾ التحريم(٧) وقوله ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ الكافرون(١).

---

(١) انظر ابا السعود(١/ ١١٦).

(٢) انظر الاتقان في علوم القرآن(٢/ ٣٣).

٩.خطاب التهكم:

ويقال له ايضاً السخرية والاستهزاء وهو اظهار عدم المبالاة بالمستهزأ أو المتهكم به، ولو كان عظيماً، مأخوذ من تهكمت البئر: إذا تهدمت(١) ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ قَالُواْ يَـٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ ﴾ هود(٨٧).

قال ابن كثير: أي قالوا له ذلك على سبيل التهكم(٢) قبحهم الله.

وقوله تعالى: ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴾ الدخان(٤٩).

هو خطاب لأبي جهل(٣) الذي كان يدّعي بانه لا أحد اكرم منه بين جبليها -يعني مكه- وجاء في تفسير ابن كثير عن عكرمة قال: لقى الرسول الله صلى الله عليه وسلم ابا جهل لعنه الله تعالى فقال: إن الله أمرني أن أقول لك: (اولى لك فأولى ثم اولى لك فأولى) قال: فنزع ثوبه من يده وقال: ما تستطيع لي أنت ولا صاحبك من شيء، وقد علمت أني أمنع أهل البطحاء، وأنا العزيز الكريم، قال: فقتله الله تعالى يوم بدر، وأذله وعيّره بكلمته، وأنزل ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴾(٤).

وذكر القرطبي عن قتادة قوله أنّ هذه الآية مذكورة على لسان خزنة جهنم(٥) وهو ما نرجحه انسجاماً مع السياق القرآني، علماً بأن السورة مكية وغزوة بدر حدثت في السنة الثانية للهجرة.

---

(١) مجمل اللغة(٣/ ٩٠٧).

(٢) بان كثير، ابو الغداء اسماعيل ابن كثير القرشي الدمشقي، (تفسير القرآن الكريم) دار الأندلس بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٦٦، (٣/ ٥٧١).

(٣) انظر تفسير فتح القدير(٤/ ٥٨٠).

(٤) انظر تفسير ابن كثير (٦/ ٢٦٠)

(٥) القرطبي ابو عبد ا الله محمد ابن احمد الانصاري الجامع لأحكام القرآن بيروت، مؤسسة مناهل العرفان(٩/ ٨٩).

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴾ الواقعة(٤٤،٤٣) وذلك لأن الظل من شأنه الاسترواح، واللطافة، فنفي هنا، وذلك لأنهم لا يستأهلون الظل الكريم[(١)].

١٠. خطاب الجمع بلفظ واحد:

كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا﴾ الانشقاق(٦).

وقوله: ﴿وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾ العصر(١-٢).

قال الرازي: (الالف واللام يحتمل أن تكون للجنس، وأن تكون للمعهود السابق، فلهذا ذكر المفسرون فيه قولين:

- **الأول:** ان المراد منه الجنس وهو كقولهم «كثر الدرهم في أيدي الناس» ويدل على هذا القول استثناء الذين آمنوا من الإنسان.

- **الثاني:** المراد منه شخص معين، قال ابن عباس: يريد جماعة من المشركين كالوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل، والاسود بن عبد المطلب[(٢)].

١١. خطاب الواحد بلفظ الجمع

كقوله تعالى: ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ النور(٢٢) خاطب بذلك ابا بكر الصديق لما حرم مسطحاً رفده حين تكلم في حديث الإفك.

ومثله قوله الحق سبحانه ﴿ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ﴾ النحل (١٢٧) خاطب به النبي صلى الله عليه وسلم بدليل قوله ﴿ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ﴾[(٣)].

(١) البرهان في علوم القرآن(٢/ ٢٣٣).

(٢) تفسير الفخر الرازي، (٣٢/ ٨٦) وانظر (٣١/ ١٠٦).

(٣) انظر البرهان، في علوم القرآن(٢/ ٢٣٥).

وقوله: ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ الشعراء(١٠٥) وانما قال المرسلين لأن من كذب رسولاً فقد كذب الرسل[١].

١٢. خطاب الواحد والجمع بلفظ الاثنين

كقوله تعالى: ﴿فَأَلْقِيَاهُ فِي ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ﴾ ق(٢٤) قال الزركشي في البرهان: المراد مالك خازن النار[٢].

وقال ابو السعود في تفسيره: الخطاب للسائق والشهيد أو للملكين من خزنة النار، أو لواحد على تنزيل تثنية الفاعل منزلة تثنية الفعل وتكريره[٣]. وهذا قول لا يخلو من التكلف ونقل القرطبي عن الخليل والأخفش أن من كلام العرب الفصيح أن تخاطب الواحد بلفظ الاثنين[٤].

١٣. خطاب الاثنين بلفظ الواحد

منه قوله سبحانه ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ﴾ طه(٤٩) قال القرطبي: "خصه بالذكر لأنه صاحب الرسالة والكلام، وقيل: انهما جميعاً بلغا الرسالة وإن كان هارون ساكتاً، لأنه في وقت الكلام انما يتكلم واحد"[٥] وقال الزمخشري خاطب الاثنين ووجه النداء إلى احدهما وهو موسى لأنه الأصل في النبوة، وهارون وزيره وتابعه، ويحتمل أن يحمله خبثه ودعارته على استدعاء كلام موسى دون كلام أخيه لما عرف من فصاحة هارون والرتة في لسان موسى[٦]. وهو الراجح.

---

(١) الصابوني: محمد علي، صفوة التفاسير، دار القرآن الكريم، بيروت، الطبعة الرابعة(٢/ ٣٨٧).

(٢) انظر(٢/ ٢٣٩).

(٣) انظر(٥/ ٦٢٢).

(٤) انظر الجامع لأحكام القرآن(١٧/ ١٦) عند تفسير قوله تعالى (القيا في جهنم...)

(٥) الجامع لاحكام القرآن (١١/ ٢٠٤).

(٦) الزمخشري، ابو القاسم جار الله محمود بن عمر الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الاقاويل في وجوه التأويل، دار المعرفة، بيروت،(٢/ ٥٣٩).؟

ومن ذلك قوله تعالىٰ: ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ﴾ طه (١١٧).

ربما أفرده بالشقاء إشارة إلىٰ أن التعب والكسب في معيشة الدنيا يقع في حيز الرجال»[١].

وقال صاحب الكشاف: « إنما اسند إلىٰ آدم وحده فعل الشقاء دون حواء بعد اشتراكهما في الخروج لأن في ضمن شقاء الرجل- وهو قيم أهله وأميرهم- شقاءهم كما أن في ضمن سعادته سعادتهم، فاختصر الكلام باسناده اليه دونها»[٢].

١٤. خطاب الجمع بعد الواحد

كقوله تعالىٰ: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ يونس(٨٧).

قال ابو حيان في البحر: وهو أمر لموسىٰ عليه السلام أن يتبوءا لقومهما ويختاراها للعبادة، وذلك مما يفوض إلىٰ الأنبياء، ثم نسق الخطاب عاماً لهما ولقومهما باتخاذ المساجد والصلاة فيها، لأن ذلك واجب علىٰ الجمهور ثم خص موسىٰ عليه السلام بالتبشير الذي هو الغرض تعظيماً له وللمبشر به[٣].

١٥. خطاب عين والمراد غيره

من ذلك قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ الاحزاب(١).

قال الزركشي في البرهان: «الخطاب للنبي والمراد المؤمنون لأنه صلىٰ الله عليه

(١) الاتقان في علوم القرآن(٢/ ٣٤.

(٢) أنظر الكشاف (٢/ ٥٥٦)

(٣) ابو حيان الاندلسي، محمد بن يوسف بن علي الغرناطي، البحر المتوسط، دار الفكر، الطبعة الثانية: (٥/ ١٨٦).

وسلم كان تقياً وحاشاه من طاعة الكافرين والمنافقين [١]». ومن ذلك قوله تعالى ﴿**فان كنت في شك مما انزلنا اليك فأسال الذين يقرأون الكتاب من قبلك**﴾ يونس(٩٤).

جاء في الكشاف: قيل خوطب الرسول صلى الله عليه وسلم و المراد أمته، وقيل: إن للنفي، أي فما كنت في شك، فأسأل، وقيل: الخطاب للسامع ممن يجوز عليه الشك[٢] ثم بين الامام الزمخشري مقصد الآية وهو وصف الاحبار بالرسوخ في العلم بصحة ما أنزل إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، لا وصف الرسول بالشك فيه. قلت: وهذا كلام في غاية الحسن.

١٦. خطاب التهييج[٣] والالهاب:

وهو إثارة المخاطب وتحريضه على فعل الشيء أو تركه. من ذلك قوله تعالى ﴿ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ﴾ البقرة(١٤٧).

قال ابو السعود: «والخطاب إما للنبي عليه السلام على طريقة الالهاب والتهييج لزيادة التثبيت والاشعار بأن الامتراء من المحذورية بحيث ينبغي أن ينهى عنه من لا يكاد يمكن صدوره عنه، فكيف بمن هو في صدد الامتراء؟!. وإما لكل من له صلاحية الخطاب»[٤] ومنه قوله الحق سبحانه ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ المائدة(٢٣)

وقوله (فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَوۡهُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ) التوبة(١٣) وقوله تعالى ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرٗا وَرِئَآءَ﴾ الانفال(٤١) فنجد أن الخطاب الكريم ربط التوكل والخشية، وتنفيذ أمر الله في قسمة الغنائم ربط كل ذلك بالايمان، ولما كان المخاطب

(١) انظر(٢/ ٢٤٢) وا نظر الاتقان في علوم القرآن(٢/ ٣٤).

(٢) الكشاف (٢/ ٢٥٣)

(٣) هاج الشي: ثار وبابه باع، انظر الرازي، محمد بن ابي بكر بن عبد القادر(مختار الصحاح)، دار الكتاب العربي، بيروت الطبعة الأولى، سنة ١٩٦٧، ص٧٠٣

(٤) تفسير ابو السعود(١/ ٣٧٢)

حريصاً على تقديم الدلائل على ايمانه، فلا بد له من المسارعة إلى التوكل والخشية وتنفيذ الامر القرآني في قسمة الغنائم.

١٧. خطاب التشجيع والتحريض

كقوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ الصف(٤).

ففي اعلان محبة اللـه تعالى للمقاتلين في سبيله تحريض لهم وتشجيع على القتال. ومن ذلك قوله تعالى ﴿بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ ال عمران(١٢٥).

حيث شجعهم النص القرآني الكريم على الصبر والتقوى بواسطة وعدهم بالإمداد.

ومنه قوله سبحانه (فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ) النساء (١٠٤) حيث حرضهم على القتال باعلان رجائهم من الله سبحانه ما لا يرجو اعداؤهم.

١٨. خطاب التنفير

كقوله تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ﴾ الحجرات(١٢).

قال الزركشي في البرهان: (فقد جمعت هذه الآية أوصافاً وتصويراً لما يناله المغتاب من عرض من يغتابه على أفظع وجه، فالاستفهام هنا للتقريع والتوبيخ، ثم جعل ما هو الغاية في الكراهية موصولاً بالمحبة، واسند الفعل إلى (أحدكم) مشعراً بأن أحداً لا يحب ذلك. ولم يكتف على تمثيل الاعتبار باكل لحم الإنسان بل جعله أخاً ولم يقتصر ذلك على لحم الأخ بل جعله ميتاً، وهذه مبالغات عظيمة، ومنها أن المغتاب غائب، وهو لا يقدر على الدفع لما قيل فيه فهو كالميت)(١).

---

(١) البرهان في علوم القرآن (٢/ ٢٥١) بتصرف قليل.

١٩.خطاب التشريف

قال السيوطي في الاتقان: «كل ما في القرآن مخاطبة بـ (قل) فإنه تشريف منه تعالىٰ لهذه الأمة بأن يخاطبها بغير واسطة لتفوز بشرف المخاطبة»[١].

من ذلك قوله تعالىٰ: ﴿**قل هو الله احد**﴾ وقوله ﴿**قل أعوذ برب الفلق**﴾ وقوله سبحانه: ﴿**قل آمنا بالله**﴾ آل عمران(٨٤).

ومنه مخاطبته سبحانه لهم بقوله تعالىٰ: ﴿**يا أيها الذين آمنوا**﴾

وسيأتي بيان ذلك عند الحديث عن أدب مخاطبة المؤمنين في الفصل الأول/ المبحث الثاني من هذه الرسالة[٢].

وذكر الأمام السيوطي أن وجوه الخطاب القرآني ثلاثة أقسام:

قسم لا يصلح الا للنبي صلىٰ الله عليه وسلم، وقسم لا يصلح الا لغيره عليه السلام وقسم يصلح لهما، ونقل عن بعض الأقدمين أن القرآن أنزل علىٰ ثلاثين نحوا وكل نحو منه غير صاحبه، فمن عرف وجوهها ثم تكلم في الدين أصاب ووفق، ومن لم يعرفها وتكلم في الدين كان الخطأ إليه أقرب[٣]. ومن هذه الوجوه: المكي والمدني، والناسخ والمنسوخ، والمحكم والمتشابه،والتقديم والتأخير، والخاص والعام، والأمر والنهي، والوعد والوعيد، والخبر والاستفهام، والمواعظ والامثال والقسم، وغيرها.

ولعل تعدد الآراء في وجوه الخطاب القرآني يرجع إلىٰ زاوية نظر كل من اصحابها،ونرىٰ في كل منها فائدة للدارسين والباحثين والله موفق.

---

(١) الاتقان في علوم القرآن(/ ٣٤)

(٢) انظر ص من هذا الكتاب.

(٣) السيوطي جلال الدين عبد الرحمن، (معترك الاقران) تحقيق محمد علي بجاوي، طبعة دار الفكر العربي، القسم الاول، ص٢٣١، وانظر الاتقان (٢/ ٣٤).

» خامساً: مميزات الخطاب القرآني

القرآن هو معجزة نبينا الكبرى، لما حوى من خصائص في الفاظه وأسلوبه. ولتأثيره البالغ في النفوس، واعجازه العرب أجمعين، بل الأنس والجن، ولو كان بعضهم لعبض ظهيراً، وصدق الله العظيم ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ الأسراء(٨٨).

ولا أزعم هنا أنني أستطيع تحت هذا العنوان الاحاطة بمزاياه العظيمة، ولكني استأذن القارئ لأعرض نقطة من بحر مزاياه؛ فإن ما لا يدرك كله لا يترك جله. فمن هذه المزايا:

- **أولاً**: جريان الفاظه على نسق بديع، خارج عما ألفه العرب من طرائق الخطاب؛ فلا هو بالشعر ولا هو بالنثر، ومع ذلك يجد القارئ لهذا الذكر الحكيم نفسه أمام توقيع موزون، يسري في جميع كلماته على نسق عجيب، يُحدث في النفس رغبة وميلاً لطلب المزيد، رغم تحرره من قيود التفعيلة والقافية، وتعبيره عن المعنى الذي يريد بالكلمة التي يريد[1] «من أجل ذلك تحيّر العرب في أمره، إذ عرضوه على موازين الشعر فوجدوه غير خاضع لأحكامه، وقارنوه بفنون النثر فوجدوه غير لاحق بالمعهود من طرائقه، فكان أن انتهى الجاحدون منهم إلى أنه السحر، واستيقن المنصفون منهم بأنه تنزيل من رب العالمين»[2].

وعندما نزل القرآن، وأخذ القوم بنسجه البديع، ولفظه العذب وأسلوبه المحكم، خافوا على من كانوا يعرفون بليغ القول من قومهم أن ياخذهم ايمانهم بهذا القرآن فيسلموا

(١) حتى إن الفاصلة القرآنية- وهي الكلمة التي تختم بها الآية من القرآن، ما كانت لتؤثر على الكلمات تقديماً أو تأخيراً وإنما هي خصيصة من خصائص البلاغة القرآنية المعجزة وقف أمامها بلغاء العرب حائرين، وسيأتي الحديث عن الفاصلة في المبحث الخامس من هذا التمهيد. أنظر(من بلاغة القرآن) ص٧٥ وما بعدها.

(٢) البوطي محمد سعيد رمضان، (من روائع القرآن) مكتبة الفارابي، دمشق الطبعة الخامسة، ص١٣٣.

لدين محمد قلوبهم فقالوا[١]: ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ فصلت(٢٦).

وهذا نوع من الذعر الجارف الذي لم يتمكن القوم من التماسك أمامه الا باعلان انسجابهم من ميدانه وهروبهم من وجهه ومشاغبتهم عليه، فأستمر في غزوه لقلوبهم وتحديه لعقولهم بشتى الوان التحدي، حتى أعياهم العجز، وأسقط في أيديهم، فأعلن فريق منهم الإيمان، وظل الأغيار حلفاء هواهم، إلى أن حصحص الحق، وظهر الصبح لذي عينين.

- ثانياً: إن الخطاب القرآني رغم تناوله لموضوعات متنوعة فيها التشريع والقصص والمواعظ والترغيب والترهيب الا أنه يظل على مستوى واحد من السمو في جمال لفظه ورقة صياغته وروعة عبارته. يقول الامام الباقلاني رحمه الله: «إن القرآن على اختلاف ما يتصرف فيه من الوجوه الكثيرة، والطرق المختلفة، يجعل المختلف كالمؤتلف والمتباين كالمتناسب والمتنافر في الافراد إلى حد الآحاد. وهذا أمر عجيب تتبين فيه الفصاحه، وتظهر به البلاغة ويخرج به الكلام عن حد العادة ويتجاوز العرف»[٢].

ولنأخذ على ذلك مثالاً الآية التي افتتح بها المولى سبحانه وتعالى سورة المائدة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ۚ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۗ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ (المائدة(١).

«نجد فيها من البلاغة ما تتقاصر عنده القوى البشرية، مع شمولها لاحكام عدة: منها الوفاء بالعقود، ومنها تحليل بهيمة الانعام، ومنها الصيد لمن ليس بمحرم، وقد حكى النقاش أن أصحاب الفيلسوف الكندي قالوا له: أيها الحكيم إعمل لنا مثل هذا القرآن،

(١) الزفزاف، محمد، (التعريف بالقرآن والحديث) مكتبة الفلاح، الكويت، الطبعة الثانية، ص١١٠.

(٢) الباقلاني، القاضي ابو بكر،(اعجاز القرآن على هامش الاتقان للسيوطي)، المكتبة الثقافية، بيروت طبعة٨٧٣م. (١/ ٥٧).

فقال: نعم أعمل مثل بعضه. فاحتجب أياماً كثيرة ثم خرج فقال: والله ما أقدر ولا يطيق هذا أحد. إني فتحت المصحف فخرجت سورة المائدة، فنظرت فإذا هو قد نطق بالوفاء، ونهى عن النكث، وحلل تحليلاً عاماً، ثم استثنى بعد استثناء، ثم أخبر عن قدرته وحكمته في سطرين، ولا يقدر أن يأتي بهذا أحد»[(١)]. وهذه رواية نشك في نسبتها إلى الفيلسوف الكندي ولكني اثبتها لما فيها من دلالة على ما نرمي إليه في بيان هذه الخصيصة الفريدة.

وإذا شئت أخي القارئ أن تتأكد من هذه الميزة الفريدة من مزايا الخطاب القرآني فدونك هذا الكتاب المبين اقرأ منه حيث شئت متنقلاً بين مختلف سورة وآياته لتلمس البرهان على ذلك بالتجربة والنظر.

- **ثالثاً**: استعمال بعض الألفاظ لكي تؤدي معان جديدة أخص من المعنى الذي وضعت له في أصل اللغة[(٢)]،من ذلك مثلًا:

كلمة الإيمان؛ فالإيمان لغة التصديق[(٣)]، لكن الاستعمال القرآني كساها معنى جديداً هو التصديق بما جاء به النبي عليه الصلاة والسلام. وكذلك الصلاة أصل معناها اللغوي الدعاء[(٤)]، فاكتسب بالاستعمال القرآني معنى جديداً يطلق على عبادة مخصوصة مفتتحة بالتكبير ومختتمة بالتسليم، لها أركان مخصوصة، وأذكار معلومة، بشرائط محصورة، في أوقات مقدرة[(٥)]، ومثل ذلك كلمات الحج والزكاة والجهاد والعمرة وغيرها، حتى اقتضى الأمر من الباحثين في هذه المواضيع تحديد معاني الكلمات لغة، ثم تحديدها شرعاً واصطلاحاً.

---

(١) تفسير فتح القدير للشوكاني(٢/ ٤)

(٢) انظر الزفزات، محمد، التعريف بالقرآن والحديث، مكتبة الفلاح، الكويت، الطبعة الثانية، ١٩٧٩، ص١١٦.

(٣) انظر القاموس المحيط(٤/ ١٧٩)، ومجمل اللغة(٢،١/ ١٠٢).

(٤) القاموس المحيط (٤/ ٣٥٣).

(٥) انظر الاختيار لتعليل المختار، الموصلي الحنفي، عبد الله بن محمود بن مودود، دار المعرفة، بيروت تعليق الشيخ محمود أبو دقيقة، الطبعة الثالثة، ١٩٧٥،ص.

ويمكن القول بأن الخطاب القرآني كسا كثيراً من الكلمات معان جديدة، ذات صلة بمعناها الأصلي، وذلك تمكيناً للمعنى القرآني الذي يقصد منها.

- رابعاً: ارضاؤه العامة والخاصة: وهي ميزة لا توجد في غير هذا الكتاب العزيز، وهذا الخطاب الكريم، حيث يغلب على كلام البشر أنه يرضى صنفاً واحداً من الناس، قد يكون صنف المتعلمين وقد يكون صنف الأميين. وقد يرضى كلامنا الشعراء والأدباء ولا يرضي مثلاً القضاء والصُنَّاع.

يقول الشيخ محمد عبد الله دراز- رحمه الله - حول هذه الميزة وهي (ارضاؤه العامة والخاصة).

«وهاتان غايتان متباعدتان عند الناس، فلو أنك خاطبت الأذكياء بالواضح المكشوف الذي تخاطب به الأغبياء لنزلت بهم إلى مستوى لا يرضونه لأنفسهم في الخطاب. ولو أنك خاطبت العامة باللمحة والإشارة التي تخاطب بها الأذكياء لجئتهم من ذلك بما لا تطيقه عقولهم، فلا غنى لك- إن اردت أن تعطي كلتا الطائفتين حقها كاملاً من بيانك - أن تخاطب كل واحدة منهما بغير ما تخاطب به الأخرى، كما تخاطب الاطفال بغير ما تخاطب به الرجال.

فأما أن جملة واحدة تلقى إلى العلماء والجهلاء والأذكياء والأغبياء وإلى السوقة والملوك فيراها كلّ منهم مقدرة على مقياس عقله وعلى وفق حاجته فذلك ما لا تجده على اتمه الا في القرآن الكريم،فهو قرآن واحد يراه البلغاء أوفى كلام بلطائف التعابير ويراه العامة أحسن كلام وأقربه إلى عقولهم، لا يلتوي على أفهامهم، ولا يحتاجون فيه إلى ترجمان وراء وضع اللغة، فهو متعه للعامة والخاصة على السواء ميسر لكل من اراد[1]» ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ القمر (١٧).

- خامساً: إخراج الكلام المتيقن في صورة المشكوك تحريراً للمعنى ومبالغة فيه،

---

(١) دراز، محمد عبد الله والنبأ العظيم، مصر، مطبعة السعادة، ١٩٦٠، ص١٧.

وذلك باستعمال كلمتي (عسىٰ، ولعل) فهما من اللـه تعالىٰ واجبتـان، وفي كلام المخلوقيـن للترجي والطمـع؛ فالخلق هم الذيـن تعرض لهم الشـكوك والظنون، والبارئ منزه عن ذلك[1]. ومـن هذا النوع قوله تعالـىٰ: ﴿فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ﴾ المائـدة (٥٢) وقولـه سـبحانه: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ الاسراء(٧٩) وقوله ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ طه(٤٤).

وقـد علم الله سـبحانه حين أرسـلهما ما يفضـي اليه حـال فرعون، ولكـن ورد اللفظ بصورة ما يختلج في نفس موسىٰ وهارون من الرجاء والطمع.

قال القاضي أبو السـعود في تفسيره: (إن عسـىٰ من الله سـبحانه وعد محتوم، لما أن الكريم إذا أطمع أطعم لا محالة، فما ظنك بأكرم الأكرمين)[2].

ولمـا كان القرآن قد نـزل بلغة العـرب، جاء علـىٰ مذاهبهم في ذلـك. والعرب تخرج المتيقن في صورة المشكوك لأغراض؛ فتقول مثلاً:

(لا تتعرض لما يسخطني، فلعلك إن تفعل ذلك ستندم) ومرادهم أنه سيندم. لا شك فيه[3]؟.

وقد عدّ الأمام الشاطبي ذلك (أعني إخراج الكلام المتيقَّن في صورة المشكوك) عده من الأدب القرآني في اخراج الواجب بصورة الممكن، حيث اشـار إلىٰ أنه يستفاد من هذا الاسـلوب في المخاطبة أنه ينبغي لمـن كان عالماً بعاقبـة أمر من الأمـور أن يحكم فيه عند العبارة عنه بحكم غير العالم دخولاً في غمار العامة، وإن بان عنهم بخاصية يمتازُ بها[4].

وقال الامام الشاطبي بأن هذا من التنزلات الفائقة الحسن في محاسن العادات، ومثل

---

(١) البرهان في علوم القرآن (٤/ ١٥٩).

(٢) تفسر أبو السعود(٢/ ٥٥).

(٣) البرهان في علوم القرآن (٤/ ١٥٩).

(٤) الموافقات(٢/ ١٠٦).

له بأن النبي صلى الله عليه وسلم كان يعلم بأخبار كثير من المنافقين، لكنه كان في الظاهر يعاملهم معاملة المؤمنين لاجتماعهم في عدم انخرام الظاهر[(١)].

- سادساً: طريقته في عرض الموضوعات: لم ينسج القرآن الكريم على منوال المؤلفين في عرضهم للموضوعات وتناولهم للقضايا، بمعنى أنه لم يتناول الموضوع الواحد بكل فروعه وما يتعلق به، حتى إذا انتهى منه انتقل الى غيره، وإنما نهج القرآن منهجا آخر عجيباً في نظمه، وعجيباً في أدائه للغرض المقصود منه على نحو ضافٍ وافٍ.

على أنه لا بد من التذكير بأن «جملة ما في القرآن من مختلف المواضيع والمعاني الجزئية، إنما يدور جميعه على معنى كلي واحد، هو دعوة الناس إلى أن يكونوا عبيداً لله بالفكر والاختيار، كما خلقهم عبيداً له بالجبر والاضطرار، وأن يدركوا بأن أمامهم حياة ثانية بعد حياتهم هذه، وأن يستيقنوا ضآلة هذه الحياة بالنسبة لتلك في كل من خيرها وشرها وسعادتها وشقائها»[(٢)].

وبالتتبع والاستقراء نجد الحكمة واضحة في الطريقة التي عُرضت بها الأحكام الشرعية حيث كانت سنُة القرآن عدم تجميع الآيات المتعلقة بموضوع واحد، لأن مقصد القرآن الأساسي هو الهداية: (ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين) البقرة (٢) والهداية يفوت مقصدها إذاً طال سرد الكلام حول موضوع واحد، لا سيما أحكام المعاملات، ولا بد من دخلات خلال ذلك على النفس الإنسانية لشحذها واثارتها وتوجيه نظرها إلى ما عند الله.

وهذا سر الملل الذي يخالج النفس الإنسانية من استعراض كتب القانون وأصول المحاكمات والقوانين الجزائية وغيرها، في حين ينقلب الملل والسأم إلى نشاط متجدد كلما قرأنا الآيات القرآنية أو استمعنا إليها.

---

(١) نفسه (٢/ ١٠٧) وعدم انخرام الظاهر يعني أنه لا يوجد ما يقدح في إسلامهم بحسب الظاهر، والسرائر يوكل أمرها إلى الله تعالى.

(٢) من روائع القرآن ص١٤٤.

ولا عجب في ذلك فإن النصوص القانونية تولد ميتة، لأنها تركز على الجانب الآلي في حياة الإنسان، وتصرُّ على مخاطبته بلغة أفعل كذا ولا تفعل كذا، مع التهديد بالعقوبة إذا هو خالف في حين برع القرآن الكريم في تصريف القول وأفانين الكلام التي تؤدي إلى المقصد بطريقة سهلة هينة على النفوس؛ فنجده مرة يطلب الشيء بصريح الأمر كقوله تعالى:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِ﴾ المائدة(١) ومرة يخبر بأن الفعل مكتوب على المكلفين كقوله سبحانه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى﴾ البقرة(١٧٨) ومرة بأن لله تعالى على الناس كذا كقوله سبحانه ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾ آل عمران(٩٧) ويصف أحياناً الفعل المرغوب في أدائه بأنه برٌّ كقوله تعالى: ﴿وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ وَأْتُواْ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا﴾ البقرة(١٨٩) ويرتب أحياناً الوعد والثواب على من يفعله، كقوله سبحانه: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ النساء(١١٤).

وهكذا يفعل القرآن في المنهيات فنجده ينهى صراحة في بعض الأحيان كقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ المائدة(٢).

وأحيانا يأتي في جانبها بمادة التحريم كقوله سبحانه ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ﴾ المائدة (٣).

وأحيانا يكون الخطاب القرآني بنفي الحل كقوله سبحانه ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا﴾ البقرة(٢٢٩)

ويكون الخطاب أحياناً بالنفي بلفظ لا كقوله سبحانه وتعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾البقرة(٢٧٥).

ويكون بوصف الفعل أنه ليس من البر كقوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُواْ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا﴾ البقرة(١٨٩).

إلى آخر ذلك من تصاريف القول وأفانين الكلام، وبهذا يتحقق غرض القرآن ومقصده لأنه يخاطب الكينونة الإنسانية من جميع جوانبها، ولا يهمل فيها عقلاً ولا قلباً،

ولا يهدر اعتبارات الرغبة والرهبة، ولا اعتبارات الخوف والرجاء، ولاحظ حالات القوة والضعف في كيان الإنسان،وهو بذلك يستثمر كل القوىٰ الإنسانية في خدمة الهدف الذي تنزل الذكر الحكيم والخطاب الكريم من أجله؛ فمن أين لغير هذا التنزيل المبارك بمثل هذه الأساليب العظيمة المعجزة التي تحقق أهدافها بأيسر طريق وأقرب سبيل، مع الحب المتبادل بين العابد والمعبود؟؟.

« سادساً: الخصائص البلاغية للخطاب القرآني

البلاغة في الكلام مطابقته لمقتضىٰ الحال مع فصاحته، والفصاحة خلوص الكلام من ضعف التأليف وتنافر الكلمات والتعقيد[1].

وتقوم البلاغة علىٰ أربع دعائم:

١. اختيار اللفظة.

٢. حسن التركيب وصحته.

٣. اختيار الأسلوب الذي يصلح للمخاطبين مع حسن الابتداء وحسن الانتهاء.

٤. التأثير في النفوس[2].

وقد استوعب القرآن الكريم أعلىٰ خصائص البلاغة والفصاحة واعجز العرب أجمعين عن أن يأتوا بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً.

ومن أهم الخصائص البلاغية لهذا الكتاب العزيز:

اولاً: التصوير:

ويشمل: تصوير المعاني الذهنية والحالات النفسية، والحوادث الواقعة والأمثال

(١) تلخيص المفتاح،ص١٣ وص١٨.

(٢) عباس، د. فضل حسن(البلاغة فنونها وافنانها- المعاني) دار الفرقان الطبعة الثانية، ص٥٨.

المضروبة، والقصص المروية، وابرازها في صورة حسيه، كأنها حاضرة شاخصة. وتهدف هذه الطريقة إلى توضيح المعاني المجردة وتثبيتها[١] ولنعرض أمثلة لذلك لزيادة التوضيح والبيان:

أ. تصوير المعاني الذهنية.

يقول الاستاذ سيد قطب رحمه الله: يريد الخطاب القرآني مثلاً أن يبين أن الذين كفروا لن ينالوا القبول عند الله ولن يدخلوا الجنة اطلاقاً، وأن القبول او الدخول أمر مستحيل. هذه هي الطريقة الذهنية للتعبير عن هذه المعاني المجردة، ولكن أسلوب التصوير يعرضها في الصورة الآتية: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِۚ ﴾ الاعراف(٤٠).

ويدعك ترسم بخيالك صورة لتفتح ابواب السماء، وصورة اخرى لولوج الحبل الغليظ في سم الخياط، ويختار من اسماء الحبل الغليظ اسم(الجمل) خاصة في هذا المقام، ويدع للحسن أن يتأثر عن طريق الخيال بالصورتين ما شاء له التأثير، ليستقر في النهاية معنى القبول ومعنى الاستحالة في اعماق النفس، وقد وردا اليها من طريق العين والحس- تخييلاً، وعبرا اليها من منافذ شتى في هينة وتؤدة، لا من الذهن وحده، في سرعة الذهن التجريدية"[٢].

"ويريد أن يبين أن الذي يشرك بالله لا منبت له ولا جذور، ولا بقاء له.ولا استقرار، فيمثل لهذا المعنى بصورة سريعة الخطوات، عنيفة الحركات ﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ﴾ الحج(٣١).

---

(١) سيد قطب، التصوير الفني في القرآن، ص١٨٧، وص٧١ وقد اعتمدت على هذا الكتاب بشكل أساسي لتوضيح هذه الخصيصة، ولا حرج في ذلك؛ فالاستاذ سيد (رحمه الله) هو رائد مرحلة ادراك الخصائص القرآنية العامة والتي من أبرزها خاصية التصوير التي استعمل الخطاب القرآني من أجلها الاستعارة أو المجاز المرسل أو التشبيه والتمثيل، وهي قواعد تأسس عليها علم البيان، فكان القرآن هو الأساس لهذه القواعد، وليس العكس كما قد يتوهم. أنظر(من روائع القرآن) للدكتور البوطي ص٢٠٢.

(٢) التصوير الفني في القرآن ص٣٤.

وهكذا في ومضة، يخر من السماء من حيث لا يدري أحد فلا يستقر على الأرض لحظة، إن الطير لتخطفه، أو أن الريح لتهوي به..وتهوي به في مكان سحيق، حيث لا يدري أحد كذلك! وذلك هو المقصود"(١).

ب. تصوير الحالات النفسية والمعنوية:

"يريد الخطاب القرآني مثلاً أن يبرز الحيرة التي تنتاب من يشرك بعد التوحيد، ومن يتوزع قلبه بين الإله الواحد والالهه المتعددين ويتفرق احساسه بين الهدى والضلالة، فيرسم هذه الصورة المحسة المتخيلة ﴿قُلۡ أَنَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعۡقَابِنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِي ٱسۡتَهۡوَتۡهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِي ٱلۡأَرۡضِ حَيۡرَانَ لَهُۥٓ أَصۡحَٰبٞ يَدۡعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلۡهُدَى ٱئۡتِنَاۗ﴾ الانعام(٧١).

فتبرز صورة هذا المخلوق التعيس الذي استهوته الشياطين في الأرض،(ولفظ الاستهواء لفظ مصور لمدلوله)، ويا ليته يتبع هذا الاستهواء في اتجاهه فتكون له راحة ذي القصد الموحد- ولو كان في الضلال- ولكن هناك من الجانب الآخر، إخوان له يدعونه إلى الهدى، وينادونه(ائتنا) وهو بين هذا الاستهواء وهذا الدعاء(حيران) موزع القلب لا يدري أي الفريقين يجيب، ولا يدري أي الطريقين يسلك فهو قائم هناك شاخص ملتفت"(٢).

ومن بين الحالات النفسية التي يصورها القرآن حالات ترسم نماذج إنسانية واضحة للعيان؛ من ذلك قوله تعالى:

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ ۝٢٠٤ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ﴾ البقرة(٢٠٤، ٢٠٥).

---

(١) نفسه ص٣٨.

(٢) التصوير الفني القرآن ص٣٩.

فقد اراد الخطاب القرآني أن يبرز نموذجاً من الناس ظاهرهم يغري وباطنهم يؤذي، فاستعاض من الوصف بالحركة والتصرف، وإبراز المقارنة بين الظاهر والباطن في نسق من الصور المتحركة في النفس والخيال(١).

جـ التصوير لمشاهد الحوادث الواقعة.

والذي يتابع عرض القرآن الكريم للأحداث، وتعقيباته عليها يجد نفسه وكأنه يشهد المنظر بكل من فيه وكل ما فيه يقول سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴾ الأحزاب(٩-١٣)

"هؤلاء هم الأعداء يأتون المؤمنين من كل مكان، وهذه هي الأبصار زائغة، والنفوس ضائعة، وهؤلاء هم المؤمنون يزلزلون زلزالاً شديداً، وهؤلاء هم المنافقون ينبعثون بالفتنة والتخذيل، يقولون ﴿مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا﴾ ويقولون لأهل المدينة ارجعوا إلى بيوتكم فهي في خطر، وهؤلاء هم جماعة من ضعاف القلوب يقولون إن بيوتنا مكشوفة، وليست في حقيقتها كذلك ﴿إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾.

وهكذا لا تفلت في الموقف حركة ولا سمه الا وهي مسجلة ظاهرة، وكأنها شاخصة حاضرة، تلك حادثة وقعت بالفعل ولكن صورتها ترسم الهزيمة مطلقة من كل ملابسة، وما يزيد عليها أو ينتقص منها الا جزئيات في الوقائع، أما الصورة النفسية فخالدة تتكرر في كل زمان حيثما التقى جمعان، وتعرض أحدهما للخذلان"(٢).

---

(١) نفس المصدر السابق ص٤٣.

(٢) نفس المصدر السابق. ص٤٥.

د.التصوير في الأمثال:

ونموذج على ذلك قصة أصحاب الجنة الواردة في سورة القلم(١٧-٣٢) يقول الأستاذ سيد رحمه الله:

"ها نحن اولاء امام اصحاب الجنة- جنة الدنيا، لا جنة الآخرة - وها هم اولاء يبيتون في شأنها أمراً، لقد كان للفقراء حظ من ثمر هذه الجنة، ولكن الورثة لا يشاؤن، إنهم ليريدون أن يستأثروا بها وحدهم، وأن يحرموا أولئك المساكين حظهم، فلننظر كيف يصنعون.

"إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة إذا أقسموا ليصرمُنها مصبحين، ولا يستثنون".

لقد قر رأيهم على أن يقطعوا ثمرها عند الصباح الباكر، دون أن يستثنوا منه شيئاً للمساكين، فلندعهم على قرارهم ولننظر ماذا يقع الآن في بهمة الليل، حيث يختفون هم، ويخلو منهم المسرح فماذا يرى النظارة؟ هناك مفاجأة تتم خلسة، وحركة خفية كحركة الاشباح في الظلام،(فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون فأصبحت كالصريم) وهم لا يشعرون، والآن ها هم اولاء يتصايحون مبكرين وهم لا يدرون ماذا أصاب جنتهم في الظلام (فتنادوا مصبحين الا يدخلنها اليوم عليكم مسكين). ليمسك النظارة السنتهم فلا ينبهوا أصحاب الجنة إلى ما أصاب جنتهم ليكتموا ضحكات السخرية التي تكاد تنبعث منهم، وهم يشاهدون أصحاب الجنة المخدوعين يتنادون متخافتين خشية أن يدخلها عليهم مسكين، ليكتموا ضحكات السخرية بل ليطلقوها فها هي ذي السخرية العظمى، (وغدوا على حرد قادرين) أجل أنهم لقادرون الآن على المنع والحرمان، حرمان أنفسهم على الأقل، وها هم أولاء يفاجأون فليضحك النظارة كما يشاؤن(فلما رأوها قالوا إنا لضالون) ما هذه جنتنا الموفرة بالثمار فقد ضللنا اليها الطريق، فلتتأكدوا يا جماعة!"بل نحن محرومون "..وهذا هو الخبر اليقين.

والآن وقد سقط في ايديهم !"قال اوسطهم: الم اقل لكم لولا تسبحون إي والله، هلا سبحتم الله واتقيتموه؟

"قالوا سبحان ربنا إنا كنا ظالمين". الآن وبعد فوات الأوان! وكما يتنصل الشريك من التبعة عندما تسؤ العاقبة ويتوجه باللوم إلى الآخرين، ها هم اولاء يصغون: "فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون !". ثم هاهم اولاء يتركون التلاوم ليعترفوا جميعاً بالخطيئة، عسى أن يفيدهم الاعتراف الغفران. ويعوضهم من الجنة الضائعة جنة أخرى: "قالوا يا ويلنا إنا كنا طاغين، عسى ربنا أن يبدلنا خيراً منها إنا إلى ربنا راغبون"(١).

ومثل العروض السابقة عرض القرآن الكريم القصص الحقيقية ومشاهدة القيامة، وصور النعيم والعذاب.

ومع التصوير القرآني للمعاني الذهنية والحالات النفسية والحوادث الواقعة تتضح ظاهرة أخرى هي التجسيم، حيث تجسم المعنويات المجردة وتبرز أجساماً أو محسوسات على العموم.

فها هو الصبح يتنفس ﴿والصبح إذا تنفس﴾ التكوير(١٨) وهذا هو الليل يسرع في طلب النهار فلا يستطيع له دركاً ﴿يغشى الليل النهار يطلبه حثيثاً﴾ الاعراف(٥٤) وهذا هو الليل يسري (والليل اذا يسر) الفجر(٤) فتحس سريانه في هذا الكون العريض، وتانس بهذا الساري على هينة واتئاد.

وهاتان هما الأرض والسماء عاقلتان يوجه اليهما الخطاب فتسرعان بالجواب ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ فصلت(١١).

وهكذا نلاحظ أثر التصوير والتجسيم في اشاعة الحياة في العبارة، حيث يتأكد أن التعبير القرآني لا يمس جامداً الا نبض بالحياة، ولا يعرض مألوفاً الا بدا جديداً، وتلك قدرة قادرة ومعجزة ساحرة كسائر معجزات الحياة(٢).

---

(١) نفس المصدر السابق ص٤٦.

(٢) نفسه ص١٩٥، وانظر (من بلاغة القرآن) ص٢٢١ حيث عرض الشيخ احمد بدوي أمثلة أخرى لهذا النوع الذي يهبُ الخطاب القرآني فيه للجماد العقل والحياة زيادة في تصوير المعنى وتمثيله للنفس؛ منها قوله تعالى (ولما سكت عن موسى الغضب اخذ الالواح) الاعراف ١٥٤، وقوله (فوجدا جدارا يريد ان ينقض) الكهف٧٧، وكأنما الجدار لشدة وهنه وضعفه يؤثر الراحة لطول مامر به من الزمن.

ثانياً: القصد في اللفظ مع الوفاء بالمعنى.

وهما نهايتان يصعب الجمع بينهما دون ميل لاحداهما، وكثيراً ما يكون القصد في اللفظ، واختصار الكلام على حساب المعنى، حيث تنطمس الفكرة، ويذهب القارئ يبحث عنها كالذي يفتش في الانقاض والركام ولا يكاد يجدها.

وفي المقابل قد تكون الفكرة ظاهرة واضحة ولكنها البست ثوباً واسعاً فضفاضاً ذهب بهيبتها وروعتها.

هذا في كلام البشر، ولكن كلام الله جمع بين القصد في اللفظ والوفاء في المعنى فلا يستطيع أحد أن يزعم بأنه يجد في كتاب الله حرفاً واحداً يمكن حذفه الا على حساب المعنى الذي يحمله، والعجيب أن المعاني التي تحملها النصوص القرآنية واضحة كاملة[1].

ولنأخذ لذلك مثلاً قوله تعالى:

﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰأُوْلِي الْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ البقرة(١٧٩) موجزين ما كتبه العلامة مصطفى صادق الرافعي حول هذه الآية في كتابه(وحي القلم)[2].

١. بدأت الآية بقوله تعالى "ولكم" وهذا قيد يجعل الاية خاصة بالإنسانية المؤمنة التي تطلب كمالها في الإيمان.

٢. قال "في القصاص" ولم يقل في القتل، فقيده بهذه الصيغة التي تدل على أنه جزاء وموآخذه، لا يخرج عن قدر المجازاة قل أو كثر.

٣. تفيد كلمة "القصاص"بصغية المفاعلة وجوب التحقيق وتمكين القاتل من المنازعة والدفاع، وألا يكون قصاص الا باستحقاق وعدل.

---

(١) انظر دراز، د.محمد عبد الله، النبأ العظيم، مطبعة السعادة، مصر، طبعة١٩٦٠ ص ١٠٣.

(٢) الرافعي، مصطفى صادق، وحي القلم، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثامنة، ص٤٧١ وما بعدها.

٤. من اعجاز لفظة "القصاص" أن الله تعالىٰ سمىٰ بها قتل القاتل، فلم يسمه قتلاً كما فعلت الكلمة العربية التي تقول (القتل انفىٰ للقتل)، لأن أحد القتلين هو جريمة واعتداء، فنزه الله سبحانه العدل الشرعي، وهذا منتهىٰ السمو الأدبي في التعبير.

٥. من اعجاز هذه اللفظة أنها باختيارها دون كلمة القتل تشير إلىٰ أنه سيأتي في عصور الإنسانية عصر لا يرىٰ فيه قتل القاتل بجنايته الا شراً من قتل المقتول، فجاءت الآية باللغة التي تلائم هذا العصر، واستعملت كلمة ليس في اللغة ما يجزئ عنها في الاتساع لكل ما يراد من فلسفة العقوبة.

٦. ومن اعجاز هذه اللفظة أنها تحمل كل ضروب القصاص من القتل فما دونه.

٧. إنّ التعبير بالقصاص يدع الإنسانية محلها إذا هي تخلصت من وحشيتها الأولىٰ وجاهليتها القديمة، فيشمل القصاص أخذ الدية والعفو، وغيرهما.

٨. جاءت لفظة القصاص معرفة بأداة التعريف لتدل علىٰ أنه مقيد بقيود كثيرة.

٩. جاءت كلمة(حياة) منونة لتدل علىٰ أنها ليست حياة بعينها، مقيدة بإصلاح معين لتشمل كل وجوه الحياة الاجتماعية والسياسية والأدبية وغيرها.

١٠. جعل نتيجة القتل حياة تعبير عجيب يسمو إلىٰ الغاية من الخيال ولكنه ليس خيالاً، بل هو تعبير علمي يسمو إلىٰ الغاية من الدقة، فكأنه يقول: في نوع من سلب الحياة نوع من الحياة.

١١. يخاطب القرآن في نهاية الآية(أولىٰ الألباب) ليقرر بأن حقيقة العلم ليست بالعقل والرأي، بل هي قبل ذلك باللب والبصيرة.

١٢. انتهت الآية بقوله تعالىٰ(لعلكم تتقون) لتقرر في عصرنا أنها تسوق لنا برهان الحياة في حكمة القصاص، لعلنا نتقي عاقبة المخالفة لنظام القصاص.

ثالثاً: عمق التأثير في نفس السامع:

بحيث يؤدي ذلك إلى إثارة العواطف والانفعالات، عن طريق مخاطبة الحواس، حيث يؤدي ذلك إلى حشد طاقات النفس الإنسانية مجتمعة لفهم الخطاب القرآني الكريم والانفعال معه والتاثير به على نحو يحقق مقصد الخطاب من أقرب سبيل.

مثال ذلك: قوله تعالى: ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَىْءٍۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴾ ابراهيم(١٨).

فالتعبير الذهني المجرد في هذه الآية الكريمة يتلخص في أن أعمال الكفار ستضيع سدى، ولن ينتفعوا منها بشيء. ولكن المشهد العاصف المتحرك الذي يعرضه القرآن، يبلغ في تحريك المشاعر ما لا يبلغه التعبير الذهني المجرد عن ضياع الأعمال وذهابها بدداً[(١)]، مشهد الرماد تشتد به الريح، الرمال الطائرة المتفككة، الرياح العاصفة، الحيرة والدهشة كل ذلك يحتشد في الخيال، ويلهب الذاكرة، ويقوي الفكرة ضد الكفر بصورة وأشكاله.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا﴾ النور (٣٩).

حيث تشارك حاسة البصر في رسم صورة ذاك الرجل الذي يلهث وراء السراب رجاء الشراب والرعي، لكنه يرجع كسيف البال حاسر النفس، غير حائز على شيء مما كان يؤمل، وهذه هي حقيقة أعمال الكافرين وإن بدت بحسب الظاهر ذات لمعان وبريق فإن السراب يخبرنا بالحقيقة.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًاۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِۖ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾ العنكبوت(٤١).

فهاهم أولاء الذين اتخذوا من دون الله أولياء، يقفون عاجزين مكشوفين، ليس

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن، دار أحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الخامسة، سنة ١٩٦٧، (٥/ ١٤٧).

لهم حول ولا قوة، تماماً كالعنكبوت لا وقاية لها من بيتها الواهن ولا حماية لها من تكوينها الرخو[١].

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ البقرة(٢٦٦).

وهكذا يستثير الخطاب القرآني انفعال السامع وعاطفته عندما يصور له الأعمال التي لا يراد بها وجه الله من حيث النتيجة والثمرة بجنة وارفة كثيرة الظلال والثمار يصيبها اعصار فتحترق امامه، لا يجني من ورائها الا الحسرة والندم.

ومن قوله سبحانه: ﴿ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴾ النساء (٩).

فلم يكتف الخطاب القرآني بالعبارة الذهنية المجردة عند التوصية باليتيم، بل زاد عليها فجعل السامع يرتجف فؤاده وهو يتصور أن هذا اليتيم هو ابنه، فإذا كان يخشى عليه أن تهدر حقوقه ويُؤكل ماله فليخش إذن على أبناء الآخرين، وليعامل اليتامى الذين في حجره بمثل ما يحب أن يعامل بنوه من بعده.

رابعاً: التناسق الفني:

الذي يبدو واضحاً في تأليف العبارات واختيار الالفاظ والإيقاع الموسيقي الناشئ عن ذلك مثلما يبدو في التعقيبات المناسبة للسياق كان تجيء الفاصلة ﴿**وهو على كل شيء قدير**﴾ المائدة (١٢٠) بعد كلام يثبت القدرة، والفاصلة، "إن الله عليم بذات الصدور" المائدة(٧) بعد كلام في وادي العلم المستور[٢].

---

(١) نفسه (٦/ ٤١٠).

(٢) انظر التصوير الفني في القرآن ص٧٣.

وكأن يعبر بالاسم الموصول ليختفي تحته اسم المذنب ستراً له رغبة في هدايته، ولتكون جملة الصلة بياناً لعلة الجزاء.

كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا﴾ فصلت(٣٠).

وكأن يعبر بلفظ الرب في موضع الرعاية والتربية، بينما يعبر بلفظ (الله) في مواضع التاليه والتعظيم.

ومن ذلك ما تقتضيه بلاغة النظم القرآني البديع من الفصل والوصل والتقديم والتأخير، والذكر والحذف، والتعريف، والتنكير، والتوكيد والتكرير، والأمر والنهي، والنداء، والقسم، والمجاز والكناية، وغير ذلك.

ومن الوان التنسيق الفني انسجام التعبير مع الحالة المراد تصويرها حيث يساعد ذلك على اكمال معالم الصورة الحسية أو المعنوية، وهذه خطوة بين التعبير للتعبير والتعبير للتصوير[1].

مثال ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ الانفال(٢٢).

فإن اختيار كلمة الدواب ثم تجسيم الحالة التي تمنعهم من الهدى بوصفهم (الصم البكم) كلاهما يكمل صورة الغفلة والحيوانية، التي يريد أن يرسمها لهؤلاء الذين لا يؤمنون.

وقد يستقل لفظ واحد برسم صورة شاخصة، تارة بجرسه الذي يلقيه في الأذن، وتارة بظله الذي يلقيه في الخيال، وتارة بالجرس والظل جميعاً، مثال ذلك كلمة (اثاقلتم) في قوله تعالى ﴿يا ايها الذين آمنوا ما لكم اذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض﴾ التوبة(٣٨) وكلمة (ليبطئن)[2] في قوله تعالى ﴿وإن منكم لمن ليبطئن﴾ النساء(٧٢).

---

(١) انظر التصوير الفني في القرآن٧٥.

(٢) نفسه ص ٧٦.

خامساً: الفاصلة

وهي الكلمة التي تختم بها الآية من القرآن ولعلها مأخوذة من قوله سبحانه "كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون" فصلت (٣)، وربما سميت بذلك لأن بها يتم بيان المعنى، ويزداد وضوحه جلاء وقوة[١].

وتقع الفاصلة عند الاستراحة في الخطاب لتحسين الكلام بها، وهي الطريقة التي يباين القرآن بها سائر الكلام[٢].

وفرقوا بين الفاصلة والسجع فقالوا: السجع هو الذي يقصد في نفسه، ثم يحيل المعنى عليه، والفواصل هي التي تتبع المعاني، ولا تكون مقصودة في نفسها[٣]. وهكذا يكون السجع عيباً لما فيه من التكلف وتكون الفاصلة بلاغة[٤]. ونقل الزركشي في البرهان عن الأمير عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجي في كتابه. "سر الفصاحة "أن هذا ليس على إطلاقه فإنه إن أراد بالسجع ما يتبع المعنى وكأنه غير مقصود فذلك بلاغة،والفواصل مثله[٥] وإني هنا اتحفظ على هذا القول، ولا أرى أن ينسب إلى القرآن بأن فيه سجعاً مهما وقع منا احتراس في التعبير. ورحم الله صاحب مختصر المعاني إذا يقول:

(ولا يقال في القرآن إسجاع رعاية للأدب وتعظيماً للكتاب العزيز إذ السجع في الأصل هديل الحمام ونحوه)[٦].

---

(١) بدوي، احمد احمد، من بلاغة القرآن، مكتبة مصر بالفلاجة، الطبعة الثامنة، ص٧٥.

(٢) البرهان في علوم القرآن(١/ ٥٤).

(٣) نفس المصدر السابق(١/ ٥٤).

(٤) الباقلاني، القاضي ابو بكر: (اعجاز القرآن) على حاشية الاتقان في علوم القرآن للسيوطي، المكتبة الثقافية،بيروت طبعة١٩٧٣) م(١/ ٩٠).

(٥) انظر (١/ ٥٧)

(٦) انظر مختصر المعاني بحاشية تلخيص المفتاح ص٣٦١، والاتقان(٢/ ٩٧).

ولا يجوز تسميه الفواصل قوافي اجماعاً لأن الله تعالىٰ لما سلب عنه اسم الشعر وجب سلب القافية عنه ايضاً لأنها منه، وخاصةٌ به في الأصلاح"(١).

"ومكانة الفاصلة من الآية مكانه القافية من البيت، إذ تصبح الآية لبنة متميزة في بناء هكيل السورة، وتنزل الفاصلة من آيتها، تكمل من معناها، ويتم بها النغم الموسيقي للآية فنراها اكثر ما تنتهي بالنون والميم وحروف المد وتلك هي الحروف الطبيعية في الموسيقىٰ نفسها"(٢).

يقول الشيخ احمد البدوي:

"وتأتي الفاصلة مستقرة في قرارها، مطمئنة في موضعها، غير نافرة ولا قلقة، يتعلق معناها بمعنىٰ الآية كلها تعلقاً تاماً، بحيث لو طرحت لاختل المعنىٰ واضطرب الفهم فهي تؤدي في مكانها جزءاً من معنىٰ الآية، وينقص ويختل بنقصانه، وانظر قوله تعالىٰ:

﴿الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٦﴾ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿٧﴾﴾ البقرة (١-٧) تَرَ الآية قد كمل معناها بالفاصلة، وأن الفاصلة قامت بأداء نصيبها منه".

"وقد يشتد تمكن الفاصلة في مكانها، حتىٰ لتوحي الايات بها، قبل نطقها كما روىٰ عن زيد بن ثابت أنه قال: أملي عليَّ رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم هذه الآية:

﴿ وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن طِينٖ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلۡنَٰهُ نُطۡفَةٗ فِي قَرَارٖ مَّكِينٖ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقۡنَا ٱلنُّطۡفَةَ عَلَقَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡعَلَقَةَ مُضۡغَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡمُضۡغَةَ عِظَٰمٗا فَكَسَوۡنَا ٱلۡعِظَٰمَ لَحۡمٗا﴾

---

(١) الاتقان في علوم القرآن (٢/ ٩٧).

(٢) من بلاغة القرآن ص٧٥.

المؤمنون (١٢-١٤) وهنا قال معاذ بن جبل: فتبارك الله أحسن الخالقين، فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له معاذ: لم ضحكت يا رسول الله؟ قال بها ختمت"(١).

"وحتى ليأبى قبولها والاطمئنان اليها، من له ذوق سليم، إذا غيرت وابدل بها سواها. كما حكى ان اعرابياً سمع قارئاً يقرأ: فإن زللتم من بعد ما جاءكم البينات فاعلموا أن الله غفور رحيم"ولم يكن الاعرابي يقرأ القرآن، فقال: إن كان هذا كلام الله فلا، الحكيم لا يذكر الغفران عند الزلل، لأنه اغراء عليه، والآية إنما ختمت بقوله تعالى ﴿**فاعلموا أن الله عزيز حكيم**﴾ وسواء أصح ذلك أم لم يصح، فإنا نشعر بما بين الفاصلة والآية من ارتباط لا ينفصم"(٢).

ولا بد من التأكيد على أن المعاني القرآنية ليست أسيرة هذه الفاصلة، بل إن الفاصلة اسيرة المعنى، وهذه ميزة مهمة لها على القافية في الشعر وعلى السجع في كلام العرب.

وإني لا أجد نفسي راغباً في موافقة القائلين بأن التقديم والتاخير لبعض الكلمات القرآنية يأتي لمراعاة الفاصلة أحياناً (٣)، حيث إن ذلك يشيء بأن المعاني القرآنية تابعة للألفاظ،والحقيقة أن الكلمات القرآنية مسخرة لخدمة المعاني.

---

(١) لم أجده بهذا اللفظ ولكني وجدته في مسند الطيالسي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه بلفظ آخر قريب مما ذكر، انظر: الطيالسي، أبو داود سليمان بن داود بن الجارود، (مسند أبي داود الطياسي)، الهند، حيدر أباد، مطبعة دائرة المعارف،الطبعة الأولى، سنة ١٣٢١هـ(١/ ١).

(٢) من بلاغة القرآن ص٧٦ وقد عرض الشيخ البدوي موضوع الفاصلة عرضاً موفقاً مسهباً أنصح بالاطلاع عليه والاستفادة منه. كما أنصح بالرجوع الى كتاب الاستاذ الشيخ محمد الحسناوي(الفاصلة في القرآن) الطبعة الثالثة، عمان، دار عمار، طبعة ١٩٨٦ حيث أفاد وأجاد في عرضه للموضوع.

(٣) ذكر الأمام الزركشي في البرهان من أسباب التقديم والتأخير أن يكون في التاخير اخلال بالتناسب، فيقدم لمشاكلة الكلام ولرعاية الفاصلة، و ذكر امثلة على ذلك منها: (واسجدوا لله أن كنتم إياه تعبدون) فصلت(٣٧) فقدم (إياه) على (تعبدون) لمشاكلة رؤوس الآي، ومنها قوله تعالى: (فاوجس في نفسه خيفة موسى) فإنه لو أخر(في نفسه) عن (موسى) فات تناسب الفواصل،لأن قبله(يخيل اليه من سحرهم أنها تسعى) طه(٦٦) وبعده(إنك أنت الأعلى)طه(٦٨).

يقول استاذنا الدكتور فضل حسن عباس "وإني احذرك من عد رعاية الفاصلة من المقتضيات البلاغية التي يكون من أجلها التقديم والتأخير"[١] . وقد أحصى الامام الزركشي اثني عشر موضعاً خرج بها النص القرآني عن نظم الكلام مراعاة لايقاع المناسبة في مقاطع الفواصل[٢]، وأقول فيها ما قلته في موضوع التقديم والتاخير.

سادساً: براعة استعمال الالفاظ الغريبة

التي لم تشع على الالسنة الا قليلاً، ويكون ذلك إما لحسن وقعها على الأذن، وإما لأنها تؤدي(دون غيرها من الألفاظ الشائعة المعنى المطلوب بدقة فائقة.

وقد يكون مقصد استعمالها إثارة انتباه السامع أو إثارة تساؤله، ودفعه نحو الاستفسار والطلب للمعنى المقصود[٣].

وهذا الغريب بريء من الثقل على اللسان والكراهة على السمع. ويفهم معنى هذا الغريب من موقعه في النص القرآني كقوله تعالى: ﴿**كلما ردوا إلى الفتنة اركسوا فيها**﴾ النساء (٩١).

فهذا الغريب مع قلته في القرآن يحاط بما يشير إلى معناه، من ذلك قوله تعالى: "وما التناهم من عملهم من شيء"الطور(٢١).

ومما جاء في القرآن الكريم مثيراً للتساؤل والتنبه القوي للمعنى قوله تعالى: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾﴾ المدثر(٢٦-٢٨) حيث يتولى القرآن نفسه تفسير تلك الألفاظ، ويكون ذلك في موضوع الترهيب والزجر.

ومنها قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾﴾ المطففين(١٨-٢٠) وجاء الغريب هنا في موضوع الترغيب والوعد بالخير.

---

(١) عباس، د.فضل حسن البلاغة فنونها وأفنانها، عالم المعاني، دار الفرقان، الطبعة الثانية، ص٢٣٦.

(٢) البرهان(١/ ٦٠).

(٣) من بلاغة القرآن ص٩١.

ومما استحسنه القرآن الكريم لوقعه على الأذن اختياره(الحافاً) على (إلحاحاً) ولربما كان ذلك إعراضاً عن تكرار حاءين في كلمة واحدة[١].

وقد أحصى الأمام السيوطي في (الاتقان) ما عده العلماء من الغريب وأورد أبياتاً من الشعر استشهد بها على معاني ما ورد في القرآن من هذه الألفاظ[٢]، حيث ذكر أن هذه الأبيات ساقها ابن عباس رضي الله عنه في إجابة نافع بن الأزرق ونجده بن عويمر للدلالة على استعمال العرب لبعض الكلمات الغريبة مما ورد ذكرها في القرآن من ذلك: كلمة(عزين).

يقول عبيد بن الابرص:

فجاؤا يهرعون اليه حتى يكونوا حول منبره عزينا

وكلمة (الوسيلة)

يقول عنترة:

إن الرجال لهم إليك وسيلة إن يأخذوك تكحلي وتخضبي

وكلمة (أجاء)

يقول حسان بن ثابت

إذا شددنا شدة صادقة فأجأناكم إلى سفح الجبل

وكلمة (السمود)

تقول هذيلة بنت بكر وهي تبكي قوم عاد

ليت عاداً قبلوا الحق ولم يبدوا جحودا

قيل قم فانظر اليهم ثم دع عنك السمودا

---

(١) نفس المصدر السابق ص٩٠

(٢) الاتقان (١/ ١٢٠).

سابعاً: استعمال الكلمات المعربة

التي أدخلها العرب إلى لغتهم بعد أن أحدثوا فيها من التغيير ما جعلها مجانسة لألفاظهم، جارية على قواعدهم، وارتضوها بين كلماتهم.

وقد نزل القرآن الكريم بما الف العرب استعماله ليدركوا معناه، فليس غريبا أن يتخذ من تلك الأدوات المعربة أدوات له يؤدي بها اغراضه ومعانيه.

ووجه البلاغة في إيثارها على غيرها أنها تؤدي معانيها الدقيقة في عبارة موجزة لم يرد في كلام العرب بديل مناسب عنها[(١)].

وقد ذكر السيوطي في (الاتقان) ما أخرجه ابن جرير بسند صحيح عن أبي ميسرة التابعي الجليل قال(في القرآن من كل لسان)، وري مثله عن سعيد بن جبير، ووهب بن منبه.

ثم قال: وهذه إشارة إلى أن حكمة وقوع هذه الألفاظ في القرآن أنه حوى علوم الأولين والآخرين، ونبأ كل شيء، فلا بد أن تقع فيه الإشارة إلى أنواع اللغات والالسن[(٢)]، من ذلك قوله تعالى: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ﴾ الواقعة(١٧، ١٨) كلمة (ابريق).

وقد ذهب الامام الشافعي رحمه الله إلى أن جميع كتاب الله إنما نزل بلسان العرب، حيث قال في (الرسالة):

"والقرآن يدل على أن ليس من كتاب الله شيء الا بلسان العرب"[(٣)] وقد ذهب ابن عباس وعكرمه وغيرهما أنه وقع في القرآن ما ليس من لغة العرب[(٤)] فمن ذلك (الطور) جبل بالسريانية، و(طفقا) أي قصدا بالرومية و(القسطاس) العدل بالرومية(المهل) عكر الزيت بلسان أهل المغرب (ناظرين أناه) أي نضجه بلسان أهل المغرب.

---

(١) من بلاغة القرآن ص٩٤.

(٢) الاتقان (١/ ١٣٦).

(٣) الشافعي،محمد بن ادريس، الرسالة، تحقيق أحمد محمد شاكر، ص٤٢.

(٤) البرهان في علوم القرآن (١/ ٢٨٨).

وقد جمع أبـو عبيد القاسـم بن سـلام فيما حكاه ابـن فارس جمـع بيـن المذهبين في أدب رفيع حيـث قال: "والصواب عندي مذهـب فيه تصديق القولين جميعـاً، وذلـك أن هذه الأحرف أصولها أعجمية كما قال الفقهاء، الا أنها سقطت إلى العرب، فقربتها وقد اختلطت هذه الحروف بكلام العرب،فمن قال إنها عربية فهو صادق، ومن قال أعجمية فصادق"(١).

ثامناً: إيراد كلمات أو حروف تبدو وكأنها زائدة

لا تـؤدي غرضـاً فـي السـياق، الا أن التأمـل يقـود الباحـث إلـى أسـرار عجيبـة في اسـتعمالها بالخطاب القرآنـي ويفصح عن بلاغـة معجزة في هـذا الباب والزائـد يمكن أن يكون كلمة ويمكن أن يكون حرفاً.

قال الأمام السـيوطي:"ومن الأدب مع القرآن أن يجتنب اطلاق لفـظ الزائد في كتاب اللـه تعالى، فـان الزائد قـد يفهم منـه أنه لا معنـى له، وكتـاب الله منـزه عن ذلـك، ولذا فر بعضهم إلى التعبير بدله بالتأكيد والصلة والمقحم. والحاجة إلى الزائد كالحاجة إلى المزيد عليه سـواء بالنظر إلى مقتضـى الفصاحة والبلاغة، وأنه لـو ترك كان الكلام دونـه مع افادته أصل المعنى المقصود أبتر خالياً عن الرونق الطبيعي البليغ، لا شبهة في ذلك"(٢).

ولنعرض لكل مما يسمى بالحروف الزائدة والكلمات الزائدة بشيء من التوضيح:

١. الحروف الزائدة:

أ. في قوله تعالى: ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا﴾ مريم(٢٥) قال الرازي: الباء هنا زائدة(٣).

فهل هي زائدة حقيقة؟!. السـنا نجد أن النصّ ضمن هزي معنى أمسكي هازّة؟ وجيء

---

(١) نفسه(١/ ٢٩٠).

(٢) الاتقان/ (١/ ١٨٢) وانظر البرهان في علوم القرآن (١/ ٣٠٥).

(٣) تفسير الفخر الرازي: (٢١/ ٢٠٧).

بالياء لتصور مريم عليها السلام ممسكة بجذع النخلة تهزها مبعدة هذا الجذع حيناً، ومقربة إياه حيناً آخر؟[(١)]

وذكر ابو السعود في تفسيره عدة وجوه لمجيء الباء هنا أحدها أنها جاءت لإلصاق الفعل بمدخولها أي افعلي الهز بجذعها[(٢)].

ب. وفي قوله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ الحج(٢٥).

الباء في قوله تعالى (بالحاد) ليست داخلة على المفعول به، بل المفعول محذوف، والجار والمجرور حال من فا عل يرد، والمعنى: ومن يرد فيه مراداً ما عادلاً عن القصد ظالماً نذقه من عذاب اليم، والالحاد هو العدول عن القصد فالباء للمصاحبة وليست زائدة[(٣)].

قال الفخر الرازي(بالحاد بظلم): "حالان مترادفان، وهو اختيار الكشاف، والمفعول هنا متروك ليتناول كل متناول"[(٤)].

وقال ابو السعود"هما حالان مترادفان أو الثاني بدل الاول بإعادة الجار والمجرور، أو صلة له أي ملحداً بسبب الظلم، كالاشراك واقتراف الآثام"[(٥)].

٢. الكلمات الزائدة:

أ. في قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ البقرة(٧٩).

كلمة (بأيديهم) تبدو للنظرة السريعة زائدة يمكن الاستغناء عنها، ولكن التأمل فيها يبين عن دقة فائقة، فهي تصور جريمة الافتراء، وترسم مقدار اجترائهم على الله،

---

(١) من بلاغة القرآن ص٩٨.

(٢) تفسير أبو السعود(٣/ ٤٢٤)

(٣) من بلاغة القرآن ص٩٨.

(٤) تفسير الفخر الرازي، (٢٣/ ٢٦).

(٥) تفسير ابو السعود(٤/ ١٥).

وتؤكد ارتكابهم الجريمة بأنفسهم، وإن شئت فأسقط تلك الكلمة وانظر أي فراغ تتركه إذا سقطت [(١)]. قال ابو السعود في تفسيره: (بأيديهم) تأكيد لدفع توهم المجاز كقوله(كتبته بيميني)[(٢)].

ب. وفي قوله تعالى: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾ النور(١٥) كلمة بأفواهكم تشير إلى أن الحديث الذي يجري على السنتهم لم يشترك فيه العقل قال ابو السعود: "(وتقولون بأفواهكم) أي تقولون قولاً مختصاً بالافواه من غير أن يكون له مصداق ومنشأ في القلوب"[(٣)].

وقال الزركشي: قيل(بأفواهكم) للتنبيه على أنه قول لا دليل عليه، بل ليس فيه الا مجرد اللسان، أي لا تعضده حجة ولا برهان، وإنما هو لفظ فارغ من معنى تحته[(٤)].

هذا وقد تكلم استاذنا الدكتور فضل حسن عباس في كتابه (لطائف المنان وروائع البيان في دعوى الزيادة في القرآن) تكلم حول قضية الزوائد، فأفاد وأجاد حيث عرف الزوائد وتحدث عن تاريخها وموقف العلماء منها، وبين الأسباب التي قادت بعض الكاتبين والمفسرين للقول بالزيادة، والتي من أهمها.

١. إنهم جعلوا القواعد النحوية حكما على القرآن الكريم.

٢. عدم التفريق بين الأساليب العربية.

٣. إهمال أسلوب التضمين.

ثم قدم بعد ذلك دراسة تفصيلية لكل حرف على حده، حيث يستبين من هذه الدراسة

---

(١) من بلاغة القرآن (١٠٢) وانظر البرهان في علوم القرآن(٢/ ٤٣٢).

(٢) تفسير ابو السعود(١/ ١٤٥).

(٣) نفسه (٤/ ٧٥)

(٤) .البرهان في علوم القرآن(٢/ ٤٢٧).

أن شيئاً اسمه الحروف الزائدة أو الكلمات الزائد غير موجودة في القرآن الكريم[١]. فتبارك الله الذي انزل هذا القرآن وفصّل آياته وأحكم كلماته.

يقول الشيخ مصطفى صادق الرافعي:

"فإن اعتبار الزيادة في القرآن واقرارها بمعناها، إنما هو نقص يُجلُّ عنه القرآن، وليس يقول بذلك الا رجل يعتسف الكلام ويقضي فيه بغير علمه أو بعلم غيره، فما في القرآن حرف واحد الا ومعه رأي يسنح في البلاغة، من جهة نظمّه أو دلالته أو وجه اختياره، بحيث يستحيل البته أن يكون فيه موضع قلق، أو حرف نافر أو جهة غير محكمة أو شيء مما تنفد في نقده الصنعة الإنسانية من أي باب من ابواب الكلام إن وسعها منه باب "[٢].

تاسعاً: اسلوبه المتميز بالفخامة والقوة والجلال[٣]:

في كل ما يتناوله القرآن من الأغراض، يكتسب ذلك من الفاظه وكلماته المنتقاه، التي نحس اثناء تلاوتها وكأنها تزف الينا في موكب ملائكي بهيج، ولنستمع: ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ ۖ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾﴾ الإنسان(١٠-٢٠).

هذه الفخامة وهذا الجلال يحسُّ بهما القارئ والسامع لآيات الله في كل غرض يتناوله القرآن، فتستجيب لها نفسه، ويخبت لها قلبه، ويتطلع إلى المزيد منها من غير سآمة أو ملل، فتبارك الله الذي نزل هذا القرآن، وأودع فيه من أسرار الاعجاز ما لا يحصيه عد، ولا يحيط به بيان.

---

(١) عباس، د. فضل حسن، (لطائف المنان) دار النور، بيروت الطبعة الأولى، ١٩٨٩، ص٥٧ وما بعدها.

(٢) اعجاز القرآن والبلاغة النبوية ص٢٦٣.

(٣) انظر (من بلاغة القرآن) ص٢٤٤.

ويمتاز الأسلوب القرآني بالانسجام الموسيقي "لترتيب حروفه باعتبار من أصواتها ومخارجها، ومناسبة بعض ذلك لبعضه مناسبة طبيعية في الهمس والجهر، والشدة والرخاوة والتفخيم والترقيق، والتفشي والتكرير وغير ذلك ولقد كان هذا النظم عينه هو الذي صفى طباع البلغاء بعد الإسلام، وتولى تربية الذوق الموسيقي اللغوي فيهم، حتى كان لهم من محاسن التركيب في اساليبهم - مما يرجع إلى تساوق النظم واستواء التاليف- ما لم يكن مثله للعرب من قبلهم[(١)].

"وإن شدة هذا الانسجام لتصل في بعض الأحيان إلى أن تتفق الآية مع وزن بحر من بحور الشعر كما نرى في قوله تعالى ﴿**وجفان كالجواب وقدور راسيات**﴾ سبأ(١٣). فهي تتفق مع بحر الرمل (فاعلاتن، فاعلاتن، فاعلات).

وقوله سبحانه: ﴿**ومن تزكى فأنما يتزكى لنفسه**﴾ فاطر(١٨) وهذه على وزن البحر الخفيف (فاعلاتن مستفعلن فاعلاتن).

وكذلك قوله تعالى ﴿**هيهات هيهات لما توعدون**﴾ المؤمنون(٣٦) فهو شطر بيت من البحر السريع (مستفعلن، مستفعلن، فاعلن).

ولكن هذا ليس مدخلاً الشعر في القرآن الكريم لأنه ليس مقصوداً[(٢)] والأسلوب القرآني يتسم بالهدوء، عندما يتطلب الأمر هدوءاً وتاملاً وفضل تدبر[(٣)]، كما في قوله سبحانه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾ الرعد(٢-٣).

---

(١) انظر (إعجاز القرآن والبلاغة النبوية) ص٢٤٤.

(٢) من بلاغة القرآن ص٢٤٥ بتصرف.

(٣) نفس المصدر السابق٢٤٦.

في حين يتدفق الأسلوب ويندفع في جمل قصيرة مثيراً بذلك الانفعال السريع العنيف، وذلك حيث يتطلب هجوم الحق على الباطل هذا العنف المثير، ولنستمع: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّآ إِنَّهُۥ كَانَ لِءَايَٰتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾﴾ المدثر (١١-٢٣).

ولننظر إلى الأسلوب القرآني عندما يتطلب الأمر مداركه وسرعة كيف تأتي الآيات قصيرة، خالية من المد، وكأنها إشارة إلى صفة الاستعجال المطلوبة ولنستمع:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ﴿٥﴾ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴿٦﴾ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ﴿٧﴾﴾ المدثر (١-٧).

عاشراً: براعة الاستهلال وحسن التخلص إضافة إلى حسن الخاتمة:

"حيث إن جميع فواتح السور وخواتمها واردة على أحسن الوجوه واكملها من البلاغة، لما فيها من التفنن، وأنواع الإشارة، وكونها بين أدعية ووصايا ومواعظ وتحميدات وغير ذلك، مما وقع موقعه وأصاب محزه، بحيث تقصر عن كنه وصفه العبارة"[(١)].

وتقتضي براعة الاستهلال وحسن الابتداء التأنق في أول الكلام لأنه أول ما يقرع السمع، فإن كان محرراً أقبل السامع على الكلام ووعاه والا أعرض عنه، ولو كان الباقي في نهاية الحسن[(٢)].

وقد افتتح المولى سبحانه سور القرآن بعشرة أنواع من الكلام لا يخرج شيء من السور عنها[(٣)] وهي:

(١) تلخيص المفتاح وشرحه مختصر المعاني ص٣٩٢.

(٢) الاتقان في علوم القرآن(٢/ ١٠٦).

(٣) نفسه (٢/ ١٠٥) وانظر البرهان في علوم القرآن(١/ ١٧٨).

١- الثناء عليه سبحانه

كقوله سبحانه ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ الفاتحة(٢).

وقوله ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ الملك(١)

وقوله ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ الأعلى(١)

وقوله ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ الأسراء(١).

٢- حروف التهجي

كقوله سبحانه ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ﴾ (١، ٢).

وقوله ﴿كٓهيعٓصٓ ۝١ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ﴾ مريم(١ ، ٢).

وقوله ﴿صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ﴾ سورة ص(١).

وقوله ﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾ سورة ق (١).

٣- النداء:

كقوله سبحانه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ﴾ النساء(١).

وقوله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ الاحزاب(١).

وقوله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ﴾ المزمل(١).

٤- الجمل الخبرية:

كقوله سبحانه:﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾ الانفال (١)

وقوله ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ الفتح(١).

٥- القسم:

كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا﴾ الصافات(١).

وقوله ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ﴾ البروج (١).

وقوله(وَٱلْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ) الفجر(١، ٢).

٦- الشرط:

كقوله تعالى: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾ الواقعة(١).

وقوله ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ التكوير(١).

٧- الأمر:

كقوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ الكافرون(١).

وقوله ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ الاخلاص(١).

٨- الاستفهام:

كقوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ﴾ الإنسان(١).

وقوله ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ﴾ سورة النبأ(١، ٢).

٩- الدعاء:

كقوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ﴾ المطففين (١، ٢).

وقوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ الهمزة(١).

١٠- التعليل:

كقوله سبحانه: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ﴾ قريش(١، ٢).

ولكل من هذه الفواتح ميزته وأثره في نفس السامع،ومناسبته للحال المتكلم فيه؛ وقد حرص القرآن الكريم على استعمال هذه الفواتح، حيث إنه لا أشد في التنبيه من البدء بالأمر الغريب، الذي لم تألفه الإسماع فيضطرهم استغرابهم إلى استماع ما سيلقى عليهم[١].

---

(١) انظر التعريف بالقرآن والحديث ص١٦،ومناهل العرفان،(١/ ٢٢٩).

أما التخلص الذي هو الانتقال مما يفتتح به الكلام إلى المقصود مع رعاية المناسبة[١]، فقد تأنق الخطاب القرآني في ذلك حيث جاء التخلص حسناً متلائم الطرفين، محركاً لنشاط السامع، معيناً إياه على الاستماع إلى ما بعده، بحيث لا يشعر السامع بالانتقال من المعنى الأول الا وقد وقع عليه الثاني، لشدة الالتئام بينهما.

ومنه قوله ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ﴾ المعارج(١) فإنه سبحانه ذكر عذاب الكفار،وأنه لا دافع له من الله ثم تخلص منه إلى قوله ﴿تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيۡهِ﴾ بوصف ﴿ٱللَّهِ ذِي ٱلۡمَعَارِجِ﴾[٢].

ومنه قوله سبحانه: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ إِبۡرَٰهِيمَ ۝٦٩ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَا تَعۡبُدُونَ﴾ الشعراء(٦٩،٧٠).

إلى قوله ﴿فلو أن لنا كرة فنكون من المؤمنين﴾ الشعراء(١ ،٢) فهذا تخلص من قصة إبراهيم وقومه إلى قوله هكذا، وتمني الكفار في الدار الاخرة الرجوع إلى الدنيا ليؤمنوا بالرسل، قال الزركشي: وهذا تخلص عجيب[٣].

ولا بد لحسن التخلص من التوطئة والتمهيد ليكون النظم متلائم الطرفين محركاً لنشاط السامع، ومشجعاً للاستماع إلى ما وراءه، تماماً كما نلاحظ ذلك في سورة ص حيث قال تعالى بعد ذكر الأنبياء: ﴿هذا ذكر وإن للمتقين لحسن مآب﴾ ص(٤٩). "فإن هذا القرآن نوع من الذكر، لما انتهى ذكر الأنبياء، وهو نوع من التنزيل،أراد أن يذكر نوعاً آخر،وهو ذكر الجنة وأهلها فقال: (هذا ذكر) فأكد تلك الاخبارات باسم الإشارة: تقول: أشير عليك بكذا، ثم تقول بعده، هذا الذي عندي والأمر اليك"[٤].

---

(١) تلخيص المفتاح ص٣٨٨.

(٢) نفسه (١/ ٤٣).

(٣) نفسه (١/ ٤٣.

(٤) نفسه(١/ ٥٠).

قال السيوطي في الاتقان: "هذا في هذا المقام من الفصل الذي هو أحسن من الوصل، وهي علاقة أكيدة بين الخروج من الكلام إلى آخر"[(١)].

ومن بديع التخلص قوله تعالى:

﴿**نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا اليك هذا القرآن**﴾ يوسف(٣) يشير إلى قصة يوسف عليه السلام فوطأ بهذه الآية إلى ذكر القصة)[(٢)].

قال السيوطي في الاتقان: (قال الطيبي: "ومما اجتمع فيه حسن التخلص وحسن المطلب معاً قوله تعالى حكاية عن إبراهيم: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾﴾ الشعراء (٧٧-٨٣)[(٣)]

أما خواتم السور فهي مثل الفواتح في الحسن؛ لأنها آخر ما يقرع الاسماع، فلهذا جاءت متضمنة للمعاني البديعة، مع إيذان السامع بانتهاء الكلام حتى يرفع معه تشوق النفس إلى ما يذكر بعد[(٤)].

ومن ذلك قوله تعالى في ختام سورة إبراهيم: ﴿ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ابراهيم (٥٢).

وقوله سبحانه في آخر سورة الاحقاف: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ ۚ بَلَٰغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ الاحقاف(٣٥).

---

(١) الاتقان في علوم القرآن(٢/ ١١٠).

(٢) البرهان في علوم القرآن(١/ ٤٥).

(٣) الاتقان في علوم القرآن (٢/ ١١٠).

(٤) البرهان(١/ ١٨٢) وانظر الاتقان(٢/ ١٠٧).

وختام سورة آل عمران ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ ال عمران(٢٠٠).

حيث امرت السورة بالصبر على تكاليف الدين والمصابرة لاعداء الله في الجهاد ومعاقبتهم، والمصابرة على شدائد الحرب، والمرابطة في الغزو الذي طلب اثناء السورة بقوله تعالى(ومن رباط الخيل) والتقوى التي وعد الله عليها بالتوفيق والاخراج من المضائق مثلما وعد بتسهيل امر الرزق[(١)] فقال سبحانه ﴿**ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب**﴾ الطلاق(٣).

حادي عشر: ومن الخصائص البلاغية للخطاب القرآني التكرار:

قال الزركشي في البرهان: "وقد غلط من انكر كونه من أساليب الفصاحة، ظناً أنه لا فائدة له، وليس كذلك بل هو من محاسنها"[(٢)]، وفائدته العظمى التقرير وقد قيل إن الكلام إذا تكرر تقرر، وقد اشار القرآن الكريم إلى ذلك بقوله: ﴿**ولقد وصلنا لهم القول لعلهم يتذكرون**﴾ القصص(٥١).

قال الفخر الرازي: توصيل القول هو إتيان بيان بعد بيان[(٣)] ويرى الأستاذ محمد قطب أن التنويع لا التكرار هو الظاهرة الحقيقية في القرآن الكريم[(٤)]. وللتكرار فوائد كثيرة منها:

١. التأكيد: كقوله تعالى ﴿**كلا سوف تعلمون، ثم كلا سوف تعلمون**﴾ التكاثر(٤) قال أبو السعود: (التكرير للتأكيد)[(٥)]. والتكرير ابلغ من التأكيد، لأنه يقع في

(١) انظر البرهان في علوم القرآن(١/ ٨٣).

(٢) البرهان في علوم القرآن(٣/ ٩).

(٣) تفسير الفخر الرازي(٢٤/ ٢٦٢).

(٤) محمد قطب،(دراسات قرآنية) دار الشروق، بيروت، ص٢٦١.

(٥) تفسير أبو السعود(٥/ ٩٠٠).

تكرار التأسيس، في حين يقرر التأكيد إرادة المعنى الأول وعدم التجوز[(١)].

قال الزركشي في البرهان: (ولهذا قال الزمخشري في قوله تعالى (كلا سوف تعلمون، ثم كلا سوف تعلمون) إن الثانية تأسيس لا تأكيد، لأنه جعل الثانية أبلغ في الانشاء، فقال: "وفي (ثم) تنبيه على أن الإنذار الثاني ابلغ من الأول")[(٢)].

٢. زيادة التنبيه على ما ينفي التهمة ليكمل تلقي الكلام بالقبول. من ذلك قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُونِ أَهۡدِكُمۡ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَٰعٌ ..﴾ غافر (٣٨-٣٩) قال الالوسي: كرر نداءهم إيقاظاً لهم عن سنة الغفلة، واهتماماً بالمنادى له، ومبالغة في توبيخهم على ما يقابلون به دعوته[(٣)].

٣. إذا طال الكلام وخشي تناسي الأول أعيد ثانية تطرية له وتجديداً لعهده[(٤)]. من ذلك قوله تعالى: ﴿وَتَحۡمِلُ أَثۡقَالَكُمۡ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمۡ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِۚ إِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (النحل(٧) قال الفخر الرازي: (أعاد = إن ربك من بعدها- على سبيل التأكيد)[(٥)].

وقال ابو السعود: (وتكرير – إن ربك من بعدها- لتأكيد الوعد، وإظهار كمال العناية)[(٦)].

٤. ويأتي التكرار في مقام التهويل والتعظيم، كقوله تعالى: (القارعة ما القارعة)

---

(١) البرهان في علوم القرآن(٣/ ١١).

(٢) نفسه (٣/ ١١) ولا أدري أين قال الزمخشري ذلك، لكني وجدت في الكشاف قول الزمخشري أن التكرير في الآية المذكورة تأكيد للردع والإنذار عليهم، انظر الكشاف(٣/ ٢٨١).

(٣) تفسير روح المعاني(٢٤/ ٧١).

(٤) البرهان(٣/ ١٤).

(٥) تفسير الفخر الرازي(٢٠/ ١٣٥).

(٦) تفسير ابو السعود(٣/ ٣٠١).

القارعة(١،٢) قال الإمام القرطبي:(ما القارعة: استفهام على جهة التفخيم والتعظيم لشأنها)[١].

ومنه قوله تعالى: (وأصحاب اليمين، ما أصحاب اليمين) الواقعة(٢٨).

قال القرطبي: التكرير لتعظيم شأن النعيم الذي هم فيه[٢].

٥. ومن فوائد التكرار: التهديد والوعيد. كما في قوله تعالى: ﴿كلا سيعلمون، ثم كلا سيعلمون﴾ النبأ(٤،٥) قال ابو السعود: ﴿ثم كلا سيعلمون﴾: تكرير للردع والوعيد للمبالغة في التأكيد والتشديد[٣]، و(ثمّ) للتفاوت في الرتبة، فكأنه قيل: لهم يوم القيامة ردع وعذاب شديدان، بل لهم يومئذ أشد وأشد[٤].

٦. التعجيب: من ذلك قوله تعالى: ﴿فقتل كيف قدر، ثم قتل كيف قدر﴾ المدثر (١٩،٢٠) قال ابو السعود/ "فقتل كيف قدر"تعجيب من تقديره، وإصابته فيه الغرض الذي كان ينتحيه كفار قريش قاتلهم الله.﴿ثم قتل كيف قدر﴾ تكرير للمبالغة كما هي عادة من أعجب بشيء غاية الإعجاب. والإطراء في الإعجاب بتقديره يدل على غاية التهكم به وبمن فرح بمحصول تفكيره"[٥].

قال الشيخ الالوسي رحمه الله: والعطف بثم للدلالة على تفاوت الرتبة، وأن الثانية أبلغ من الأولى، فكأنه قيل: قتل بنوع من القتل، لا بل قتل بأشده، ولذا ساغ العطف فيه مع أنه تأكيد.

ويرى الشيخ ابوالسعود رحمه الله: أن (ثم) أفادت التراخي الزماني[٦].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن(٢٠/ ١٦٤).

(٢) نفسه(١٧/ ٢٠٧).

(٣) انظر ابو السعود(٥/ ٨١١).

(٤) انظر تفسير روح المعاني(٣٠/ ٥).

(٥) انظر روح المعاني(٢٩/ ١٥٤).

(٦) تفسير ابو السعود(٥/ ٧٩٠).

٧. ومن فوائد التكرار وأسبابه: تعدد المتعلق: كما في قوله تعالى: ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾ الرحمن(٣٥). وإنما حسن التكرار للتقرير بالنعم المختلفة، فكلما ذكر سبحانه نعمة أنعم بها وبّخ على التكذيب بها، كما يقول الرجل لغيره: ألم أحسن اليك، بأن خولتك في الأموال؟ ألم أحسن اليك بأن فعلت بك كذا وكذا؟ فيحسن فيه التكرير لاختلاف ما يقرر به، وتعلق كل واحده من المكررات بما قبلها. قال الالوسي: ولهذا زادت على الثلاثة،ولو كان الجميع عائداً على شيء واحد لما زاد على الثلاثة لأن التأكيد لا يزيد عليها(١).

وقد عد ابن الأثير في كتابه (المثل السائر) في أدب الكاتب والشاعر)(٢). عد التكرار من مقاتل علم البيان، لدقة مأخذه، وأشتباهه على أكثر الناس، وذكر أنه ينقسم إلى قسمين:

- أحدهما: يوجد في اللفظ والمعنى نحو قولك لمن تستدعيه: (أسرع، أسرع).
- والآخر: يوجد في المعنى دون اللفظ كقولك: (أطعني ولا تعصني).

وذكر أقسام هذين الضربين، وأوضح ذلك بأمثلة كثيرة من كتاب الله تؤكد أن التكرار من أساليب الفصاحة التي قد لا يدركها الا أهل الاختصاص.

ثاني عشر: الكناية:

وهي ترك التصريح بذكر الشيء إلى ذكر ما يلزمه، لننتقل من المذكور إلى المتروك، كما نقول: فلان طويل النجاد لتنتقل إلى ملزومة وهو طول القامة(٣). وذكر الزركشي

---

(١) روح المعاني (٢٧/ ٩٨) ولزيادة الفائدة حول هذا الغرض من اغراض التكرار واسراره أنصح بالرجوع إلى كتاب البرهان في علوم القرآن الذي توسع في عرض ذلك انظر (٣/ ١٨) وما بعدها.

(٢) ابن الاثير، ضياء الدين،(المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، دار نهضة مصر، الفجالة، القاهرة، القسم الثالث ص.

(٣) انظر مفتاح العلوم ص٤٠٢.

أن الكناية هي الدلالة على الشيء من غير تصريح باسمه وهي عند العرب من البراعة والبلاغة، وهي عندهم أبلغُ من الصريح[١].

وقد وردت الكناية في القرآن الكريم لأهداف كثيرة منها:

١. تصوير المعنى المعقول في صورة حسية موحية[٢] كما في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ ﴾ الاسراء(٢٩). فانظر إلى السورة التي تضعها أمامك هذه الآية الكريمة، بحيث يصل المعنى المطلوب إلى اعماق النفس؛ فصورة اليد المغلولة يستطيع كل إنسان أن يتصورها دون عناء، ولا تكلف، وانظر الفرق بين التعبير القرآني الكريم وبين قولنا مثلاً: اجتنب البخل.

٢. الإيجاز: وهي ميزة الأساليب القرآنية جميعاً، الا أن الكناية زيادة ايجاز، ففي قوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ﴾ البقرة(٢٤) جاءت الآية الكريمة في سياق التحدي. ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ البقرة(٢٣).

أي ولن تستطيعوا ذلك، فاتركوا العناد، وانقادوا للنبي وآمنوا بهذا القرآن. فانظر كيف كنى عن هذا كله بهاتين الكلمتين الجامعتين ﴿فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا﴾مع روعة الإيجاز ونهايته[٣].

٣. التأدب في الحديث والابتعاد عما يفحش ذكره. من ذلك قوله تعالى: ﴿فالآن باشروهن﴾ وقوله ﴿أو لامستم النساء﴾ النساء (٤٣).

حيث كنى بالمباشرة والملامسة عند الجماع تأدباً واحتشاماً، وتجنباً لما يستقبح ذكره[٤].

---

(١) البرهان في علوم القرآن(٢/ ٣٠١).

(٢) البلاغة فنونها وأفنانها ٢/ ٢٦٠ وانظر من بلاغة القرآن ص٢٢٦.

(٣) انظر من بلاغة القرآن ص٢٢٨، والبلاغة فنونها وأفنانها ٢/ ٢٦٠.

(٤) الاتقان في علوم الفرآن(٢/ ٤٢).

وكنىٰ عما تطلب المرأة من الرجل بالمراودة في قوله تعالىٰ: ﴿**وروادته التي هو في بيتها عن نفسه**﴾ يوسف (٢٣).

وكنىٰ بالغائط عن النجو في قوله سبحانه ﴿**او جاء احد منكم من الغائط**﴾ المائدة(٧٥) والغائط في اصل اللغة اسم للمكان المنخفض من الأرض[١].

ثالث عشر الاستفهام

الاستفهام هو طلب الفهم، والمولىٰ سبحانه لا يستفهم خلقه عن شيء، وإنما يستفهمهم ليقررهم ويذكرهم بحق ذلك الشيء عليهم، وهذا أسلوب بديع انفرد به الخطاب القرآني، وهو في كلام البشر مختلف[٢].

علىٰ أن الاستفهام ورد في الخطاب القرآني علىٰ أصل معناه كما في قوله سبحانه ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾ النازعات(٤٢) وقوله ﴿إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ المائدة(١١٢).

وأكثر ما استعمل الاستفهام في القرآن علىٰ خلاف أصل معناه ليؤدي معان أخرىٰ تفهم من سياق النص؛ فمن ذلك:-

١. الإنكار: كقوله تعالىٰ: ﴿**أشهدوا خلقهم**﴾ الزخرف(١٩) وقوله ﴿**ألكم الذكر وله الأنثى**﴾النجم(٢٢) وقوله ﴿**انلزمكموها وانتم لها كارهون**﴾ هود(٢٨). ويؤدي الانكار هنا معنىٰ النفي، ولكن العدول إلىٰ الإنكار أفاد أقرار المخاطب بهذا النفي فكان أفضل من النفي ابتداءً؟[٣].
٢. التوبيخ: من ذلك قوله سبحانه: ﴿**اتدعون بعلاً وتذرون أحسن الخالقين الله**﴾ وقوله ﴿**الم تكن ارض الله واسعة فتهاجروا فيها**﴾.

---

(١) نفسه (٢/ ٤٧) وانظر مختار الصحاح ص٤٨٤.

(٢) انظر البرهان (٢/ ٣٢٧) والاتقان (٢/ ٧٢).

(٣) انظر (من بلاغة القرآن) ص١٦٣.

وفائدة الاستفهام هنا أنه يثير في النفس الرغبة في التفكير والتدبر حتىٰ تقتنع بأنه ينبغي الا يقع ما وقع أو أن الصواب في أن يقع ما لم يقع قال الشيخ السيوطي رحمه الله (وقد جعله بعضهم من قبيل الانكار، الا ان الأول انكار ابطال وهذا انكار توبيخ)[١].

٣. التقرير: وهو حمل المخاطب علىٰ الاقرار والاعتراف بأمر قد استقر عنده، وفي العدول عن الأخبار إلىٰ الاستفهام انتزاع اعتراف المخاطب بعد التدبر والأناه. كقوله تعالىٰ ﴿**الست بربكم قالو: بلى**﴾ الاعراف (١٧٢) وقوله ﴿**اليس الله بكاف عبده**﴾[٢] الزمر (٣٦).

٤. التعجب أو التعجيب[٣]: كقوله تعالىٰ: ﴿**اتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم**﴾ البقرة (٤٤) وقوله ﴿**كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم**﴾ البقرة(٢٨).

٥. ويرد الاستفهام ليفيد معان أخرىٰ منها: التذكير كقوله تعالىٰ ﴿**الم اعهد اليكم يا بني آدم الا تعبدوا الشيطان**﴾ يس(٦٠).

ومنها التسهيل والتخفيف كقوله سبحانه ﴿**وماذا عليهم لو آمنوا**﴾ النساء(٣٩) ومنها التهديد والوعيد كقوله سبحانه ﴿**الم نهلك الاولين**﴾ المرسلات(١٦).

هذا وقد عرض الأمام الزركشي في البرهان لموضوع الاستفهام بشيء من الاسهاب والتفصيل، فأنصح بالرجوع إليه لمن يبغي المزيد[٤].

كما ذكر الإمام السيوطي في (الاتقان) اثنين وثلاثين معنىٰ مستفاداً من الاستفهام

(١) انظر الاتقان في علوم الاتقان(٢/ ٧٩).

(٢) انظر البرهان في علوم القرآن(٢/ ٣٣٤).

(٣) الاتقان(٢/ ٨٠).

(٤) انظر البرهان في علوم القرآن(٢/ ٣٢٦) وما بعدها.

عندما يستعمل لغير معناه الاصلي وهو طلب الفهم[(١)]. ورجح القول بأن الوجوه المذكورة يوجد فيها معنى الاستفهام، ولكن انضم اليه معنى آخر رجح هذا على قول آخر يميل إلى اعتبار هذه المعاني قد أخرجت العبارة وجردتها عن الاستفهام بالكلية[(٢)]. ونرجح هنا ما رجحه السيوطي، انسجاماً مع ظاهر العبارة. ومعلوم أن المعاني المذكورة التي يفيدها الاستفهام عندما يخرج عما وضع له أصلاً تفهم من سياق الكلام وقرائن الأحوال[(٣)].

رابع عشر: ومن الخصائص البلاغية للخطاب القرآني

- التوكيد بأقسامه.
- الحذف بأقسامه.
- الإيجاز.
- التقديم والتأخير.
- التغليب
- التضمين
- الالتفات
- وضع الخبر موضع الطلب
- وضع الطلب موضع الخبر
- تذكير المؤنث
- تأنيث المذكر

(١) الاتقان في علوم القرآن(٢/ ٧٩) وما بعدها.
(٢) انظر الاتقان (٢/ ٨٠).
(٣) انظر علم المعاني لعبد العزيز عتيق ص١٠٤.

- التعبير عن المستقبل بلفظ الماضي، وعكسه.
- مشاكلة اللفظ للمعنىٰ.
- التشبيه والاستعارة، وغيرها مما لا تتسع هذه المقدمة للوفاء به أو للفصل فيه.

علىٰ أنه ورد الحديث عن بعض هذه الخصائص في مواضع متفرقة من هذا البحث.

لكنني أوصي القارئ الكريم أن يسبر أغوار هذه الموضوعات إذا رغب في الاطلاع علىٰ عجائب هذا القرآن الكريم، محيلاً إلىٰ كتب البلاغة والاعجاز القرآني، حيث سيرىٰ إعجاز النظم وحسن التأليف، وبراعة التركيب، إضافة إلىٰ سهولة الكلمة وجزالتها، مع عذوبتها، وسلاستها[١].

» سابعاً: أثر مقتضيات الأحوال في الخطاب القرآني

- **الحال:** هو الأمر الداعي للمتكلم إلىٰ أن يعتبر مع الكلام الذي يؤدي به أصل المراد خصوصية ما[٢].
- **ومقتضى الحال:** هو هذه الخصوصية التي يراعيها المتكلم فمثلاً عندما يكون المخاطب منكراً للحكم فإن هذه حال تقتضي تأكيد الحكم لإزالة الانكار، وهذا التأكيد هو مقتضىٰ الحال. فقولك له: (إن زيداً في الدار) مؤكداً بـ(أنَّ)هذا القول كلام مطابق لمقتضىٰ الحال.

ومعلوم أن البلاغة هي مطابقة الكلام لمقتضىٰ الحال مع التزام الفصاحة. وفصاحة الكلام تستلزم خلوصة من ضعف التأليف وتنافر الكلمات والتعقيد[٣].

"فلكي يؤثر الكلام في نفوس المخاطبين لا يصح أن نخاطبهم بما لا تستطيع أن

(١) انظر البرهان في علوم القرآن(٢/ ٣٨٢).
(٢) تلخيص المفتاح مع شرحه مختصر المعاني ص١٨.
(٣) نفسه ص١٤.

تدركه عقولهم أو بما يجرحهم في مشاعرهم وعواطفهم، أو بما لا ينسجم مع اهتماماتهم. وحاجاتهم"(١).

ولما كانت مقامات الكلام متفاوتة فمقتضيات الأحوال هي الأخرى متفاوتة تبعاً لذلك، فمقام التنكير يباين مقام التعريف ومقام الإطلاق يباين مقام التقييد، ومقام التقييد يباين مقام التاخير ومقام التأخير يباين مقام الحذف، ومقام القصر يباين مقام خلافه، ومقام الفصل يباين مقام الوصل، ومقام الايجاز يبيان مقام الاطناب والمساواة، وكذلك خطاب الذكي يباين خطاب الغبي ولكل كلمة مع صاحبتها مقام(٢).

وفي بيان أهمية التعرُّف على مقتضيات الأحوال وأثرها في معرفة إعجاز النظم القرآني ومقاصد كلام العرب يقول الإمام الشاطبي.

"أعلم أن علم المعاني، والبيان الذي يعرف به إعجاز نظم القرآن، فضلاً عن معرفة مقاصد كلام العرب، إنما مداره على معرفة مقتضيات الأحوال، حال المخاطب من جهة نفس الخطاب أو المخاطِب أو المخاطَب أو الجميع؛ إذ الكلام الواحد يختلف فهمه بحسب حالين، وبحسب مخاطبين، وبحسب غير ذلك؛ كالاستفهام لفظه واحد، وتدخله معان أُخَر من تقرير وتوبيخ وغير ذلك،وكالأمر يدخله معنى الإباحة والتعجيز كقوله تعالى(فليمدد بسبب إلى السماء) سورة الحج(١٥) وأشباهها، ولا يدل على معناها المراد إلا الأمور الخارجة وعمدتها مقتضيات الأحوال"(٣).

ولا يخفى انه إذا كان مقتضى الحال اطلاق الحكم فحسن الكلام تجريده من مؤكدات الحكم، وإذا كان بخلاف ذلك فحسن الكلام تحليّه بشيء من ذلك بحسب المقتضى قوة وضعفاً.

---

(١) البلاغة فنونها وأفنانها علم المعاني،ص٦٤.

(٢) الصعيدي، عبد المتقال، (بغية الايضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة)، المطبعة النموذجية(١/ ٢٦).

(٣) الموافقات(٣/ ٣٤٧).

وإذا كان مقتضى الحال طي المسند إليه فحسن الكلام تركه، وإذا كان مقتضى الحال إثباته على وجه من الوجوه فحسن الكلام وروده على الاعتبار المناسب وكذا[١] إذا كان المقتضى ترك المسند فحسن الكلام وروده عاريا عن ذكره، وإذا كان المقتضى عند انتظام الجملة مع أخرى فصلها أو وصلها أو الايجاز معها أو الإطناب، فحسن الكلام تأليفه مطابقاً لذلك[٢].

وقد جمع القرآن الكريم أطراف البلاغة والبيان فجاء الخطاب القرآني موافقاً مقتضى أحوال المخاطبين، ومراعياً الاعتبار المناسب على أروع صورة وأحسن وجه ونلاحظ أثر مراعاة الخطاب القرآني لمقتضيات الأحوال فيما يلي:

- **اولاً**: تنزيل العالم بالشيء منزلة الجاهل به لاعتبارات خطابية من ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَـٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ البقرة(١٠٢).

فصدر الاية يصف أهل الكتاب بالعلم على سبيل التوكيد القسمي، وآخرها ينفيه عنهم، حيث لم يعلموا بعلمهم.

قال الفخر الرازي: "لكنهم لم ينتفعوا بعلمهم، بل اعرضوا عنه فصار ذلك العلم كالعدم، كما سمى الله تعالى الكفار (صما وبكما وعميا) اذا لم ينتفعوا بهذه الحواس، ويقال للرجل في شيء يفعله لكنه لا يضعه موضعه: صنعت ولم تصنع"[٣].

- **ثانياً**: تنزيل وجود الشيء منزلة عدمه، وذلك بسبب انعدام أثره وفاعليته من ذلك

---

(١) الاعتبار المناسب: هو الأمر الذي اعتبره المتكلم مناسباً بحسب السليقة أو بحسب تتبع خواص تراكيب البلغاء، وهو بهذه المثابة بمعنى مقتضى الحال انظر شرح مختصر المعاني في حاشية تلخيص المفتاح ص٢٠.

(٢) السكاكي، أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر، مفتاح العلوم، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، سنة ١٩٨٣، ص١٦٩.

(٣) تفسير الفخر الرازي(٣/ ٢٤٠).

قوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ الأنفال(١٧).

قال الإمام الرازي: (وما رميت إذا رميت ولكن الله رمىٰ) يعني أن القبضة من الحصباء التي رميتها، فأنت ما رميتها في الحقيقة، لأن رميك لا يبلغ أثره الا ما يبلغه سائر البشر، ولكن الله رماها حيث أنفذ أجزاء ذلك التراب، وأوصلها إلىٰ عيونهم فصورة الرمية صدرت من الرسول صلىٰ الله عليه وسلم، وأثرها إنما صدر من الله، فلهذا صح فيه النفي والإثبات[(١)].

ومنه قول الحق سبحانه ﴿**وإن نكثوا ايمانهم من بعد عهدهم، وطعنوا في دينكم فقاتلوا أئمة الكفر، إنهم لا أيمان لهم**﴾ التوبة(٢١).

قال الفخر الرازي: (إن الأمام الشافعي يعتبر يمين الكافر يميناً لكنهم لما لم يفعلوا بها صارت كأنها ليست بأيمان[(٢)]).

- **ثالثاً**: إذا كان المخاطب متردداً في الحكم، طالباً له، يلاحظ الخطاب القرآني تقوية ذلك الحكم بمؤكد ليزيل تردد المخاطب ويتمكن فيه الحكم.

ونقل التفتازاني عن صاحب دلائل الأعجاز قوله بأنه يحسن التأكيد إذا كان للمخاطب ظن علىٰ خلاف حكمك.[(٣)]

من ذلك قوله سبحانه ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ الذاريات(٢٢، ٢٣).

- **رابعاً**: إذا كان المخطاب منكراً للحكم وجب توكيده(أي توكيد الحكم) بحسب الإنكار أي بقدره قوة وضعفاً، بمعنىٰ أنه يجب زيادة التوكيد بحسب زيادة الإنكار إزالة له[(٤)].

---

(١) تفسير الفخر الرازي(١٥/ ١٤٤).

(٢) نفسه(٥/ ٢٤٣).

(٣) مختصر المعاني بحاشية تلخيص المفتاح ص٣٢.

(٤) تلخيص المفتاح مختصر المعاني ص٣٢، وانظر الإتقان في علوم القرآن(٢/ ٦٤).

مثال ذلك قوله تعالىٰ حكاية عن رسل عيسىٰ عليه السلام إذ كذبوا في المرة الأولىٰ ﴿إِنَّآ إِلَيۡكُم مُّرۡسَلُونَ﴾ يس(١٤) مؤكداً بـإنّ والجملة الاسمية. وفي المرة الثانية ﴿قَالُواْ رَبُّنَا يَعۡلَمُ إِنَّآ إِلَيۡكُمۡ لَمُرۡسَلُونَ﴾ يس(١٦) مؤكداً بالقسم وإنّ واللام والجملة الاسمية، وذلك نظراً لمبالغة المخاطبين بالإنكار، حيث قالوا: ﴿قَالُواْ مَآ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَكۡذِبُونَ﴾ يس (١٥).

- **خامساً**: وتقتضي الحال في كثير من الأحيان أخراج الكلام علىٰ خلاف مقتضىٰ الظاهر،وذلك في مواضع منها[١].

١- جعل غير السائل كالسائل إذا قدم له ما يلوح له بالخبر فيستشرف له استشراف المتردد الطالب نحو قوله تعالىٰ: ﴿وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ﴾ هود(٣٧).

فهذا كلام يلوح بالخبر تلويحاً ما، ويشعر بأنه قد حق عليهم العذاب، فصار المقام مقام أن يتردد المخطاب في أنهم صاروا محكوماً عليهم بالإغراق أم لا؟ فقيل: إنهم مغرقون، مؤكداً بإنَّ أي محكوم عليهم بالإغراق[٢].

قال الالوسي: (ولا تخاطبني في الذين ظلموا) أي لا تراجعني فيهم ولا تدعني باستدفاع العذاب عنهم، وفيه من المبالغة ما ليس فيما لو قيل (ولا تدعني فيهم).

وحيث كان فيه ما يلوّح بما يستتبعه أكد التعليل، فقيل: (إنهم مغرقون) أي محكوم عليهم بالإغراق[٣].

ومنه قول المولىٰ سبحانه: ﴿وما أبرئ نفسي، إن النفس لأمارة بالسوء﴾ يوسف(٥٣). ومنه قوله ﴿وصل عليهم، إن صلاتك سكن لهم﴾ التوبة(١٠٣).

---

(١) تلخيص المفتاح وشرح مختصر المعاني ص٣٣، وانظر الإتقان (٢/ ٦٥).

(٢) تلخيص المفتاح وشرحه مختصر المعاني ص٣٣.

(٣) تفسير أبو السعود(١٢/ ٥٠).

قال ابو السعود/ "والجملة تعليل للأمر بالصلاة عليهم"[(١)].فكأنها إجابة عن ما يختلج في نفس المخاطب إثر سماعه قوله تعالى (وصل عليهم) حيث إن فيه تلويحاً بما يستتبعُه الخطاب فقيل: (إن صلاتك سكن لهم).

٢- جعل غير المنكر كالمنكر إذا لاح عليه شيء من أمارات الإنكار. ومن ذلك قوله تعالى ﴿ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴾ المؤمنون (١٥).

فالمخاطبون بهذه الآية الكريمة لا ينكرون حقيقة الموت بالنسبة للإنسان وأنه مهما طال أجله فإن مصيره إلى الموت والفناء.

وعلى ما يقتضي الظاهر كان يجب أن يلقى الكلام إليهم خالياً من التأكيد ولكننا نرى أن الكلام خرج عن مقتضى الظاهر، والقى إليهم مؤكداً.فما هو السبب؟!.

السبب هو ظهور أمارات الانكار عليهم، فإن نسيانهم وحرصهم على الحياة، وعدم تقديمهم شيئاً لآخرتهم كل ذلك مؤشرات تدل على إنكارهم لحقيقة الموت.

من اجل ذلك نزلوا منزلة المنكرين، والقي إليهم الخبر مؤكداً بمؤكدين هما(إن)، و(لام الابتداء)[(٢)].

٣- جعل المنكر كغير المنكر إذا كان معه ما إن تأمله ارتدع عن انكاره ومعنى كونه(معه) أن يكون معلوماً له مشاهداً عنده، كما تقول لمنكر الإسلام: "الإسلام حق" من غير تأكيد، لأن مع المنكر دلائل دالة على حقية الإسلام.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ذلك الكتاب لا ريب فيه﴾ البقرة(٢) أي ليس القرآن بمظنة للريب، ولا ينبغي أن يرتاب فيه وهذا الحكم مما ينكره كثير من المخاطبين، ولكن نزل إنكارهم منزلة عدمه، نظراً لما معهم من الدلائل الدالة على أنه ليس مما ينبغي أن يُرتاب فيه[(٣)].

---

(١) تفسير ابو السعود(٢/ ٤٤٤).

(٢) عتيق، عبد العزيز(علم المعاني)، دار النهضة، بيروت طبعة ١٩٧٢، ص٦٦ وانظر الاتقان(٢/ ٦٥).

(٣) تلخيص المفتاح وشرحه مختصر المعاني ص٣٤، وانظر الاتقان (٢/ ٦٤).

٤- ومن خلاف مقتضى الظاهر تلقي المتكلم المخاطب بغير ما يترقب، بحمل كلامه على خلاف مراده تنبيهاً على أنه هو الأولى بالقصد.

ومثله أيضاً تلقي السائل بغير ما يتطلب بتنزيل سؤاله منزلة غيره، تنبيهاً على أنه الأولى بحالة أو المهم له[1].

كقوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ﴾ البقرة(١٨٩).

قال الشيخ العلامة أبو السعود/ "إنهم لما سألوا عما لا يعنيهم، ولا يتعلق بعلم النبوة فإنه عليه الصلاة والسلام مبعوث لبيان الشرائع، لا لبيان حقائق الأشياء، وتركوا السؤال عما يعنيهم، ويختص بعلم الرسالة عقب بقوله (ولكن البر من اتقى) تنبيهاً على أن اللائق بهم أن يسألوا عن أمثال ذلك، ويهتموا بالعلم بها"[2].

ومنه ايضاً قول الحق سبحانه: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾ البقرة(٢١٥).

قال ابو السعود: "ابرز في معرض بيان المصرف حيث قيل (فللوالدين والأقربين) للايذان بأن الأهم بيان المصارف المعدودة لأن الاعتداد بالانفاق بحسب وقوعه في موقعه"[3].

---

(١) تلخيص المفتاح ص ٩٠، ٩١.

(٢) تفسير ابو السعود (١/ ٢٣٩)-بتصرف يسير

(٣) نفسه (١/ ٢٥٣).

» ثامناً: متعلق[1] الخطاب القرآني

يقصد بالمتعلق الزمـان او المكان الذي وقـع فيه الفعل، والجـار والمجرور، والحال والمفعول، والاستثناء، والتمييز، وغيرهما.

وذكر الإمام عبد القاهر في دلائل الاعجاز أن بعض أهل اللغة يرون المتعلق في عُرف العربية كأنه المختص بما سوىٰ الفاعل. ويرون أن الفاعل ملابس لا متعلق[2].

ويتناول هذا المبحث المواضيع التالية:

١. أسرار حذف المفعول به في الخطاب القرآني.

٢. أسرار تقديم المفعول علىٰ فاعلة.

٣. أسـرار تقديم بعض معمولات الفعل علىٰ بعض. مع الإشـارة إلىٰ الأدب القرآني في ذلـك.

أولاً: أسرار حذف المفعول به في الخطاب القرآني

يحذف المفعول به ليؤدي حذفه الأغراض والفوائد التالية:

أ. إثبات المعنىٰ في نفسه للفاعل علىٰ الإطلاق[3]، أي مـن غير اعتبـار عمومه وخصوصه، ومن غيـر اعتبار تعلقه بمن وقـع عليه، وذلـك لئلا يتوهم السـامع أن الغرض الإخبار به باعتبـار تعلقه بالمفعول[4]. من ذلـك قوله تعالىٰ: ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ

---

(١) يرىٰ القزويني أن (متعلق) بكسر اللام اولىٰ، لأن المفاعيل وما الحق بها معمولة والفعل عامل فيها، وكون المعول لضعفه متعلقاً أنسب. انظر الايضاح في علوم البلاغة للخطيب القزويني، شرح وتعليق محمد عبد المنعم خفاجي، الطبعة، نشر مكتبة الكليات الازهرية، (٢/ ١٧٦).

(٢) الجرجاني: الامام عبدالقاهر، (دلائل الاعجاز)، دار المعرفة، بيروت، طبعة١٩٧٨، ص١١٩.

(٣) الايضاح في علوم البلاغة (٢/ ١٧٦).

(٤) بغية الايضاح (١/ ٢١٥).

مَآءَ مَدۡيَنَ وَجَدَ عَلَيۡهِ أُمَّةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسۡقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمۡرَأَتَيۡنِ تَذُودَانِۖ قَالَ مَا خَطۡبُكُمَاۖ قَالَتَا لَا نَسۡقِي حَتَّىٰ يُصۡدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ وَأَبُونَا شَيۡخٞ كَبِيرٞ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا﴾ القصص(٢٣، ٢٤) حيث نلاحظ هنا حذف المفعول به في أربعة مواضع وهي مفعول (يسقون)، ومفعول (تذودان)، ومفعول(نسقى) ومفعول (فسقى). ولنستمع إلى ما يقوله الإمام الزمخشري حول الغرض من حذفه: "فإن قلت لم ترك المفعول غير مذكور في قوله يسقون، وتذودان ولا نسقى؟ قلت: لأن الغرض هو الفعل لا المفعول. الا ترى أنه – يعني سيدنا موسى عليه السلام– رحمهما لأنهما كانتا على الذياد، وهم على السقي، ولم يرحمهما لأن مذودهما غنم، ومسقيهم أبل مثلاً؟

وكذلك قولهما(لا نسقي) المقصود فيه السقي لا المسقى"(١). فالضابط في حذف المفعول أن تتوفر العناية على اثبات الفعل لا على أن يعلم المفعول(٢).

قال الامام عبد القاهر حول موضوع حذف المفعول به في هاتين الآيتين: "وإذا أردت أن تزداد تبياناً لهذا الأصل أعني وجوب إسقاط المفعول لتتوفر العناية على ثبات الفعل لفاعله، ولا يدخلها شوب فأنظر إلى قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدۡيَنَ وَجَدَ عَلَيۡهِ أُمَّةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسۡقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمۡرَأَتَيۡنِ تَذُودَانِۖ قَالَ مَا خَطۡبُكُمَاۖ قَالَتَا لَا نَسۡقِي حَتَّىٰ يُصۡدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ وَأَبُونَا شَيۡخٞ كَبِيرٞ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا﴾(٣). القصص(٢٢، ٢٣).

ومنه قوله تعالى: ﴿قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ﴾ الزمر(٩).

فالمعنى: هل يستوي من لهم علم ومن لا علم لهم؟! بغض النظر عن المعلوم

---

(١) الزمخشري، جار الله محمود بن عمر،الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، دار المعرفة بيروت، (٣/ ١٧٠).

(٢) انظر، محمد الرازي بن عمر بن الحسين بن علي،نهاية الايجاز في دراية الإعجاز، تحقيق ودراسة الدكتور بكري شيخ أمين، بيروت، دار العلم للملايين، الطبعة الأولى، ٢٩٨٥، ص٣٤٠.

(٣) دلائل الاعجاز ص١٢٤.

أيا كان نوعه، فحذف المفعول هنا لأن المقصد إثبات المعنى للفاعل من غير اعتبار تعلقه بالمفعول.

ب. تحقيق البيان بعد الابهام، وذلك لتقرير المعنى في النفس[(١)] ويكثر ذلك في فعل المشيئة أو الإرادة أو نحوهما، فإذا وقع فعل شرط فإن الجواب يدل عليه ويبينه، مثال ذلك قوله تعالى: ﴿ولو شاء ما اقتتلوا﴾ البقرة(٢٥٣). أي ولو شاء الله عدم اقتتالهم ما اقتتلوا. فإنه لما قيل ﴿ولو شاء الله﴾ علم السامع أن هناك شيئاً تعلقت المشيئة الإلهية به، لكنه خفي مبهم، فلما جيء بجواب الشرط صار بيناً واضحاً يقع في النفس، فهو إضمار على شريطة التفسير كما يسميه الإمام عبد القاهر الجرجاني[(٢)].

قال الإمام الزمخشري عند قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَـٰرِهِمْ﴾ البقرة(٢٠).

"ومفعول شاء محذوف لأن الجواب يدل عليه، والمعنى ولو شاء الله أن يذهب بسمعهم وأبصارهم لذهب بها. ولقد تكاثر هذا الحذف في شاء وأراد"[(٣)].

يقول الزركشي: "والحكمة في كثرة حذف مفعول المشيئة المستلزمة لمضمون الجواب لا يمكن إلا أن تكون مثيلة الجواب، لذلك كانت الإرادة كالمشيئة في جواز اطراد حذف مفعولها"[(٤)].

وقد يذكر مفعول الإرادة والمشيئة إذا كان هذا المفعول أمراً مستغرباً[(٥)].

---

(١) علم المعاني ص١٤٣.
(٢) انظر دلائل الإعجاز ص١٢٤.
(٣) الكشاف(١/ ٢٢١).
(٤) البرهان(٣/ ١٦٨).
(٥) عباس. د. فضل حسن، البلاغة فنونها وافنانها علم المعاني، دار الفرقان، الطبعة الثانية، ص٢٨٦، وانظر دلائل الإعجاز ص١٢٧.

كما في قوله تعالى: ﴿لو أردنا ان نتخذ لهوا لا تخذناه من لدنا إن كنا فاعلين﴾ الأنبياء(١٧). فالمفعول هنا هو(أن والفعل)وأنه لا أمر أكثر غرابة من أن يتخذ الله لهواً.

قال الزمخشري: "لا يكادون يبرزون مفعول شاء وأراد الا في الشيء المستغرب"[١] ومثل على ذلك بالآية السابقة، وبقوله سبحانه: ﴿ولو اراد الله أن يتخذ ولداً لاصطفى مما يخلق ما يشاء سبحانه﴾ الزمر(٤).

ونحن في مخاطبتنا العادية نقول في الأمر الذي لا غرابة فيه مثلاً: لو شئت لقرأت الفاتحة، ولو أردت لاشتريت الدواء.

ولكن عندما يكون الأمر غريباً غير معتاد فإننا نذكر المفعول،من ذلك قولنا مثلاً: لو شئت أن أحفظ صحيح البخاري لحفظته[٢].

جـ- ومن فوائد حذف المفعول إفادة التعميم مع الاختصار مثال ذلك/ قوله تعالى: (والله يدعو إلى دار السلام) يونس(٢٥).

قال صاحب الكشاف: المعنى يدعو العباد كلهم[٣]. وقد كان من الممكن أن يقال: (والله يدعو جميع عباده إلى دار السلام). ولكن تفوت بذلك مزية الاختصار.

ويرى التفتازاني أن الحذف للتعميم مع الاختصار إن لم تكن فيه قرينة دالة على أن المقدر عام فلا تعميم أصلاً والا فالتعميم مستفاد من عموم المقدر سواء أحذف أو لم يحذف، فالحذف لا يكون الا لمجرد الاختصار[٤].

د. ومن أغراض حذف المفعول:المبالغة بترك التقييد ويقصد به ترك الفعل بمفعول

---

(١) تفسير الكشاف(١/ ٢٢١).

(٢) البلاغة وفنونها وأفنانها/ علم المعاني ص٢٨٧.

(٣) انظر الكشاف (٢/ ٢٣٣) ومفتاح العلوم ص٢٢٨.

(٤) مختصر المعاني على حاشية تلخيص المفتاح ص١٢٦.

معين من ذلك قوله تعالى: ﴿هو يحيي ويميت﴾ يونس(٥٦) فهو أبلغ وقعا في الدلالة على معناه من قوله (هو يحي الناس ويميتهم) مثلاً: ومنه قوله تعالى: ﴿فهم لا يبصرون﴾ يس(٩) قال الزركشي: نفي الفعل غير متعلق (يعني بالمفعول) أبلغ من نفيه متعلقاً به؛ لأن المنفي في الأول نفس الفعل، وفي الثاني متعلقة[(١)].

هـ- تعظيم شأن المفعول فقد لا يوقع الفعل على المفعول صراحة تعظيماً لشأنه ويرى استاذنا الدكتور فضل حسن عباس أن من أمثلة تقديم المفعول تعظيماً لشأنه واهتماماً به[(٢)] قوله تعالى: ﴿خذوه فغلوه ثم الجحيم صلوه﴾ الحاقة (٣١،٣٠).

وقوله ﴿ونوحاً هدينا من قبل﴾ الانعام(٨٤) وقوله سبحانه ﴿والقمر قدرناه منازل﴾ يس(٣٩).

في حين يرى عبد العزيز عتيق أن التقديم في قوله تعالى ﴿والقمر قدرناه..﴾ من باب مراعاة نظم الكلام، وأنه لو قال: وقدرنا القمر منازل لما كان في تلك الصورة من الحسن[(٣)]. وهو قول لا نرجحه ولا نميل إليه ونرى أن موضوع مراعاة النظم لن يستقل بتقديم أو تأخير أو ذكر أو حذف وإنما (إن كان ذلك) فلا بد أن يكون تابعاً لمعنى أراده القرآن الكريم[(٤)].

ثانياً: أسرار تقديم المفعول على فاعله.

١- غالباً ما يكون تقديم المفعول وغيره من المتعلقات للتخصيص[(٥)] كما في قوله تعالى: ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ الفاتحة(٥) أي نخصك بالعبادة فلا نعبد

---

(١) البرهان في علوم القرآن (٣/ ١٧٨).

(٢) نفسه ص٢٣

(٣) علم المعاني لعبد العزيز عتيق ص١٥٧.

(٤) انظر البلاغة فنونها وأفنانها ص٢٦٣.

(٥) انظر البرهان(٣/ ٢٣٦)، والكشاف (١/ ٦١)، وتلخيص المفتاح ص١٢٨.

غيرك ومثله قول الحق سبحانه ﴿إن كنتم إياه تعبدون﴾ البقرة(١٧٢) أي إن كنتم تخصونه بالعبادة وقوله سبحانه ﴿بل الله فاعبد﴾ الزمر(٦٦) وقوله تعالى: ﴿وربك فكبر﴾ المدثر(٣).

ونقل عبد العزيز عتيق عن ابن الأثير أن تقديم المفعول يكون لأمرين أحدهما: الاختصاص، والآخر: مراعاة النظم[1]. ولا أدري لماذا يصر الأستاذ عبد العزيز عتيق على هذا ويردده في كتابه علماً بأن مثل هذا التوجيه يشبه القول بوجود السجع في القرآن،وهو ما ننزه ساحة الذكر الحكيم عنه ونبرؤها منه.

٢- وقد يقدم المفعول للعناية به والاهتمام بشأنه: كقوله تعالى: فإما اليتيم فلا تقهر، وأما السائل فلا تنهر وأما بنعمة ربك فحدث"الضحى(٩،١٠).

يرى عبد العزيز عتيق أن التقديم هنا بغرض حسن النظم السجعي[2].

وقال الألوسي في تفسيره:

(وحذف المفعول في الأفعال الثلاثة لظهور المراد مع رعاية الفواصل،وقيل ليدل على سعة الكرم)[3] ولم يتعرض لسر تقديم المفعول.

ثالثاً: أسرار تقديم بعض المعمولات على بعض

التقديم والتأخير أحد أساليب البلاغة عند العرب، وقد أتوا به دلالة على تمكنهم في الفصاحة وملكتهم في الكلام، وانقياده لهم، وله في القلوب أحسن موقع، وأعذب مذاق[4].

---

(١) انظر علم المعاني ص١٥٦.

(٢) نفسه ص١٥٧.

(٣) تفسير روح المعاني(٣٠/ ١٦٣).

(٤) البرهان (٣/ ٢٣٣)

ومن أسرار تقديم بعض المعمولات على بعض ما يلي:

١- أن يكون في التأخير إخلال ببيان المعنى من ذلك قوله تعالى: ﴿**وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه**﴾ غافر (٢٨) فإنه لو أخر قوله (من آل فرعون) لم يفهم أنه منهم[(١)].

قال التفتازاني: "والحاصل أنه ذكر لـ(رجل) ثلاثة أوصاف: قدم الأول -أعني مؤمن- لكونه أشرف ثم الثاني وهو - من آل فرعون- لئلا يتوهم خلاف المقصود، او لأن في التأخير اخلالاً بالتناسب كرعاية الفاصلة نحو ﴿**فأوجس في نفسه خيفة موسى**﴾ بتقديم الجار والمجرور، والمفعول على الفاعل لأن فواصل لآي على الألف"[(٢)]. وقد سبق ذكر ما نرجحه في موضوع (رعاية الفاصلة)[(٣)].

٢- عظمة الاهتمام بالمقدم. كما في قوله تعالى: ﴿**رأيتهم لي ساجدين**﴾ يوسف(٤) قال ابو السعود: (تقديم الجار والمجرور هنا لاظهار العناية والاهتمام بما هو الأهم، مع ما في ضمنه من رعاية الفاصلة[(٤)]. ومنه قوله تعالى: ﴿**واقيموا الصلاة وأتوا الزكاة**﴾ البقرة(٤٣) فبدأ بالصلاة لأنها أهم. وفي قوله ﴿**إياك نعبد، وإياك نستعين**﴾ الفاتحة(٥).قدّم العبادة للاهتمام بها ولأن تقديم القربة والوسيلة قبل طلب الحاجة أنجح لحصول الطلب، وأسرع لوقوع الإجابة[(٥)].

ومنه تقدير المحذوف في ﴿**بسم الله الرحمن الرحيم**﴾ مؤخراً أي باسم الله ابدأ[(٦)] لا باسم غيره ليفيد مع الاختصاص الاهتمام، لأن المشركين كانوا يبدأون

---

(١) انظر ص١٧٨ من هذه الرسالة.

(٢) مختصر المعاني بحاشية تلخيص المفتاح ص١٣١.

(٣) انظر ص٥٩ من هذه الرسالة.

(٤) تفسير أبو السعود ٣/ ٧٩.

(٥) البرهان ٣/ ٢٣٥، وانظر علم المعاني لعبد العزيز عتيق، ص١٥٨.

(٦) انظر تلخيص المفتاح ص١٢٩.

بأسماء آلهتهم فيقولون باسم اللات والعزىٰ، فقصد الموحد تخصيص اسم الله بالابتداء للاهتمام والرد عليهم[١].

أما في قوله تعالىٰ ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق﴾ العلق(١) فقد تأخر الجار والمجرور عن القراءة، حيث إنها أول آية نزلت فكانت القراءة هي المقصود الأول[٢]. ويرىٰ السكاكي أن معنىٰ (اقرأ) هنا أفعل القراءة وأوجدها، وأن (باسم ربك) مفعول(اقرأ) الذي بعده[٣].

٣- أن يكون الخاطر ملتفتاً إليه، والهمة معقودةً به.من ذلك قوله تعالىٰ: ﴿وجعلوا لله شركاء﴾ الأنعام(١٠٠) حيث تقدم المجرور علىٰ المفعول الأول لأن الانكار متوجه إلىٰ الجعل لله، لا إلىٰ مطلق الجعل[٤].

٤- التقديم بقصد التبكيت والتعجيب من حال المذكور.مثال ذلك/ تقديم المفعول الثاني علىٰ الأول في قوله تعالىٰ ﴿وجعلوا لله شركاء الجن﴾ الأنعام (١٠٠) والأصل أن يقال (الجن شركاء) وقدم لأن المقصود التوبيخ[٥].

ولو تقدم المفعول الأول لكانت الشركة مقيدة غير مطلقة فكأن الانكار توجه لجعل المشاركة للجن خاصة، وهو خلاف مقصد الآية التي تنفي الشريك عن المولىٰ سبحانه أياً كان سواء من الجن أو من غيرهم[٦].

ومنه قوله تعالىٰ: ﴿ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ يس(٢٠).

---

(١) انظر الكشاف١/ ٢٩ وانظر مفتاح العلوم ص٢٣٥.

(٢) انظر البلاغة فنونها وافنانها / علم المعاني، ص٢٣٨.

(٣) انظر مفتاح العلوم ص٢٣٦.

(٤) البرهان(٣/ ٢٤٦).

(٥) نفسه(٣/ ٢٣٦).

(٦) انظر نهاية الايجاز في دراية الإعجاز ص٣١٥.

حيث تقدم المجرور تبكيتاً لهم، وإشارة إلى أن البعيد عما شاهدوه ينصح لهم ما لم ينصحوه هم لأنفسهم[(١)].

وقد تقدم على المجرور في الآيات الكريمة ما يشير إلى سوء معاملة أهل القرية للرسل، وأصرارهم على التكذيب، فكان ذلك مظنة أن يلعن السامع تلك القرية، ويبقى مجيلاً فكرة في معرفة أكانت القرية كلها كذلك أم أن فيها منبت خير في دان أو قاصٍ؟ ![(٢)] كما أن في تقديم الجار والمجرور هنا بيان لفضل هذا الرجل إذا هداه الله تعالى مع بعده عنهم وإن بعده لم يمنعه عن ذلك[(٣)]. قلت ولعل في تقديم (رجل) في سورة القصص عند قوله سبحانه "وجاء رجلُ من أقصى المدينة يسعى"القصص(١٠) ما يشير إلى موقف الرجولة الذي وقفه هذا الذي جاء يسعى في ظل الإرهاب والتقتيل الذي كان يمارسه فرعون وأشياعه، حيث استهان بكل ذلك في سبيل أن ينجو موسى عليه السلام من أذاهم.

٥- ومن أسرار تقديم بعض المعمولات على بعض كون المقدم محط الإنكار والتعجب كما في قوله سبحانه ﴿أراغب أنت عن الهتي يا ابراهيم﴾ مريم(٤٦).

فقدم خبر المبتدأ في قوله (أرغب أنت) وذلك لأهمية المتقدم وشدة العناية به، وفي ذلك ضرب من التعجب والانكار لرغبة إبراهيم عن الهته، وكأن ألهته لا ينبغي أن يُرغب عنها[(٤)].

رابعا: تقديم الظرف: ذكر الامام الزركشي لتقديم الظرف حالين[(٥)].

أولاهما: تقديم الظرف في الاثبات: حيث يدل تقديمه على الاختصاص كقوله

(١) بغية الايضاح (١/ ٢١٥).

(٢) البرهان(٣/ ٢٨٤) بتصرف قليل، وانظر مفتاح العلوم ص٢٣٨.

(٣) تفسير الالوسي(٢/ ١٢٧).

(٤) انظر تفسير ابو السعود(٣/ ٤٢٩) وعلم المعاني لعبد العزيز عتيق ص١٥٠.

(٥) انظر البرهان(٣/ ٢٣٧).

تعالىٰ ﴿لإلى الله تحشرون﴾ آل عمران(١٥٨) أي لا غيره. وقوله ﴿له الملك وله الحمد﴾ التغابن(١) حيث يفيد ذلك اختصاص المولىٰ بالملك واختصاصه بالحمد.وفي قوله تعالىٰ ﴿لِتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ البقرة(١٤٣).

أخّرت صلة الشهادة في الأول، وقدمت في الثاني لأن الغرض في الأول اثبات شهادتهم على الأمم، وفي الثاني اختصاصهم بكون الرسول شاهداً عليهم.

قال ابو السعود عند قوله تعالىٰ ﴿ويكون الرسول عليكم شهيداً﴾ "وتقديم الظرف للدلالة على الاختصاص شهادته عليه السلام بهم"[(١)].

أما الثاني: إذا كان تقديم الظرف في حال النفي فإن هذا التقديم يدل على تفضيل المنفي عنه:كما في قوله تعالىٰ: ﴿لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون﴾ الصافات(٤٧) أي أنه ليس في خمرة الجنة ما في غيرها من الغول.

أما تأخير الظرف في النفي فيفيد النفي فقط كما في قول الحق سبحانه ﴿لا ريب فيه﴾ البقرة(٢)، ويمتنع تقديم الظرف على الاسم لأنه إذا قُدم أفاد تخصيص نفي الريب بالقرآن، واثبات الريب فيما عداه من الكتب ولتوضيح ذلك: نقول مثلاً:"لا عيب في الدار"كان معناه أنها تفضل غيرها في عدم العيب، فكأننا هنا نفينا العيب في الدار، وأثبتناه في غيرها[(٢)].

هذا وقد أفاض العلامة الزركشي في كتابه (البرهان في علوم القرآن) في الحديث عن التقديم والتأخير، أسبابه وأنواعه، فأحيل عليه من يطلب المزيد[(٣)].

---

(١) تفسير ابو السعود(١/ ٢٠٥).

(٢) انظر البرهان(٣/ ٢٣٧) ولمزيد من فقه هذه المسألة أنصح بالرجوع إلى كتاب دلائل الأعجاز للأمام الجرجاني مبحث التقديم والتأخير مع النفي ص٩٦. وانظر مفتاح العلوم ص٢٣٥.

(٣) انظر (٣/ ٢٣٢) وما بعدها.

» فائدة في ذكر المتعلقات

ذكر استاذنا الدكتور فضل حسن عباس في كتابه (البلاغة فنونها وأفنانها)[١] أن دواعي ذكر متعلقات الفعل يكون عندما يستدعي المقام ذكرها: تذكرة، أو تحسراً أو الهاباً، أو غير ذلك من المقامات المتعددة، والتي منها زيادة التقرير، وتثبيت الشيء في النفوس، والتنصيص على علة الشيء أو سببه.

من ذلك قوله تعالى: ﴿**وبالحق انزلناه وبالحق نزل**﴾ الاسراء(١٠٥) فذكر المتعلق هنا وهو الجار والمجرور إنما جاء لزيادة التقرير والفائدة.

وقوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ ﴾ العنكبوت (١٠) حيث ذكر اسم الله سبحانه ثلاث مرات لأن المقام مقام تحذير وفيه تربية للمؤمنين، وامداد لهم بالتثبيت والصبر.

وقوله تعالى: ﴿**ربنا عليك توكلنا واليك أنبنا، واليك المصير**﴾ المتحنة(٤). حيث المقام هنا مقام بسط، تجمل فيه الإطالة، وفيه من التضرُّع والدعاء ما يلتذ ويخشع له الداعي.

» تاسعاً: عناية القرآن الكريم بأدب الخطاب

دعا القرآن الكريم إلى التأدب في الخطاب على نحو يحقق الهدف الكريم الذي نزل من أجله هذا الذكر الحكيم، فقال سبحانه ﴿**وقولوا للناس حسناً**﴾ البقرة(٨٣) وقال: ﴿**وقل لعبادي يقولوا التي هي أحسن**﴾ الإسراء(٥٣) وقال تبارك وتعالى: ﴿**وقال لهما قولاً كريماً**﴾ الإسراء (٢٣).

ومعلوم أن الصدر ينشرح للكلمة الطيبة المؤدبه الدافئة، وينكمش ويضيق بالكلمة الفظة القاسية.

---

(١) انظر ص٢٥٥.

وهذه الدعوة القرآنية المباركة عامة شاملة؛ فالمسلم مدعو للتأدب في مخاطبة سيده ومولاه سبحانه ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ الاعراف (١٨٠).

قال الالوسي: "الاسماء الحسنىٰ هي التي تنبيء عند أحسن المعاني وأشرفها"(١).
والمسلم مدعو أيضاً للتأدب مع نبيه عليه السلام، فقال سبحانه ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ﴾ النور(٦٣).

ومدعو للتأدب في مخاطبة الناس أجمعين، مؤمنهم وكافرهم ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ طه(٤٤).

ويتأكد جانب الأدب في حق الدعاة إلىٰ الله تأليفاً لقلوب الناس واستنزالاً لهم، وتليينا لمواقفهم ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ﴾ آل عمران(١٥٩).

ويحسن الأدب في الاعتذار عن تأدية حقوق ذوي القربىٰ والمساكين وابناء السبيل جبراً لخاطرهم، يقول الحق سبحانه: ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا﴾ الاسراء (٢٨) قال القرطبي: "ميسوراً: أي ليناً لطيفاً طيباً"(٢).

وقد نهىٰ القرآن الكريم عن الجهر بالسوء من القول خاصة في مخاطبة الوالدين ﴿فلا تقل لهما آف ولا تنهرهما﴾ الإسراء(٢٣) وفي الرد علىٰ جهل الجاهلين ﴿وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما﴾ الفرقان(٦٣) وليس في ذلك من حرج، فكل ينفق مما عنده فبضاعة الجاهل الجهل وبضاعة العارف العلم والحلم.

ودعا القرآن الكريم إلىٰ مخالفة غير المسلمين، وعدم التأثر بأساليب خطاباتهم أو ترديد بعض كلماتهم التي يفهم منها سوء الخطاب. من ذلك قوله تعالىٰ ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقُولُوا۟ رَٰعِنَا وَقُولُوا۟ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُوا۟ ۗ﴾ البقرة(١٠٤).

---

(١) انظر روح المعاني (٩/ ١٢٠)

(٢) تفسير الجامع لأحكام القرآن(١٠/ ٢٤٩)

ولكي يتحصل المسلم على الأدب المطلوب في المخاطبة يحسن به الا يتعجل في كلامه، وألا يندفع فيخرج من فمه كلام غير محكوم بضوابط العقل وموازين الشرع فيكون بذلك شبيهاً لمن قال الله سبحانه فيهم: ﴿وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَانَكَ هَٰذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾ النور(١٥).

والكلمة الطيبة لها أجر كبير، وثواب جزيل في حين أن الكلمة الخبيثة ذات خطر عظيم على صاحبها، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله تعالى، لا يلقي لها بالاً يرفعه الله بها درجات في الجنة، وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله تعالى لا يلقي لها بالاً يهوي بها في جنهم"(١).

وقد ذكر المولى سبحانه بالرضى والقبول مقولة اولئك الذين قالوا إنا نصارى وبين أن لهم العاقبة الحسنة فقال سبحانه: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾﴾ المائدة(٨٢،٨٥).

مثلما ذكر، مقولة اولئك ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ آل عمران(١٧٣).

---

(١) أخرجه البخاري عن ابي هريرة، كتاب الرقاق، باب حفظ اللسان انظر فتح الباري، تحقيق الاستاذ عبد العزيز باز، ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي، اشراف وتصحيح محب الدين الخطيب، دار المعرفة، بيروت، (١١/٣٠٨).

وبين ثوابهم على هذه الكلمات الطيبات النابعة من إيمانهم ويقينهم بما عند الله: **﴿فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء، واتبعوا رضوان الله، والله ذو فضل عظيم﴾** آل عمران(١٧٤).

» عاشراً: الجهر بالسوء من القول واضراره

نهى المولى سبحانه عن الجهر بالسوء من القول فقال **﴿لا يحب الله الجهر بالسوء من القول الا من ظلم﴾** النساء (١٤٨) وذلك لأن في الجهر بذكر العيوب والسيئات مفاسد كبيرة، فهو مجلبة للعداوة والبغضاء بين من يجهرون بالسوء، ومن ينسب إليهم هذا السوء وقد تفضي العداوة إلى هضم الحقوق وسفك الدماء.

وللجهر بالسوء تأثير ضار في نفوس السامعين، فالناس يتأثر بعضهم ببعض، ويقلد بعضهم بعضاً، خاصة الأحداث الذين لا يزال سلوكهم الاجتماعي في مرحلة البناء والتشكل. والذي تميل نفسه إلى منكر أو فاحشة يتجرأ على ارتكابه إذا علم أن له سلفاً وقدوة فيه.

"وسماع السوء كعمل السوء، ذلك يؤثر في نفس السامع، وهذا يؤثر في نفس الناظر، وأقل التأثير أنه يضعف في النفس استبشاعه والنفور منه، والتحفز ضده، خاصة إذا تكرر سماع خبره أو النظر إليه"[(١)].

وبسبب الجهل في مبلغ أثر الكلمة السيئة في قلوب الناس لا يتنزه الكثيرون عن قول السوء أو سماعه، وهذا يؤكد حاجة الناس إلى من يوجههم إلى أدب الخطاب ويعرفهم بأثره وفضله.

قال الفخر الرازي: "والله سبحانه لا يحب الجهر بالسوء من القول ولا الإسرار به، ولكن النص جاء على الجهر بسبب أن كيفيته الواقعة أو جبت ذلك،

---

(١) رضا، محمد رشيد، تفسير المنار، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الثانية، (٦/ ٣).

كقوله تعالى: ﴿إذا ضربتم في سبيل الله فتبينوا﴾ النساء(٩٤) والتبين واجب في الظعن والإقامة فكذا ههنا[١]".

"وتحذر الآية الكريمة التي تنهي عن الجهر بالسوء تحذر من التعدي في الجهر المأذون به، حيث ختمت بقوله سبحانه ﴿وكان لله سميعاً عليماً﴾ فهي تذكير للمظلوم بأن يتقي ربه، ولا يقول الا الحق ولا يقذف مستوراً بسوء فأنه يصير عاصياً لله بذلك"[٢].

والجهر بالسوء من القول يدمر الثقة المتبادلة في المجتمع فيخيل للناس أن الشر قد صار غالباً، فيصبح الجهر به مألوفاً، ويسقط الحياء النفسي والاجتماعي الذي يمنع الألسنة من النطق بالقبيح.

وفي بيان منهج الإسلام في هذا الموضوع يقول الأستاذ الشهيد سيد قطب رحمه الله: "إن الإسلام يحمي سمعة الناس- ما لم يظلموا - فإذا ظلموا لم يستحقوا هذه الحماية، وأذن للمظلوم أن يجهر بكلمة السوء في ظالمه وهذا هو الاستثناء الوحيد في كف الالسنة عن كلمة السوء.

وهكذا يوفق الإسلام بين حرصه على العدل الذي لا يطيق معه الظلم، وحرصه على الأخلاق الذي لا يطيق معه خدشاً للحياء النفسي والاجتماعي[٣]

****

(١) تفسير الفخر الرازي(١١/ ٩١).

(٢) نفسه ص٩٢.

(٣) سيد قطب، في ظلال القرآن، دار احياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الخامسة، (٢/ ٥٧٨).

الفصل الأول

أدب خطاب المولى سبحانه للعباد

مقدمة

القرآن الكريم هو خطاب المولىٰ سبحانه لعباده أجمعين وهو ينبوع الأدب، ومعين الحكمة. وبقدر ما نتدراسه ونتدبره بقدر ما نستفيد من كنوزه، وآدابه وخيراته، وبقدر ما ينالنا من أنواره وبركاته.

وعندما كان هذا الكتاب يعمل في حياة المسلمين كانت حياتهم أبهىٰ وأنضر، وكان حظ مجالسهم من التعلم والتعليم والتبصر أكثر وأوفر.

ويترحم الإنسان علىٰ أيام زاهية مضت علىٰ هذه الأمة عندما كانت مجالس العلماء والأمراء والخلفاء طافحة بالبركات والخيرات، والأنوار والمسرات، لم ينل زماننا منها الا شذرات توشك أن تكون بروقاً في ليل مظلم بهيم، لكنها تحمل في طياتها تباشير الأمل بعودة حميدة إلىٰ تلك السنين الخوالي، والايام الخوالي. والأمل بالله كبير، وهو سبحانه بالإجابة جدير.

اللهم هيء لنا من أمرنا رشداً، واجعل اللهم كتابك الكريم وقرآنك العظيم ربيع قلوبنا ونور صدورنا، وجلاء أحزاننا.

وفي بيان طرف من هذا الأدب القرآني الرفيع في مخاطبة المولىٰ سبحانه لعباده رأيت أن يتضمن هذا الفصل المباحث التالية:

١. أدب مخاطبة النبي صلىٰ الله عليه وسلم.

٢. أدب مخاطبة المؤمنين.

٣. أدب مخاطبة أهل الكتاب.

٤. أدب مخاطبة العامة.

٥. أدب مخاطبة الكافرين.

» اولاً: أدب مخاطبة النبي ﷺ

تميز الخطاب القرآني للنبي صلى الله عليه وسلم بمميزات كثيرة عمن سواه إشارة إلى علّو مقامه ورفعه شأنه أذكر منها:

١. خاطبه المولى سبحانه بالنبوة والرسالة، وخاطب الأنبياء بأسمائهم[١] فقال سبحانه وتعالى ﴿يا ايها النبي﴾ الاحزاب(١). و﴿يا ايها الرسول﴾ المائدة(٦٧) ولم يخاطبه مرة واحدة باسمه كما خاطب غيره من أنبياء الله عليهم السلام.

قال الزمخشري: (ترك نداءه باسمه كما قال (يا آدم)، (يا موسى)، (يا داود) كرامة له وتشريفاً، ورباً بمحله وتنويهاً بفضله، فإن قلت: إن لم يوقع اسمه بالنداء فقد أوقعه بالاخبار في قوله ﴿وما محمد الا رسول﴾ آل عمران(١٤٤).وقوله ﴿محمد رسول الله﴾ الفتح(٢٩) قلتُ: ذلك لتعليم الناس أنه رسول، وتلقين لهم أن يسموه بذلك ويدعوه به، فلا تفاوت بين النداء والاخبار، ألا ترى إلى ما لم يقصد به التعلم والتلقين من الأخبار كيف ذكره بنحو ما ذكره في النداء؟

﴿لقد جاءكم رسول الله من أنفسكم﴾ التوبة(١٢٨)، ﴿وقال الرسول يا رب﴾ الفرقان(٣٠) ﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة﴾ الاحزاب(٢١)، ﴿والله ورسوله أحق أن يرضوه﴾ التوبة(٦٢) ﴿النبي اولى بالمؤمنين من أنفسهم﴾ الاحزاب(٦)، ﴿إن الله وملائكته يصلون على النبي﴾ الاحزاب(٥٦)[٢].

وقال ابو السعود: (نودي عليه السلام بعنوان الرسالة تشريفاً له)[٣].وقال: (في ندائه

---

(١) القاضي عياض، او الفضل عياض بن موسى بن عياض اليحصبي، الشفاء بتعريف حقوق المصطفى، تحقيق علي محمد البجاوي، طبعة دار الكتاب العربي، ١٩٨٤، بيروت، (١/ ٦٢).وانظر (١/ ٦١).

(٢) الكشاف (٣/ ٢٤٨).

(٣) تفسير ابو السعود(٢/ ٦٨)وانظر(٢/ ٤٠).

عليه السلام بعنون النبوة تنويه بشأنه، وتنبيه على سمو مكانه)[١].

ومعلوم فضل النبوة والرسالة على ما عداها من الاسماء والألقاب والكنى التي يشترك فيها الكثير من الناس، لكن النبوة والرسالة شرف رباني يصطفى به الله من يشاء من عباده.

٢. بعثهُ آخر الأنبياء، وذكره أولهم فقال سبحانه: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ الاحزاب(٧).

وقال الامام الشوكاني: "وتقديم ذكر نبينا عليه الصلاة والسلام مع تأخر زمانه، فيه من التشريف، والتعظيم ما لا يخفى"[٢].

وقال الإمام القرطبي: "وفي هذه الآية يعني قوله تعالى(إنا أوحينا اليك..) تنبيه على قدر نبينا عليه السلام، وشرفه، حيث قدمه في الذكر على أنبيائه، ومثله قوله تعالى: (وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم..)"[٣].

٣. أخبر سبحانه عن رفعه العذاب بسببه صلى الله عليه وسلم فقال: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ الانفال (٣٣).

قال الرازي: "إن الكفار لما بالغوا وقالوا: **﴿اللَّهُمَّ إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء﴾** ذكر الله تعالى أن محمداً وإن كان محقاً في قوله الا أنه مع ذلك لا يمطر الحجارة على أعدائه وعلى منكري النبوة ليبين أنه عليه السلام ما دام حاضراً معهم فإنه تعالى لا يفعل بهم ذلك تعظيماً له"[٤].

---

(١) نفسه (٤/ ٣٠٦).

(٢) تفسير فتح القدير للأمام الشوكاني، (٤/ ٢٦٥).

(٣) الجامع لاحكام القرآن(٦/ ١٦).

(٤) تفسير الفخر الرازي(٨/ ١٦٣).

٤. أقسم الله سبحانه وتعالى بحياته صلى الله عليه وسلم فقال: ﴿**لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون**﴾ الحجر(٧٢) ليعرف الناس عظمته عند الله، ومكانته لديه(١)، وهي لا شك حياة مباركة تستحق أن يقسم بها رب العزة، سعدت فيها الإنسانية بانوار الرسالة وبركات الوحي، وهدايات السماء، وقبسات النبوة.

وقد ذكر الفخر الرازي قولين لأهل العلم في قوله تعالى(لعمرك):

- **أحدهما**: أنه خطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وأنه تعالى أقسم بحياته وما أقسم بحياة أحد سواه، ودل ذلك على أنه اكرم الخلق على الله تعالى(٢).

ونقل القرطبي عن القاضي أبي بكر بن العربي والقاضي عياض اجماع أهل التفسير على أنه سبحانه أقسم بحياة محمد صلى الله عليه وسلم تشريفاً له(٣).

٥. قرن الله سبحانه ذكره بذكره صلى الله عليه وسلم، ورضاه برضاه فقال تبارك وتعالى: ﴿**والله ورسوله أحق أن يرضوه**﴾ التوبة(٦٢).

وذكر القرطبي أن الربيع به خيثم إذا مرَّ بهذه الآية وقف ثم يقول: حرف وأيما حرف، فوض اليه فلا يأمرنا إلا بخير(٤).

وقال سبحانه ﴿**إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله**﴾ وفي ذلك إشارة إلى عظمة المبايع صلى الله عليه وسلم(٥).

٦. عجّل له المسرة فأعلمه بما أعطاه، حيث قال سبحانه: ﴿**إنا اعطيناك الكوثر**﴾. الكوثر (١). وقال: ﴿**ولسوف يعطيك ربك فترضى**﴾ الضحى(٥).

---

(١) الاتقان(٢/ ١٣٤).

(٢) تفسير الفخر الرازي(١٠/ ٢٠٧).

(٣) الجامع لاحكام القرآن (١٠/ ٣٩)

(٤) الجامع لاحكام القرآن (٨/ ١٩٤).

(٥) الشفاء بتعريف حقوق المصطفى(١/ ٧٠).

"وعبّر (بالاعطاء) دون الايتاء مـع أن الايتاء أقوىٰ من الأعطاء فـي اثبات مفعوله لأن النبي صلىٰ الله عليه وسـلم وأمته يردون علـىٰ الحوض ورود النازل علـىٰ الماء ويرتحلون إلىٰ منـازل العز، والانهـار الجارية في الجنـان والحوض للنبـي صلىٰ الله عليه وسـلم عند عطش الاكباد قبل الوصول إلىٰ المقام الكريم فقال: ﴿إن اعطيناك﴾[١].

وقال تعالىٰ ﴿ولسـوف يعطيك ربك فترضى﴾ ولـم يقل يؤتيك ربك لأنـه تعالىٰ بعدما يرضي النبي صلىٰ الله عليه وسـلم يزيـده، وينتقل به من كل الرضا إلـىٰ أعظم ما كان يرجو منه، لا بل حال أمته كذلك.

فقوله سبحانه ﴿ولسوف يعطيك ربك﴾ فيه بشارة بتعدد مراتب الإكرام الإلهي له صلىٰ الله عليه وسلم[٢].

قال الفخـر الرازي مُبينا سـر اختيـار (اعطينـاك) علىٰ (آتينـاك) "إن الايتـاء يحتمل أن يكون واجباً، وأن يكون تفضلاً أما العطاء فإنه بالتفضل أشبه.

وإن ما يكون بسبب الاستحقاق فإنه يتقدر بقدر الاستحقاق. وفعل العبد متناه، فيكون الاستحقاق الحاصل بسببه متناهياً.

أمّا التفضـل فيكون نتيجة كـرم الله تعالـىٰ، وكرم الله غيـر متناه، فيكـون تفضله أيضاً غير متناه. فلمـا دل قوله تعالىٰ (اعطيناك) علىٰ أنه تفضـل لا اسـتحقاق، أشـعر ذلك بالدوام والتزايد أبداً.

والإعطاء يسـتعمل في القليل والكثير قال تعالىٰ: ﴿وأعطى قليـلاً واكدى﴾ أما الايتاء فلا يستعمل إلا في الشيء العظيم، قال تعالىٰ: ﴿وآتاه الله الملك﴾ البقرة(٢٥) وقال ﴿ولقد آتينا داود منا فضلاً﴾ سبأ(١٠).

---

(١) انظر البرهان(٤/ ٨٦).

(٢) انظر الاتقان(١/ ١٩٥).

وفي هذا اشارة إلىٰ تعظيم حال النبي صلىٰ الله عليه وسلم من وجوه:

- **احدها**: يعني أن هذا الحوض كالشيء القليل...بالنسبة إلىٰ ما هو مدّخر لك من الدرجات العالية والمراتب الشريفة، فهو يتضمن البشارة بأشياء هي أعظم من هذا المذكور.
- **وثانيها**: كأنه سبحانه يقول: هذا الذي اعطيناك، وإن كان كوثراً لكنه في حقك اعطاء لا ايتاء لأنه دون حقك"(١).

٧. تعظيمه صلىٰ الله عليه وسلم وصون اسمه من أن ينسب اليه ما لا يحمد ولو بالإشارة: من ذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ يونس(١٠٦).

قال ابو السعود: "كنىٰ به عنه تنويهاً بِشأنه صلىٰ الله عليه وسلم، وتنبيهاً علىٰ رفعة مكانه من أن ينسب إليه عبادة غير الله، ولو في ضمن الجملة الشرطية"(٢).

ومنه قول الحق سبحانه ﴿**ما ودعك ربك وما قلى**﴾ الضحىٰ(٣) حيث حذف مفعول(قلىٰ) تعظيماً لشأنه صلىٰ الله عليه وسلم وكراهة أن يقع القلي والبغض علىٰ ضمير النبي صلىٰ الله عليه وسلم ولو في سياق النفي.

قال الدكتور فضل حسن عباس: (فإن قلت: لم ذكر مفعول (ودّع)؟اليس في ذلك كراهة؟ قلت: لا فإن التوديع أمر معروف، مشتهر بين الناس، وبخاصة بين الأحبة فليس بمستهجن أن يودع الحبيب حبيبه)(٣).

ومنه قوله تعالىٰ: ﴿**وناديناه من جانب الطور الأيمن**﴾ مريم(٥٢) يعني موسىٰ عليه السلام.

---

(١) تفسير الفخر الرازي(١٦/ ١٢٣) وحول المزيد من اسرار هذا الكلمة انظر البرهان(٤/ ٨٥) والاتقان(١/ ١٩٥).

(٢) تفسير ابو السعود(٢/ ٥٣٢).

(٣) البلاغة فنونها وأفنانها علم المعانين، ص٢٨٤.

ويقول سبحانه في سورة القصص ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ﴾ القصص(٤٤).

والمكان المشار إليه في الآتين واحد، ووجه الفرق بين الخطابين أن (الأيمن) مشتق من اليمن وهو البركة، أو مشاركة له في المادة، فلما حكاه عن موسىٰ في سياق الاثبات أتىٰ بلفظه، ولما خاطب محمداً صلىٰ الله علية وسلم في سياق النفي عدل إلىٰ لفظ الغربي لئلا يخاطبه فيسلب عنه فيه لفظاً مشتقاً من اليمن أو مشاركاً له في المادة رفقاً بهم في الخطاب وإكراما[١].

٨. تكليفه عليه السلام بحمل البشريات الطيبة الىٰ العباد: حيث يقول تعالىٰ: (فبشر عباد) الزمر(١٧) ويقول ﴿قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌۗ﴾ الزمر(١٠).

"فهذا خطاب الرسول صلىٰ الله عليه وسلم علىٰ الخصوص، فقد توجه اليه الخطاب في فهمنا وغاب العباد كلهم عن ذلك، فهم غائبون عن شهود هذا الخطاب لا يعلمونه الا بواسطة الرسول"[٢]. وفي هذا تنويه بالرسول صلىٰ الله عليه وسلم، وتأدُّبٌ في مخاطبته، حيث إنه كلف بحمل البشريات الطيبة و الاخبار السارة التي تحببه إلىٰ عباد الله أجمعين.

٩. ملاطفته وتأنيسه عليه السلام بالخطاب: فقد خاطبه المولىٰ بقوله ﴿يا أيها المزمل﴾ المزمل(١) ملاطفة له وتأنيساً كما في قوله عليه السلام لعلي بن ابي طالب حين غاضب فاطمة رضي الله عنها، فأتاه وهو نائم وقد لصق جنبه بالتراب فقال له: "قم يا أبا تراب"[٣] ملاطفة له واشعاراً بأنه غير عاتب عليه[٤].

---

(١) ذكر ذلك الزركشي في البرهان(٤/ ٦٢) نقلًا عن السهيلي في كتاب التعريف والأعلام ص٩٨.

(٢) انظر البرهان (١/ ٤٠٤).

(٣) أخرجه الأمام أحمد في مسنده، طبعة دار الفكر، (٤/ ٢٦٣).

(٤) تفسير أبو السعود(٥/ ٧٨٣).

وقد عجبت من قول الزمخشري في تفسيره بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان نائماً بالليل متزملاً في قطيفة، فنبه ونودي بما يهجن اليه هذه الحالة التي كان عليها من التزمل في قطيفته واستعداده للاستثقال في النوم كما يفعل من لا يهمه أمر ولا يعنيه شأن... إلى أن قال: فذمه بالاشتمال بكسائه، وجعل ذلك خلاف الجلد والكيس(١).

وقد تعقبه ابن المنير في حاشيته على الكشاف فقال: "أما قوله إن نداءه بذلك تهجين للحالة التي ذكر أنه كان عليها، واستشهاده بأبيات من الشعر فخطأ وسوء أدب، ومن أعتبر خطاب الله تعالى له في الاكرام والاحترام علم بطلان ما تخيله الزمخشري، فقال العلماء؛ إنه لم يخاطب باسمه نداءً، وإن ذلك من خصائصه صلى الله عليه وسلم دون سائر الرسل أكراماً له وتشريفاً، فأين نداؤه بصيغة مهجنة من ندائه باسمه؟ واستشهاده على ذلك بأبيات قيلت ذماً في حفاة من الرعاة فأنا ابرأ إلى الله من ذلك وأربأ به صلى الله عليه وسلم"(٢).

١٠. تصدير مخاطبته صلى الله عليه وسلم ببشارة العفو عند المعاتبة: كما في قوله تعالى: ﴿عفا الله عنك لم أذنت لهم﴾ التوبة(٤٣)، حيث تصدرت فاتحة الخطاب ببشارة العفو، دون ما يوهم العتاب، وذلك مراعاة لجانبه صلى الله عليه وسلم وتعهده بحسن المفاوضة ولطف المراجعة.

وذكر صاحب إرشاد العقل السليم نقلاً عن سفيان بن عيينه قوله: (انظروا إلى هذا اللطف، بدأ بذكر العفو قبل ذكر المعفو، ولقد أخطا وأساء الأدب، وبئسما فعل فيما قال وكتب من زعم أن الكلام كناية عن الجناية، وأن معناه أخطأت وبئسما فعلت: هب أنه كناية، اليس إيثارها على التصريح بالجناية للتلطيف بالخطاب والتخفيف في العتاب؟

وهي أن العفو مستلزم للخطأ فهل هو مستلزم لكونه من القبح واستتباع اللائمة بحيث

(١) الكشاف (٤/ ١٧٤).
(٢) الكشاف (٤/ ١٧٤).

يصحح هذه المرتبة من المشافهة بالسوء أو يسوغ إنشاء الاستقباح بكلمة بئسما المنبئة عن بلوغ القبح إلى مرتبة يتعجب منها؟[١].

قلت: كأن سفيان بن عيينه يرد بذلك على ما قاله الزمخشري في تفسيره من ان (عفا الله عنك) كناية عن الجناية لأن العفو رادف لها، ومعناه: أخطأت وبئس ما فعلت[٢].

وقد سعدت بأدب سفيان حيث لم يذكر القائل رحمه الله. هذا وقد رد ابن المنير في حاشيته على الكشاف قول الأمام الزمخشري، وأشاد بمن قال: إن من لطف الله تعالى بنبيه أن بدأه بالعفو قبل العتب، ولو قال له: لم أذنت لهم لتفطر قلبُه عليه الصلاة والسلام.

١١. خصه المولى سبحانه بالخطاب تعظيماً لجنابه صلى الله عليه وسلم، وإيذاناً بإسعاف مرامه على نحو يشعر بنزول الوحي وفق مراده صلى الله عليه وسلم[٣]: من ذلك قوله تعالى: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا﴾ البقرة(١٤٤) وقوله: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾ البقرة(١٤٤) فبعد أن خصه عليه السلام بالخطاب تعظيماً لجنابه، عمم الخطاب للمؤمنين مع التعرض لاختلاف أماكنهم، وتأكيداً للحكم وتصريحاً بعمومة، وحثاً للأمة على المتابعة[٤].

» ثانياً: أدب مخاطبة المؤمنين

١- استعمال صيغة ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ عند مخاطبتهم، وهي خطاب تشريف لا تخصيص[٥]. وقد أخرج ابن أبي حاتم عن خيثمة قال: "ما تقرؤن في القرآن (يا

(١) تفسير أبو السعود (إرشاد العقل السليم) (٢/ ٤١٢).

(٢) الكشاف (٢/ ١٩٢).

(٣) الموافقات في أصول الشريعة، (٢/ ٢٥٠)

(٤) تفسير ابو السعود(١/ ٢٠٨).

(٥) انظر الاتقان(٢/ ١٨) ومعترك الاقران(١/ ٢١٧).

أيها الذين آمنوا) فإنه في التوراة: يا أيها المساكين"[١].

قال الفخر الرازي: "أعلم أن الله تعالى خاطب المؤمنين بقوله: (يا أيها الذين آمنوا) في ثمانية وثمانين موضعاً من القرآن؛ ونسب إلى ابن عباس قوله بأنه كان يخاطب في التوارة بقوله (يا أيها المساكين)، قال الفخر: فكأنه سبحانه لما خاطبهم بالمساكين أثبت لهم المسكنة آخراً حيث قال: (وضربت عليهم المسكنة).

وهذا يدل على أنه تعالى لما خاطب هذه الأمة بالإيمان أولاً فإنّه تعالى يعطيهم الأمان من العذاب في النيران يوم القيامة، وأيضاً فإن اسم المؤمن أشرف الأسماء، فإذا كان في الدنيا يخاطبنا باشرف الأسماء والصفات فنرجو من فضله أن يعاملنا في الآخرة بأحسن المعاملات"[٢].

٢- التسهيل والملاطفة مع الشفقة والحنان. من ذلك قول الحق سبحانه: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ النساء(٢٩).

قال الرازي: "بين تعالى أنه رحيم بعباده، ولأجل رحمته نهاهم عن كل ما يستوجبون به مشقة أو محنة.

وقيل: إنه تعالى أمر بني إسرائيل بقتلهم أنفسهم ليكون توبة لهم وتمحيصاً لخطاياهم. وكان بكم يا أمة محمد رحيماً، حيث لم يكلفكم تلك التكاليف الصعبة"[٣].

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ النساء(٢٨) وقوله: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ البقرة(١٨٥).

٣- خاطبهم بغير واسطة ليفوزوا بشرف المخاطبة ومن هذا النوع كل ما في القرآن

---

(١) ذكره السيوطي في معترك الأقران(١/ ٢١٧) والفخر الرازي في تفسيره(١/ ٢٤٢) ولم أقف له على أي تخريج في كتب الحديث.

(٢) تفسير الفخر الرازي(١/ ٢٤٢).

(٣) تفسير الفخر الرازي(٥/ ٧٥).

الكريم من مخاطبة بـ(قل)[1] نحو: ﴿**قل هو الله احد**﴾ الإخلاص(١)، و﴿**قل أعوذ برب الفلق**﴾ الفلق (١)، و﴿**قل أعوذ برب الناس**﴾ الناس (١)، و﴿**قل آمنا بالله**﴾ آل عمران (٨٤).

قال الزركشي: "ليس من الفصيح أن يقول الرسول للمرسل إليه: قال لي المرسل: (قل كذا وكذا)، ولأنه لا يمكن إسقاطها فدلُّ على إن المراد بقاؤها، ولا بد لها من فائدة، فتكون أمراً من المتكلم للمتكلم بما يتكلم به، أمره شفاهاً بلا واسطة، كقولك لمن تخاطبه: إفعل كذا"[2].

ومن ذلك قوله سبحانه ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ﴾ الأعراف(٤٤).

قال الفخر الرازي"هلا قيل(ما وعدكم ربكم حقاً) كما قيل"(وما وعدنا ربنا حقاً)؟ والجواب: قوله ما وعدنا ربنا حقاً يدل على أنه تعالى خاطبهم بهذا الوعد، وكونهم مخاطبين من قبل الله بهذا الوعد يوجب التشريف. ومزيد التشريف لائق بحال المؤمنين. أما الكافر فهو ليس أهلاً لأن يخاطبه الله تعالى. فلهذا السبب لم يذكر الله تعالى أنه خاطبهم بهذا الخطاب بل ذكر الله تعالى أنه بين هذا الحكم"[3].

ومن الأدب القرآني في مخاطبة المؤمنين الابتعاد في مخاطبتهم عن صيغ الأمر الصريحة في كثير من الآيات الكريمة، واستغنى عن ذلك ببيان الصفات المرغوبة لعباد الرحمن مرة كقوله تعالى ﴿**وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً**﴾ الفرقان(٦٣).

ومرة يؤكد فلاح المؤمنين مبيناً صفاتهم التي قادتهم إلى الفلاح على طريقة الإغراء بها والتحريض عليها كقوله تعالى: ﴿**قد افلح المؤمنون، الذين هم في صلاتهم خاشعون**﴾

---

(١) الاتقان(٢/ ٣٤).

(٢) البرهان(٢/ ٢٥٢).

(٣) تفسير الفخر الرازي(١٤/ ٨٩).

المؤمنون(١،٢) وأخرى بحصر الإيمان في أصحاب صفات محددة كقوله سبحانه: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ...﴾ الانفال (٢).

ومن هذا النوع قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ...﴾ الصف(١٠).

قال صاحب التفسير الكبير: "هل أدلكم: في معنى الأمر عند الفراء،يقال: هل انت ساكت؟ أي اسكت، وبيانه أن هل بمعنى الاستفهام، ثم يتدرج إلى أن يصير عرضاً وحثاً، والحث كالإغراء، والإغراء أمر"[(١)].

ومن أدب الخطاب القرآني للمؤمنين أنه وعدهم بمغفرة ذنوبهم جميعها، حيث يأتي الوعد القرآني خالياً مما يدل على البعضية كحرف (من) مثلاً: كقوله تعالى في سورة الصف ﴿يغفر لكم ذنوبكم﴾ الصف(١٠).

وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ الأحزاب(٧٠، ٧١).

في حين أن الوعد للكفار بالمغفرة إذا هم أسلموا لا يُشعر بمغفرة ذنوبهم جميعها حيث يرد في خطابهم ما يدل على البعضية من ذلك قوله تعالى ﴿.. أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ نوح(٣، ٤) والخطاب لقوم نوح عليه السلام.

وقوله تعالى: ﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ الاحقاف(٣١).

قال صاحب البرهان: (وما ذلك الا للتفرقة بين الخطابين لئلا يسوي بين الفريقين)[(٢)].

---

(١) تفسير الفخر الرازي(٢٩/ ٢٠٧).

(٢) البرهان(٤/ ٤٢٥).

» ثالثاً: أدب مخاطبة أهل الكتاب

١- خاطبهم المولى سبحانه بعنوان أهلية الكتاب تذكيراً لهم بأن كتابهم نفسه يوجب عليهم التصديق بالقرآن الكريم، ويبشرهم بالنبي محمد صلى الله عليه وسلم فقال سبحانه ﴿يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم...﴾ آل عمران(٦٤).

قال ابو السعود في تفسيره"أهل الكتاب هم اليهود والنصارى، وإنما خوطبوا بعنوان أهلية الكتاب الموجب للإيمان به، وبما يصدقه من القرآن العظيم مبالغة في تقبيح حالهم في كفرهم بها".

وقال: "إن ذلك العنوان- يعني أهل الكتاب- كما يستدعي الإيمان بما هو مصدق لما معهم يستدعي ترغيب الناس فيه، فصدهم عنه أعلى مراتب القباحة"[(١)].

وهذه المقدمة إلى الخطاب تشي باحترامهم، وأنهم أهل الكتاب وأولياؤه. ومعلوم أن أهل الشيء لا يضيعونه. كما يفهم من هذه المقدمة بالتعريض إذا نكلوا عن أحكام الكتاب ولم يعملوا بها.

٢- مخاطبة اليهود بقوله تعالى: ﴿يا بني إسرائيل﴾ البقرة(٤٠) ولم يذكروا في القرآن الا بهذا دون (يا بني يعقوب)، وسر ذلك كما يرى الإمام الزركشي: أن القوم لما خوطبوا بعبادة الله ذكروا بدين اسلافهم، موعظة لهم وتنبيهاً من غفلتهم، فسّموا بالاسم الذي فيه تذكرة بالله؛ فإن (اسرائيل) اسم مضاف إلى الله سبحانه في التأويل[(٢)].

ويشبه هذا قوله عليه الصلاة والسلام لما دعا قوماً إلى الإسلام يقال لهم:

---

(١) تفسير ابو السعود(١/ ٣٩١).

(٢) البرهان في علوم القرآن(١/ ١٦١).

بنو عبد الله، قال: (يا بني عبد الله إن الله قد أحسن اسم ابيكم)[١]. يحرضهم بذلك على ما يقتضيه اسمه من العبودية.

وقد ذكر القرآن الكريم اسم يعقوب عليه السلام لما ذكر موهبته لابراهيم وتبشيره له فقال سبحانه: ﴿**فبشرناها باسحق ومن وراء اسحق يعقوب**﴾ هود (٧١). حيث ذكر اسم يعقوب، ولم يقل(اسرائيل) ويرى الإمام الزركشي أن السبب في ذلك: أنها موهبة تعقب أخرى، وبشرى تعقب بشرى، فإن اسم يعقوب وإن كان عبرانيا لكن لفظه موافق للغة العربية من العقب والتعقيب. ثم قال بعد ذكر هذه اللطيفة: "فانظر مشاكلة الاسمين للمقامين فإنه من العجائب"[٢].

قلت: ويسلم ما قاله صاحب البرهان إذا كان يعقوب داخلاً في البشارة، وذلك على قراءة من نصب يعقوب بفعل مضمر دل عليه الكلام وتقديره (ومن وراء إسحاق وهبنا له يعقوب) [٣]قال الشيخ ابن الكثير رحمه الله قال: (فبشرناها بإسحاق ومن وراء اسحاق يعقوب: أي بولد لها يكون له ولد وعقب ونسل،فإن يعقوب ولد اسحاق) [٤]وهكذا فإن الشيخ ابن كثير رحمه الله كأنه يوافق ما ذهب اليه الزركشي.

٣- الثناء على الصالحين منهم تشجيعاً لهم على الإيمان: من ذلك قوله سبحانه ﴿**ولتجدن اقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى، وذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون، وإذا سمعوا ما انزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع..**﴾ المائدة(٨٢).

---

(١) ذكره الزركشي في البرهان(١/ ١٦١) وأبن كثير في البداية والنهاية، تحقيق د.احمد أبو ملحم ورفاقه، دار الكتب العلمية، بيروت الطبعة (٣) سنة ١٩٨٧(٣/ ١٣٧) ولم أقف له على تخريج في كتب الحديث.

(٢) البرهان في علوم القرآن.

(٣) القيسي أبو محمد مكي ابن ابي طالب، (مشكل أعراب القرآن) تحقيق حاتم صالح الضامن، بيروت، مؤسسة الرسالة طبعة ٢(١٩٨٧)، (١/ ٣٦٨).

(٤) تفسير ابن كثير (٣/ ٥٦٣).

حيث اثنى الخطاب الكريم على علمائهم ووصفهم بالتواضع، والخشوع لله واتباع الرسول صلى الله عليه وسلم، والطلب من الله أن يكتبهم مع الشاهدين. وفي هذا دعوة لهم إلى اتباع الدين الجديد تأسياً بعلمائهم. ومنه قول الحق سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ﴾ الصف(١٤).

حيث ذكر المولى سبحانه وتعالى الحواريين في موضع الثناء، وطلب من المؤمنين الاقتداء بهم، وأن يكونوا مثلهم في مناصرة الحق، وفي هذا تحريض للنصارى على اتباع الحق، حيث جعل الصالحين منهم مثلاً يحتذى في اتباع الأنبياء والرسل.

٤- تذكيرهم بنعمة الله عليهم إذا جعل فيهم أنبياء، وجعلهم ملوكاً وفضلهم على العالمين. ومقصد هذا التذكير أن يتوصل به إلى طلب ايمانهم بالقرآن وأن لا يكونوا أول كافر به ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا ..﴾ المائدة(٢٠) وقوله ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾البقرة(٤٠).

قال الشيخ محمد رشيد رضا رحمه الله في تفسيره لهاتين الآيتين: "قال الأستاذ الأمام ما معناه: ناداهم باسم أبيهم الذي هو أصل عزهم،وسؤددهم ومنشأ تفضيلهم، وأسند النعمة إليهم جمعياً لا إليه وحده، لأن النعمة عمتهم، والتفضيل شملهم، والتفضيل هو مناط الأخذ بالفضائل وترك الرذائل، لأن من يرى نفسه رذلاً خسيساً لا يبالي ما فعل"ثم قال رحمه الله: "والحكمة من التذكير بالتفضيل أن يتذكروا بأن الذي فضلهم له أن يفضل غيرهم كمحمد صلى الله عليه وسلم وأمته"(١).

وفي هذا الأدب القرآني في مخاطبة بني إسرائيل تذكير للدعاة أن يحببوا للناس الإيمان ومقتضيات الإيمان من خلال تذكيرهم بنعم الله عليهم ظاهرة وباطنه، فهذا أدعى للقبول، وأقرب للاستجابة.

---

(١) تفسير المنار(١/ ٣٠٤).

٥- مواجهتهم بالحقيقة دون تغاض أو مجاملة إذا استمروا على انحرافهم ومناوأتهم للدين الإسلامي، وفي هذا يقول المولى سبحانه: ﴿**قل يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل، وما أنزل إليكم من ربكم**﴾ المائدة(٦٨).

حيث يواجههم الخطاب القرآني معلناً بصورة حاسمة أنهم ليسوا على شيء من الدين والإيمان الا أن يؤمنوا بالدين الجديد.

ورغم أنه سبق في علم الله بأن هذه المواجهة قد تزيد الكثيرين منهم طغياناً وكفراً ﴿**وليزيدن كثيراً منهم ما انزل اليك من ربك طغياناً وكفراً،فلا تأس على القوم الكافرين**﴾ المائدة(٦٨) الا أن ذلك لم يمنع من أن يؤمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يواجههم بها،وألا يأسى على ذلك، لأن حكمة الله تقتضي أن يصدع بالحق ﴿**ليهلك من هلك عن بينه، ويحيى من حيّ عن بينه**﴾ الانفال(٤٢)؛ ذلك (أن التلطف في الدعوة يجب أن يكون في الأسلوب الذي يبلغ به الداعية، لا في الحقيقة التي يجب أن تبلغهم كاملة، أما الأسلوب فيتبع المقتضيات القائمة، ويرتكز على قاعدة الحكمة والموعظة الحسنة)[1].

» رابعاً: أدب مخاطبة العامة

القرآن الكريم كله أدب وخلق وتهذيب، وتربية للسلوك السوي وتنمية للقيم الفاضلة والأخلاق العالية الرفيعة، ولا نستطيع أن نحصي قطوفه الدانية في هذا الموضوع، ولكننا نلمح إلى بعضها بما يفتح الله فنذكر منها وبالله التوفيق ما يلي:

١- خاطبهم بقوله سبحانه ﴿**يا بني آدم**﴾ الأعراف(٢٥)، وفي هذا تشريف لهم بنسبتهم إلى سيدنا آدم أبي البشر. وترغيب لهم في الاقبال على الله تعالى، والإنابة إليه وترك المعاصي أسوة بأبيهم آدم نبي الله عليه السلام، حيث إنه وقع في المعصية ﴿**وعصى آدم ربه فغوى**﴾ طه(١٢١). لكن الله تعالى تاب عليه ﴿**ثم اجتباه ربه، فتاب عليه وهدى**﴾ طه(١٢٢).

---

(١) في ظلال القرآن(٢/ ٨١٠).

وفي هذا تحريض لهم علىٰ التوبة وتخليص لهم من لوثة الشعور بالذنب والخطيئة، فإن من يعلم أن رحمة اللـه لا تضيق بالمذنب إذا تاب سارع إلىٰ ولوج باب التوبة وسهل عليه ذلك[1].

٢- خاطبهم باسم الإنسانية التي ينتسبون إليها، وهي وصف جامع لكل إنسان، وفي هذا إشارة إلىٰ أن الناس أمام الله سواء، فهم مخلوقون من نفس واحدة وإنما يأتي التفاضل بينهم من أبواب أخرىٰ.

وفي هذا الخطاب تقوية للشخصية ومداركة لها من الانهيار أمام الموازين القاسطة والقيم الهابطة التي تهدر الاعتبارات الإنسانية من حساباتها.من ذلك قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ..﴾ البقرة(٢١).

قال الشيخ الالوسي في تفسيره لهذه الآية الكريمة بأن المولىٰ سبحانه لما بين فرق المكلفين وقسمهم الىٰ مؤمنين وكفار ومذبذين، أقبل عز شأنه عليهم بالخطاب علىٰ نهج الالتفات هزاً لهم إلىٰ الاصغاء وتوجيهاً لقلوبهم نحو التلقي وجبراً لما في العبادة من الكلفة بلذيذ المخاطبة[2].

والشاهد أنه عدَّ المخاطبة بـ (يا أيها الناس) نوع مخاطبة لذيذة،وهذا يؤيد ما سبق ذكره من فضائل وآداب هذه الصيغة في الخطاب.

وفي هذا الزمن الموحش المكفهر تبدو عظمة مثل هذه الصيغة في الخطاب التي تجمع الناس تحت وصف واحد وسط مشاعر الكثيرين ورغبتهم في الاستعلاء علىٰ غيرهم والانفراد بالالقاب الكبيرة التي ترسخ الاتجاه نحو المصانعة والنفاق

(١) لم أجد فيما اطلعت عليه من كتب التفسير أي توقف عند هذه الصيغة من الخطاب (يابني آدم)، ولكن الشيخ الالوسي رحمه الله قال بأن سر هذا لا يخفىٰ في هذا المقام، ولم يذكر اكثر من ذلك، وهذا الذي ذكرته اعلاه هو مما فتح الله عليّ به.

(٢) تفسير روح المعاني للالوسي١/ ١٨١.

الاجتماعي،فيكون في مثل هـذه الصيغ القرآنية فـي المخاطبة تذويب للاتجاهات السـلبية والقيم الناقصة وترسيخ للعوامل المشتركة بين بني البشر التي تعيدهم إلىٰ القاسم المشترك بينهم لكي لا ينسوه وسط أجواء التفاخر والتفاضل بالاعراض الزائلة.

ومن ذلـك قولـه تعالـىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾ الانفطـار(٦). وقولـه سبحانه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾ الانشقاق(٦).

٣- ومـن الأدب القرآنـي في مخاطبـة العامة:نسـبهم المولىٰ سـبحانه إليـه بوصفهم عبادُه وهي لا شـك نسـبة تشـريف وتكريم ورعاية نجد فضلها في قوله سبحانه: ﴿والله رؤوف بالعباد﴾ البقرة(٢٠٧) ومن رأفته بهم أن ارشدهم إلىٰ ما فيه رضاه، وجعل النعيم الدائم جـزاء العمل المنقطع[1]. من ذلـك قوله تعالىٰ: ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ﴾ الزمر(١٠).

قال الشـيخ الألوسـي: فيه تشـريف لهم باضافتهم إلىٰ ضميـر الجلالة، ومزيـد اعتناء بشأن المأمور به[2].

ومن قولـه سـبحانه: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ﴾ البقـرة(١٨٦). وقوله: ﴿نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ الحجـر(٤٩) وقولـه ﴿ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ﴾ الزمر(١٦).

وبالتأمل في الآيات الشريفة السـابقة نجد في الخطاب رقة واستعطافاً وتحننا يستميل الإنسان للاستجابة، وهذا من كرم الله وفضله، والا فهو سـبحانه غني عن العالمين، ونحن الفقراء إلىٰ رحمته.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ فاطـر(١٥) ومـن هـذا النـوع قوله سبحانه ﴿قل لعبادي الذين آمنوا يقيموا الصلاة﴾ ابراهيم.

---

(١) نفسه(٢/ ٩٧).

(٢) تفسير روح المعاني(٢٣/ ٢٤٨).

يقول الشيخ ابو السعود: (خصهم بالإضافة إليه تنويها لهم، وتنبيهاً على أنهم المقيمون لوظائف العبودية الموفون بحقها)(١).

والعبودية وصف ينطبق على جميع الناس؛ يحرزه المؤمن بطاعته لله سبحانه، ورضاه بفعل مولاه تبارك وتعالى، ويحرزه غيره من حيث إن قضاء الله تعالى نافذ فيه وجارٍ عليه شاء أم أبى، وقد خاطب القرآن الكريم بهذه الصيغة عباد الله جميعاً مؤمنين وغيرهم اسعطافاً لهم واستثارة لمشاعرهم تجاه مولاهم وخالقهم سبحانه.

» خامساً: أدب مخاطبة الكافرين

لكل نوع من الناس أسلوب يخاطبه القرآن الكريم به، وهذا من سمات البلاغة القرآنية ومميزاتها، حيث جاء خطاب كل نوع وفق الاعتبار المناسب وعلى ما تقتضيه حاله، مع مراعاة المقصد الذي نزل من أجله هذا الكتاب وهو هداية الناس.ويمكن من تتبع مخاطبات القرآن الكريم للكافرين استنتاج الآداب التالية في مخاطبتهم.

- **اولاً**: مخاطبتهم بالواسطة وعدم توجيه الكلام لهم مباشرة، وذلك اهمالاً لهم واعراضاً عنهم واسقاطاً لهم من ربتة الخطاب.

من ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ الكافرون (١،٢).

قال الفخر الرازي: "إن خطاب الله تعالى مع العبد من غير واسطة يوجب التعظيم، ألا ترى ان الله تعالى ذكر من أقسام إهانة الكفار أنه لا يكلمهم؟ فلو قال (يا أيها الكافرون) لكان ذلك من حيث إنه خطاب مشافهة يوجب التعظيم، ومن حيث إنه وصف لهم بالكفر يوجب الايذاء، فينجبر الايذاء بالإكرام.

أما لما قال ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ فحينئذ يرجع تشريف المخاطبة إلى محمد صلى الله عليه وسلم، وترجع الاهانة الحاصلة لهم بسبب وصفهم بالكفر إلى الكفار،

(١) تفسير ابو السعود(٣/ ١٩١).

فيحصل فيه تعظيم الأولياء،وإهانة الأعداء، وذلك هو النهاية في الحسن"[١].

ومنه قوله سبحانه: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ الانفال(٣٨).

ومن هذا النوع قوله تعالىٰ: ﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ﴾ القلم (٣٩، ٤٠).

قال ابو السعود في تفسيره لهذه الآية: (هنا تلوين الخطاب وتوجيه له إلىٰ رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم، باسقاطهم عن رتبة الخطاب، أي سلهم مبكتاً لهم)[٢].

- ثانياً: الالتفات عنهم من الخطاب إلىٰ الغيبة تعجباً عن فعلهم وكفرهم والانتقال إلىٰ حكاية حالهم لغيرهم.

من ذلك قوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ..﴾ يونس(٢٢).

قال ابو السعود (والالتفات إلىٰ الغيبة للايذان بما لهم من سوء الحال الموجب للاعراض عنهم، كأنه يذكر لغيرهم مساوئ أحوالهم، ليعجبهم منها، ويستدعي منهم الأنكار والتقبيح)[٣].

وقال السيوطي في الاتقان حول الالتفات في هذه الآية: (ومما يذكر في توجيهه أيضاً أنهم وقت الركوب حضروا، إلا أنهم خافوا الهلاك وغلبة الرياح، فخاطبهم خطاب الحاضرين، ثم لما جرت الرياح بما تشتهي السفن، وأمنوا الهلاك لم يبق حضورهم كما كان علىٰ عادة الإنسان أنه إذا أمن غاب قلبه عن ربه، فلما غابوا ذكرهم الله بصيغة الغيبة، وهذه إشارة صوفية)[٤].

---

(١) تفسير الفخرالرازي(٣٢/ ١٣٨).

(٢) تفسير ابو السعود(٥/ ٧٥٧) وانظر تفسير روح المعاني(١٥/ ٤٢).

(٣) تفسير ابو السعود(٢/ ٤٨٢).

(٤) الاتقان (٢/ ٨٥).

- **ثالثاً**: التعجيب من فعلهم، وترك الحكم للمستمع ليقول فيهم. من ذلك قوله تعالى: ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ﴾ يونس(٢).

قال ابو السعود (الهمزة لانكار تعجبهم، ولتعجيب السامعين منه لكونه في غير محله، والمراد بالناس كفار مكة)[١].

- **رابعاً**: إلانة الكلام لهم عند الطمع في هدايتهم، وعدم تهديدهم بالعذاب أو اتهامهم بالكفر.

من ذلك قوله تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام: ﴿**يا أبت إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك فاتبعني أهدك صراطاً سوياً**﴾ مريم(٤٣).

(فلم يَسِمّ أباه بالجهل المفرط وإن كان في أقصاه ولا نفسه بالعلم الفائق وإن كان كذلك)[٢] ولم يقل له اتبعني أنجّك من ورطة الكفر مثلًا، وذلك تلطفاً به، واحترازاً عن مخاشنته، رغبة في اسماعه الحق على وجه لا يثير غضبه.

- **خامساً**: عند ظهور المكابرة منهم يستحب تركهم والإعراض عنهم على طريقة مقابلة السيئة بالحسنة[٣].

ومن ذلك قوله تعالى على لسان إبراهيم موجهاً كلامه إلى والده: ﴿**سلام عليك سأستغفر لك ربي**﴾ مريم (٤٧).

وقوله سبحانه ﴿لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ القصص(٥٥).

- **سادساً**: تقبّل وجهه نظرهم من باب الملاطفة، والاستماع لكلامهم استنزالاً

---

(١) تفسير ابو السعود(٢/ ٤٦٢).

(٢) تفسيرابو السعود (٣/ ٤٢٩) وانظر تفسير روح المعاني(١٦/ ٩٧).

(٣) ابو السعود(٣/ ٤٢٩).

لهم، وامتصاصاً لردود فعلهم، وفتحاً لقنوات الحوار معهم ثم الرد على ذلك بالأسلوب الذكي الذي يتضمن الموضوعية والحياد، بعيداً عن الانتصار للنفس، وفي هذا النوع من الخطاب استدراج للخصم، واستجلاب لإصغائه. من ذلك قوله: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ سبأ(٢٤).

قال الشيخ الالوسي (رحمه الله): وهذا من الكلام المنصف الذي كل من سمعه من موال أو مناف قال لمن خوطب به قد أنصفك صاحبك، وفي درجه بعد تقدمة ما قدم من التقرير البليغ دلالة ظاهرة على من هو من الفريقين على هدى ومن هو في ضلال مبين، ولكن التعريض أبلغ من التصريح، وأوصل بالمجادل إلى الغرض، وأهجم به على الغلبة مع قلة شغب الخصم، وفل شوكته بالهوينا)[١].

ومنه قول سبحانه ﴿قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ۝١٠ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ ابراهيم (١٠،١١).

قال الشيخ أبو السعود تعقيباً على ما قالته الرسل: (قالوه تواضعاً وهضماً للنفس)[٢].

- **سابعاً**: المداراه وسلوك طريق الانصاف في القول، واتيانهم من جهة المناصحة، لكي يسمعوا القول، لا أن يردوا عليه، من ذلك، قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ﴾ غافر(٢٨).

قال الفخر الرازي: (حيث نلاحظ كيف ورد في هذا الكلام ما يدل على حسن

(١) تفسير روح المعاني(٢٢/ ١٤٠).

(٢) تفسير ابو السعود(٣/ ١٨٤).

الاستنكار؛ فهو ما زاد على أن قال: ربي الله، وجاء بالبينات لا ببينة واحدة، وهذا لا يستوجب القتل، ثم إن هذا الرجل إن كان كاذباً كان وبال كذبه عائداً عليه، وإن كان صادقاً يصبكم بعض الذي يعدكم ؛ فالأولى ابقاؤه حياً على كلا الحالتين، ومنعه من اظهار مقالته وتعرضوا عنه.

ثم قال: (بعضُ الذي يعدكم) ومدار هذا الاستدلال على اظهار الانصاف وترك اللجاج[1].

ثامناً:ويجوز لنا أن نعد من أدب الخطاب حذف الفاعل إذا كان هذا الفاعل كافراً، احتقاراً له، وتقليلاً لشأنه. من ذلك قوله تعالى: ﴿**وقيل للناس هل انتم مجتمعون لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين**﴾ الشعراء(٣٩،٤٠) حيث بني الفعل للمجهول لأن الفاعل لا يستأهل أن يذكر استهجاناً لفكرته واهتمامه.

وقوله: ﴿**عمّ يتساءلون عن النباء العظيم**﴾ عم(١،٢) فقد أضمر الفاعل هنا إهانة له، وتقليلاً لشأنه لأنه لا يتساءل حقيقة بل يتجاهل، فهو لا يسأل ليتعلم أو ليعرف بل يتساءل متهكماً متندراً ظالماً.

قال الشيخ الألوسي في تفسيره تعالى: (عم يتساءلون) الضمير لأهل مكة، وإن لم يسبق ذكرهم للاستغناء عنه بحضورهم حساً، مع ما في الترك(على ما قيل) من التحقير والاهانة لاشعاره بأن ذكرهم مما يصان عنه ساحة الذكر الحكيم. ولا يُتوهم العكس- أي أن الحذف ليس علامةً على تعظيمهم واحترامهم - لمنع المقام عنه، وكانوا يتساءلون عن البعث فيما بينهم ويخوضون فيه انكاراً واستهزاءً[2].

ومنه قوله سبحانه: ﴿**اريت الذي ينهى عبداً إذا صلى**﴾ العلق(٩،١٠).

---

(١) تفسير الفخر الرازي(١٤/ ٦٠).

(٢) تفسير روح المعاني(٢٤/ ٢).

وهذا الذي ينهىٰ عبداً إذا صلىٰ هو أبو جهل اللعين[١]، أغفل الخطاب الكريم ذكره احتقاراً له. والمنهي هو الحبيب المصطفىٰ صلىٰ الله عليه وسلم لكن النص القرآني لم يقل أرأيت الذي (ينهاك)، وذلك صيانة لضميره عليه الصلاة والسلام أن يجمع في كلمة واحدة مع ضمير أبي جهل، وكأن النص الكريم يشير إلىٰ أن النبي الكريم أعظم وأكرم من أن يتلقىٰ نهياً، أو أي مخاطبة من مثل أبي جهل[٢]. ويمكن أن يكون اختيار كلمة (عبداً) للتعميم ليشمل النص الكريم كل ناه وكل منهي.

****

(١) انظر تفسير ابو السعود(٥/ ٨٨٧).

(٢) قلت: ولا مانع من القول بأن ذكر النبي صلىٰ الله عليه وسلم بوصف العبودية في هذه الآية يشير إلىٰ علو مقام العبودية لله، وأنه مقام رفيع يحسن بكل عاقل أن يتطلع اليه.

الفصل الثاني

أدب العباد في المخاطبة

» أولاً: أدب مخاطبة المولى سبحانه وتعالى

المتدبر لآيات القرآن الكريم يمكنه الاطلاع على جانب كبير من هذا الأدب الرفيع الذي يعلمنا اياه عند مخاطبة المولى سبحانه وتعالى، ومن ذلك.

- **اولاً**: التأدب في إضافة الخير إلى الله تعالى،وعدم نسبة الشر إليه سبحانه وذلك جرياً على منهاج الآداب التنزيلية في نسبة النعم والخيرات إليه عز وجل دون أضدادها[(١)].

من ذلك قوله تعالى: ﴿**صراط الذين انعمت عليهم**﴾ الفاتحة (٧) ولم يقل (غير الذين غضبت عليهم) بل قال ﴿**غير المغضوب عليهم**﴾ بحذف الفاعل وذلك احترازاً من نسبة الغضب إلى الله تعالى.

ومنه قوله ﴿**بيدك الخير**﴾ آل عمران(٢٦) ولم يقل (والشر) وإن كان جميعاً بيده.

وقوله ﴿**فصرف عنه كيدهن**﴾ يوسف(٣٤) حيث أضاف صرف الكيد إلى الله تعالى .

ولما ذكر السجن أضافه اليهم ﴿**ليسجننه حتى حين**﴾ فأضاف ما منه الرحمة إليه سبحانه، وما منه الشدة اليهم[(٢)].

ومنه تصدير الكلام بعسى كقوله تعالى: ﴿**عسى الا اكون بدعاء ربي شقيا**﴾ مريم (٤٨) وذلك إظهاراً للتواضع ومراعاة لحسن الأدب والتنبيه على حقيقة الحق من أن الإجابة والإثابة بطريق التفضل منه عز وجل لا بطريق الوجوب وأن العبرة بالخاتمة.

وذلك من الغيوب المختصة بالعليم الخبير[(٣)].

ومنه قوله تعالى ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى﴾ النجم(٣١).

---

(١) تفسير أبو السعود(١/ ٢٢).

(٢) البرهان في علوم القرآن (٤/ ٥٩).

(٣) تفسير ابو السعود(٣/ ٤٣٠).

"فمقتضى الصناعة أن يؤتى بالتجنيس للازدواج في صدر الآية كما في عجزُها، ولكن منعه توخي الأدب والتهذيب في نظم الكلام حتى لا تنسب السيئة إليه سبحانه"[١].

ومنه قوله سبحانه على لسان إبراهيم عليه السلام: ﴿**وإذا مرضت فهو يشفين**﴾ الشعراء(١٨٠)، فلم يقل (الذي يمرضني).

جاء في حاشية ابن المنير على الكشاف قوله: "والذي ذكره غير الزمخشري أن السر في إضافة المرض إلى نفسه التأدب مع الله تعالى بتخصيصه نسبة الشفاء إليه سبحانه.

ويمكن أن يفرق بين نسبة الموت ونسبة المرض في مقتضى الأدب: بان الموت قد علم و اشتهر أنه قضاء محتوم من الله تعالى على سائر البشر، وحكم عام لا يخص، ولا كذلك المرض، فكم من معافى قد بلغه الموت، فالتأسي بعموم الموت لعله يسقط أثر كونه بلاءً فيسوغ في الأدب نسبته إلى الله تعالى.

وأما المرض فلما كان مما يخصُّ به بعض البشر دون بعض كان بلاء محققاً، فاقتضى العلو في الأدب مع الله أن ينسبه الإنسان إلى نفسه، باعتبار السبب الذي لا يخلو منه، وهو أن المرض قد يكون بسبب تفريط الإنسان في مطعمه ومشربه"[٢].

أما الزمخشري فقال عند تفسير قوله تعالى: ﴿**وإذا مرضت فهو يشفين**﴾ إنما قال (مرضت) دون يمرضني لأن كثيراً من أسباب المرض يحدث بتفريط من الإنسان في مطاعمه ومشاربه وغير ذلك[٣].

ومن هذا النوع تقديم فعل البشر[٤] في قوله تعالى: ﴿**فلما زاغوا ازاغ الله قلوبهم**﴾ الصف(٥). وتقديم فعل الله تعالى في قوله سبحانه ﴿**ثم تاب عليهم وليتوبوا**﴾التوبة(١١٨).

---

(١) البرهان(٣/ ٣٨٠)

(٢) حاشية ابن المنير على الكشاف(٣/ ١١٦).

(٣) الكشاف(٣/ ١١٧)

(٤) البرهان(٤/ ٦٠).

ومنه قول مؤمني الجن: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ الجن(١٠) حيث حذف الفاعل عند إرادة الشر تأدباً مع الله تعالىٰ، في حين اضافوا ارادة الرشد إليه سبحانه[١].

ومنه قوله ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ..﴾ المائدة(٣) فحذف الفاعل عند ذكر هذه الأمور تنزيهاً لاسمه سبحانه أن يذكر بجوار هذه المسميات.

ومنه﴿وأحل الله البيع وحرم الربا﴾ حيث ذكر الفاعل عند البيع الحلال وأغفله عند ذكر الربا[٢].

ومن هذا النوع ما جاء في جواب الخضر عليه السلام عما فعله، حيث قال في اعابة السفينة ﴿فأردت﴾ الكهف(٧٩) وفي قتل الغلام ﴿فأردنا﴾ الكهف (٨٠) وفي أقامة الجدار ﴿فأراد ربك﴾ الكهف(٨٢).

حيث إن إعابة السفينة من حيث الظاهر شر محض فنسبه إلىٰ نفسه تأدباً مع الربوبية، وقتل الغلام أمر مشترك بين المحمود والمذموم، فمن حيث هو محمود نسبة إلىٰ الله تعالىٰ، ومن حيث هو مذموم نسبة إلىٰ نفسه، فقال في الإخبار عنه بنون الاستتباع، حيث استتبع نفسه مع الحق سبحانه أما الجدار فهو خير محض فنسبه إلىٰ الحق سبحانه فقال ﴿فأراد ربك﴾[٣].

- **ثانياً**: مناداة المولىٰ سبحانه من غير حرف نداء[٤]، بناء علىٰ أن حرف النداء في الأصل للتنبيه، والله سبحانه منزه عن التنبيه يضاف إلىٰ ذلك أن أكثر حروف النداء

---

(١) تفسير ابو السعود(١/ ٢٢).

(٢) البرهان(٤/ ٦٢).

(٣) البرهان(٤/ ٦٠)وانظر ابادي، مجد الدين محمد بن يعقوب، (بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز)، تحقيق محمد علي النجار، القاهرة، طبعة ١٣٨٣هـ(٣٠٢).

(٤) الموافقات في أصول الشريعة للشاطبي(٢/ ١٠٤).

تستعمل للبعيد حقيقة أو حكماً[1] والله سبحانه قريب من عباده ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ﴾ البقرة(١٨٦).

ولحذف حرف النداء في مخاطبة المولى سبحانه فوائد:

- اولها: الاختصار والايجاز.
- الثانية: استشعار القرب من المولى سبحانه وأنه حاضر مع المنادي غير غافل عنه، فيسأله مناجاة القريب للقريب لا مسألة مناداة البعيد للبعيد[2].
- الثالثة: إن حذف حرف النداء أعظم في الأدب والتعظيم ولهذا لا نخاطب الملوك برفع الاصوات،ولله المثل الأعلى، فالمناجاه أولى من المناداة وأبلغ في الأدب[3].

وفي هذا يقول الحق سبحانه ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ۝ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا﴾ مريم(٢،٣).

ومن ذلك (أعني مخاطبة المولى بحذف حرف النداء) قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ البقرة(٢٨٦).

وقوله: ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾ البقرة(٢٨٦).

وقوله: ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا ﴾ آل عمران(٨).

حيث نلاحظ حذف حرف النداء مراعاة للأدب والفوائد التي ذكرها ولكن حرف

---

(١) ابن هشام، عبدالله جمال الدين بن يوسف(مغني اللبيب عن كتب الا عاريب) المكتبة العصرية، صيدا بيروت طبعة ١٩٨٧، (٢/ ٣٧٣ وانظر البرهان(٤/ ٤٤٥).

(٢) ابن قيم الجوزية، شمس الدين أبي عبد الله (التفسير القميم) جمعة محمد أويس الندوي حققه محمد حامد الفقي دار الكتب العلمية، بيروت، طبعة١٩٧٨، ص ٢٤٦.

(٣) نفس المصدر السابق ص٢٤٥.

النداء قد يثبت أحياناً عند مخاطبة المولى، وقد ورد ذلك في القرآن في آية واحدة وهي قوله سبحانه ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَـٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُواْ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾ الفرقان(٣٠).

وفي هذا تأدب من المنادي حيث يستصغر نفسه، ويستبعدها عن مظان القرب والزلفى، هضماً لنفسه، وإقراراً عليها بالتنقيص[(١)].

ثالثاً: ومن أداب مخاطبة المولى سبحانه؛ أن يكون نداؤه سبحانه بلفظ(الرب) فقد أتى في النداء القرآني بهذا اللفظ تنبيهاً وتعليماً لأن يأتي العبد في دعائه بالاسم المقتضى للحال المدعو بها، وذلك أن الرب في اللغة هو القائم بما يصلح المربوب[(٢)] قال سبحانه في معرض بيان دعاء العباد: ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾ البقرة(٢٨٦) ﴿ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ﴾ آل عمران (٥٣).

وهذا يُشعر بأن العبد متعلق بمن شأنه التربية والرفق به[(٣)].

وإنما أتى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَـٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ الانفال(٣٢).

من غير اتيان بلفظ الرب لأنه لا مناسبة بينه وبين ما دعوا به، بل هو مما ينافيه؛ حيث إن انزال الحجارة ينافي اصلاح احوال العباد، ثم إن ذلك الدعاء صادر عن قوم جاحدين لم يصلوا إلى حدود التأدب في المخاطبة[(٤)].

قال الشيخ المرحوم عبد الله دراز في شرحه على موافقات الشاطبي: "ومع هذا فلا حاجة للاعتذار عنه لأنه محكي الذين لم يصلوا للآداب، وإنما يحتاج للاعتذار عن

---

(١) نظر تفسير الفخر الرازي(١/ ٩١) البرهان (٤/ ٥٥٤).

(٢) يقال رب فلان ضيعته إذا قام على اصلاحها، وهذا سقاء مربوب أي أصلح بالرُّب. انظر مجمل اللغة(١/ ٣٧٠).

(٣) المرافقات في أصول الشريعة(٢/ ١٠٤).

(٤) نفسه(٢/ ١٠٤).

مثل قوله تعالىٰ حكاية عن سيدنا نوح عليه السلام ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ نوح(٢٦) والجواب أن هلاك هؤلاء رحمة بسائر بني آدم كما قال: ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ﴾ نوح(٢٧).

» (فائدة)

ومما تحسن ملاحظته أن النداء من قبل الله تعالىٰ للعباد جاء في الخطاب القرآني بإثبات حرف النداء نحو قوله سبحانه: ﴿**يا عبادي الذين اسرفوا على انفسهم لا تقنطوا من رحمة الله**﴾. الزمر(٥).

وقوله ﴿**يا أيها الناس..**﴾ النساء(١) وقوله ﴿**يا أيها الذين آمنوا**﴾ آل عمران(٢٠٠).

ومن فائدة ذلك كما ذكر الأمام الشاطبي:"أثبات التنبيه لمن شأنه الغفلة والاعراض والغيبة وهو العبد.

وفيه أيضاً دلالة علىٰ ارتفاع شأن المنادي وأنه منزه عن مداناة العباد؛ إذ هو في دنوه عال، وفي علوه دان، سبحانه"[1].

- رابعاً: تقديم الوسيلة بين يدي الطلب: وفي ذلك اشارة إلىٰ أهمية العمل الصالح في قبول الدعاء.

من ذلك قوله سبحانه: ﴿**إياك نعبد وإياك نستعين**﴾ الفاتحة(٥).

وقد ذكر الشيخ الالوسي من أسرار تقديم فعل العبادة علىٰ فعل الاستعانة أحد عشر وجهاً منها: أن العبادة وسيلة فتقدم علىٰ طلب الحاجة لأنه أدعىٰ للإجابة[2].

ومنه قوله تعالىٰ: ﴿**سمعنا واطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير**﴾ البقرة(٥).

---

(١) الموافقات(٢/ ١٠٤).

(٢) تفسير روح المعاني(/٨٨).

قال أبو السعود: (وتقديم ذكر السمع والطاعة على طلب الغفران لما أن تقديم الوسيلة على المسؤول أدعى إلى الإجابة والقبول)[١].

ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ﴾ البقرة(١٢٧). قال ابو السعود: (والتعرض لوصف الربوبية المنبئة عن إفاضة ما فيه صلاح المربوب مع الإضافة إلى ضميرهما عليهما السلام لتحريك سلسلة الاجابة.

وترك مفعُول (تقبل) مع ذكره في قوله (ربنا وتقبل دعاء) ليعم الدعاء وغيره من القرب والطاعات التي من جملتها ما هما بصدده من البناء)[٢].

ومنه قوله تعالى: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ ..﴾ إبراهيم(٣٧).

قال الشيخ أبو السعود: (في دعائه عليه السلام مراعاة حسن الأدب، والمحافظة على قوانين الضراعة، وعرض الحاجة، لاستنزال الرحمة، واستجلاب الرأفة ما لا يخفى؛ فإنه عليه السلام بذكر كون الوادي غير ذي زرع بين كمال افتقارهم إلى المسؤول، وبذكر كون إسكانهم عند البيت إشارة إلى أن جوار الكريم يستوجب إفاضة النعيم.

وبعرض كون ذلك الإسكان(مع كمال إعواز مرافق المعاش) لمحض إقامة الصلاة، وأداء حقوق البيت مهّد جميع مبادئ إجابة السؤال.

ولذلك اقترنت دعوته عليه السلام بحسن القبول"[٣].

---

(١) تفسير ابو السعود(١/ ٣١٩).

(٢) تفسير ابو السعود(١/ ١٩١).

(٣) نفسه (٣/ ١٩٩).

» ثانياً: أدب مخاطبة الأنبياء لأقوالهم

الأنبياء والرسل هم اصفياء الله سبحانه، لهم طبيعة خاصة، وإن كانوا بشراً من البشر، وبموجب هذه الطبيعة والاستعداد اللدني الذي أودعه الله في نفوسهم نجدهم مهيئين لاستقبال الوحي وتبليغه للناس، وتحمل كل ما يتطلبه ذلك من صبر وتضحيات.

والمتأمل في سيرة الأنبياء عليهم أفضل الصلاة والسلام يطلع على خلق عال رفيع وأدب جم في تعاملهم مع الناس وفي دعوتهم إياهم ومن هذه الآداب:

١- تقديم أنفسهم لأقوامهم على أنهم رسل من الله، يرجون لهم الخير: ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ الصف(٥).

وقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم﴾ الصف(٦).

وقوله على لسان سيدنا هود عليه السلام: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ الاعراف(٦٧).

ومن شأن هذا التقديم أن يستجر الاستجابة المأمولة لدعوتهم ورسالتهم؛ فهم لا ينسبون الدعوة لأنفسهم، ولا يظهرون أن لهم ميزة على غيرهم، ولكنهم يحملون رسالة ربهم إلى خلقه، ﴿وما على الرسول الا البلاغ المبين﴾ النور(٥٣).

٢- اظهار الشفقة عليهم والرحمة بهم لما في ذلك من تليين لمواقفهم واستمالتها نحو الحق.

من ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ هود(٢٥،٢٦).

٣- إعلام أقوامهم بأنهم لا يريدون منهم مالاً ولا أجراً مقابل هذه الدعوة. وفي هذا إعانة لهم على قبول الحق والتوجه إليه؛ فإن الذي ينفق وقته وجهده ويعطل

أعماله الخاصة مشتغلاً بدعوة لا تبدو مغانمها الدنيوية قريبة، ومع هذا لا يطلب من الناس أجراً ولا شيئاً، إلا أن يؤمنوا بدعوته التي تتحقق لهم السعادة في الدنيا والآخرة. أقول إن الذي يفعل ذلك لا يمكن أن يكون غاشاً لقومه أو خادعاً إياهم ولا بد أن يكون صادقاً في دعوته.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ هود(٥٠،٥١).

وقوله سبحانه: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ سبأ(٤٧).

وقد كان عدم سؤال الرسل أجراً دنيوياً على دعوتهم أكبر العوامل المساعدة على اتباعهم. فقد وجدها الرجل الذي جاء من أقصى المدينة يسعى في مناصرة رسل عيسى عليه السلام[1]، وجدها فرصة مناسبة وهو يدعو قومه إلى اتباع الرسل ليؤكد أن هؤلاء الرسل لا يطلبون على دعوتهم شيئاً من الأجر فقال: ﴿اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ يس(٢١).

٤- التطامن في عرض الأدلة وتقديم الحجج من باب أرخاء العنان للخصم ليفيق على ضعف دليله بنفسه، وترك الحكم له بعد ذلك. من هذا النوع قوله تعالى: **﴿قل من يرزقكم من السموات والأرض، قل الله وإنا أو أياكم لعلى هدى أو في ظلال مبين﴾** سبأ(٢٤).

قال الفخر الرازي في تفسير هذه الآية: "هذا ارشاد من الله لرسوله إلى المناظرات الجارية في العلوم وغيرها، وذلك لأن أحد المتناظرين إذا قال للآخر: هذا الذي تقوله خطأ، وأنت فيه مخطئ فإنه يغضبه، وعند الغضب لا يبقى سداد فكر. وعند اختلاله لا مطمع في الفهم، فيفوت الغرض.

(١) تفسير روح المعاني(٢٢/ ٢٢٠).

وأما اذا قال له بأن أحدنا لا يشك في أنه مخطئ، والتمادي في الباطل قبيح، والرجوع إلى الحق أحسن الأخلاق، فنجتهد ونبصر أينا على الخطأ ليحترز، فإنه يجتهد ذلك الخصم في النظر، ويترك التعصب، وذلك لا يوجب نقصاً في المنزلة، لأنه أوهم بأنه في قوله شاك.

ويدل عليه قوله تعالى لنبيّه(وإنا أو إياكم) مع أنه لا شك في أنه هو الهادي، وهو المهتدي، وهم الضالون المضلون"(١).

ومنه قوله سبحانه على لسان ابراهيم عليه السلام: ﴿فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾الانعام(٨١،٨٢).

قال ابو السعود: "إنما جيء بصيغة التفضيل المشعرة باستحقاقهم له في الجملة لاستنزالهم عن رتبة المكابرة والاعتساف، بسوق الكلام على سنن الإنصاف.

والمراد بالفريقين: الفريق الآمن في محل الأمن، والفريق الآمن في محل الخوف. فإيثار ما عليه النظم الكريم من أن يقال(فأينا أحق بالأمن أنا أم أنتم) لتأكيد الإلجاء إلى الجواب الحق للتنبيه على علة الحكم، والتغاضي عن التصريح بخطئهم، لا لمجرد الاحتراز عن تزكية النفس)(٢).

٥- الوزن لهم على قدر مداركهم، ومخاطبتهم بما تطيقه عقولهم وأفهامهم ليحصل المقصود من المخاطبة.

ومن ذلك مجاراة الخصم بقبول دليله أولاً، ثم بيان فساده فيما بعد كما في قول ابراهيم عليه السلام الذي ذكره المولى سبحانه حيث يقول: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ

(١) تفسير الفخر الرازي(١٣/ ٢٥٨).

(٢) تفسير ابو السعود(٢/ ١٧٣) وانظر تفسير الفخر الرازي(٧/ ٦٤).

قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ الانعام(٧٦-٧٩).

قال ابو السعود: (إنما قال ذلك مجاراة مع أبيه وقومه، الذين كانوا يعبدون الأصنام والكواكب، فإن المستدل على فساد قول، يحكيه على رأي خصمه ثم يكر عليه بالإبطال)[١].

وهكذا يبدو سيدنا إبراهيم عليه السلام منصفاً لخصمه، مع علمه أنه مبطل، فيحكي قوله غير متعصب لمذهبه، لأن ذلك أدعى إلى الحق، وأنجى من الشغب، ثم نراه يكر عليه بعد حكايته فيبطله بالحجة[٢]. فنراه اتبع طريقة الإنصاف لخصمه رغم أنه مبطل من باب المسامحة وحسم العناد.

٦- الابتعاد عن تزكية النفس حيث إن التواضع وهضم النفس لهما أثر كبير في استثارة جوانب الخير في نفوس المدعوين وتليين مواقفهم، واستنزالهم لإجابة الداعي وقد التزم الأنبياء والرسل بهذا الأدب الرفيع، ولنستمع:

يقول الله سبحانه ﴿فَـَٔامِنُواْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ الاعراف(١٥٨).

فلم يقل فآمنوا بالله وبي، تنبيهاً لهم على أنه صلى الله عليه وسلم مستحق الاتباع بوصفه رسول الله لا بصفته الشخصية، وفي هذا الأدب تندفع التهمة عن الرسول صلى الله عليه وسلم بالعصبية لنفسه[٣].

وأشار صاحب الكشاف إلى أن العدول إلى الاسم الظاهر ليعلم أن الذي وجب

---

(١) نفسه(٢/ ١٧٠).

(٢) انظر الكشاف(٢/ ٣١).

(٣) انظر البرهان(٣/ ٣١٦).

الإيمان به وإتباعه هو هذا الشخص المستقل بأنه النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته كائنا من كان سواء كان محمداً صلى الله عليه وسلم أم غيره؛ وذلك إظهارا للنصفه وتفادياً من العصبية لنفسه(١).

٧- الاكثار من أداوت التنبيه ايقاظاً لهم من الغفلة، واستدراجاً لهم إلى الحق؛ فنجدهم يتحزنون لقومهم، ويتلطفون بهم كي يدخلوا في دين الله، من ذلك قوله تعالى على لسان سيدنا نوح عليه السلام: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتۡ عَلَيۡكُمۡ أَنُلۡزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمۡ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مَالًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَٰقَوۡمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمۡۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ هود(٢٨-٣٠).

وهكذا نجده عليه السلام يخاطبهم بإثبات اداة النداء ثلاث مرات متتالية تنبيهاً لهم واهتماماً بشأنهم، وأشعاراً لهم بجدية الموضوع.

****

(١) انظر الكشاف ٢٠م١٢٣).

» ثالثاً: أدب الخطاب بين المؤمنين

المؤمنون هم أولى الناس بالقرآن الكريم، إتباعاً له، وتأثراً به وانفعالاً معه، فهم ذوو القلوب المطمئنة والصدور المنشرحة التي تحسن استقبال النص القرآني الكريم لتنفيذ ما يطلبه لا لتتغنى به، وترتله في المناسبات والمآتم.

لذلك نجد نور القرآن الكريم في وجوههم وفي قلوبهم، وحتى في مخاطباتهم وكلامهم. وقد عرض القرآن الكريم من مخاطباتهم ما يشير إلى الوان شتى من أداب الخطاب بين المؤمنين أذكر منها:

١- استعمال الكلام الطيب والقول الحسن المقرون بأمارات التعظيم والاحترام على نحو يشعر بالمودة والحب والاستعطاف والاشفاق من ذلك قوله سبحانه: ﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ لقمان(١٣).

قال ابو السعود في تفسيره عند قوله(يا بني): "التصغير هنا تصغير إشفاق"[(١)].

ومنه قوله تعالى على لسان سيدنا يعقوب عليه السلام وهو يخاطب يوسف عليه السلام ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ﴾ يوسف(٥).

قال أبو السعود: التصغير للاشفاق أو له ولصغر السن[(٢)].

ومن هذا النوع قوله تعالى: ﴿ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ ۖ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ﴾ طه(٩٤).

حيث نلاحظ في خطاب هارون الاستعطاف والترقيق لتخفيف حدة الغضب في نفس موسى عليه السلام، مع الواقعية والصدق في اللهجة.

---

(١) تفسير ابو السعود (٤/ ٢٨٩).

(٢) نفسه (٣/ ٧٩).

قال ابو السعود في تفسيره (خصَّ الأم بالإضافة استعطافاً لحقها، وترقيقاً لقلبه، لا لما قيل من أنه كان أخاه لأم؛ فإن الجمهور على أنهما كانا شقيقين)(١).

٢- حسن الاعتذار لهم بما يطيب خاطرهم ويسعف مرامهم كما في قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا﴾ الاسراء(٢٨).

قال الإمام القرطبي: (خص الله نبيه صلى الله عليه وسلم بقوله(وإما تعرضن...) وهو تأديب عجيب وقول لطيف بديع، أي لا تعرض عنهم اعراض مستهين عن ظهر الغنى والقدرة فتحرمهم. وإنما يجوز ان تعرض عنهم عند عجز يعرض وعائق يعوق، وأنت عند ربك ترجو من الله سبحانه وتعالى فتح باب الخير للتوصل به إلى مواساة السائل، فإن قعد بك الحال فقل لهم قولاً ميسوراً، والقول الميسور هو القول اللين اللطيف الطيب)(٢).

٣- الأدب في رد السلام: يشير إلى ذلك قوله سبحانه وتعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ الذاريات(٢٤-٢٧).

ففي الأية إطراء بأبي الأنبياء سيدنا إبراهيم عليه السلام من عدة وجوه أهمها ما يتعلق بموضوعنا وهو أدب المخاطبة.

فقد سلم الضيوف على إبراهيم بالمنصوب فقالوا: (سلاماً) وسلم عليهم بالمرفوع فقال (سلامٌ) وذلك عند أهل اللغة أكمل. حيث إن الجملة الإسمية تدل على الثبوت والدوام؛ فقوله عليه السلام(سلامٌ) يعني (سلام عليكم) فهي جملة اسمية عدل بها إلى الرفع للقصد إلى الثبات والدوام حتى تكون تحيته أحسن من تحيتهم.

(١) تفسير ابو السعود(٣/ ٤٨٦).

(٢) تفسير الجامع لأحكام القرآن(١٠/ ٢٤٨).

أما تحية الضيوف فكانت (سلاماً) يعني(نسلم عليك سلاماً) وهي جملة فعلية دالة على الحدوث والتجدد[١].

وفي الآية أدب رفيع آخر من آداب الخطاب في قوله (قوم منكرون) فلما أنكرهم عليه السلام ولم يعرفهم، احتشم عن مواجهتهم بلفظ ينفر الضيف كقوله مثلاً(أنتم منكرون) فحذف المبتدأ هنا من الطف الكلام. وفي الآية تلطف في القول عند قوله: (الا تأكلون) وهو أحسن من قوله مثلاً: كلوا أو مدوا ايديكم[٢].

****

(١) انظر تفسير ابو السعود(٥/ ٦٣٠) وانظر ابن القيم، التفسير القيم، تحقيق حامد الفقي، جمع محمد أويس الندوي، دار الكتب العلمية، بيروت طبعة ١٩٧٨م، ص٢٤٦.

(٢) التفسير القيم ص٢٤٧.

الفصل الثالث

آداب عامة في الخطاب القرآني

» أولاً: الاستحياء والاحتشام

راعىٰ الخطاب القرآني هذا الخلق الرفيع، فلا تكاد تجد فيه عبارة واحدة تجرح الحياء أو تنافي الاحتشام والتأدب، وقد سلك في هذا السبيل مسالك متنوعة منها:

١- استعمال الكناية في الأمور التي يستحيىٰ من التصريح بها، كما كنىٰ عن الجماع باللباس والمباشرة بقوله سبحانه: ﴿هن لباس لكم وانتم لباس لهن﴾ البقرة (١٨٧).

وقوله ﴿فَٱلْـَٔـٰنَ بَـٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ البقرة(١٨٧).

وقوله ﴿فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ البقرة (٢٢٣) وبالملامسة في قوله تعالىٰ: ﴿أو لامستم النساء﴾ النساء(٤٣) وكنىٰ عن قضاء الحاجة بالمجيء من الغائط[1] في قوله ﴿او جاء احد منكم من الغائط﴾النساء(٤٣).

وفي موضع آخر كنىٰ عن قضاء الحاجة[2] بقوله سبحانه في شأن المسيح عليه السلام وأمه: ﴿كانا ياكلان الطعام﴾ المائدة(٧٥). والذي يتناول الطعام يحتاج إلىٰ قضاء الحاجة.

وفي قوله تعالىٰ ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ﴾ يوسف(٢٣). كناية عما تطلب المرأة من الرجل.

ومعلوم أن الكناية هي الدلالة علىٰ الشيء من غير تصريح باسمه[3].

٢- التستر علىٰ اسماء النساء مبالغة في الستر لهن والاغضاء عنهن باستثناء السيدة مريم عليها السلام.

---

(١) الغائط: المطمئن من الأرض،وكان الرجل منهم إذا اراد أن يقضي الحاجة أتىٰ الغائط وقضىٰ حاجته. انظر مختار الصحاح ص٤٨٤.

(٢) انظر البرهان(٢/ ٣٠٣-٣٠٤) وانظر الموافقات في أصول الشريعة(٢/ ١٠٥).

(٣) البرهان (٢/ ٣٠١).

من ذلك قوله تعالىٰ: ﴿وامراته قائمه﴾ هـو(٧١) وقوله ﴿وامرأته حمالة الحطب﴾ المسد(٤).

وقوله ﴿الا امرأته كانت من الغابرين﴾ الأعراف (٨٣).

وقوله ﴿ووجد من دونهم امرأتين تذودان﴾ القصص(٢٣) وقوله ﴿وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي﴾ الاحزاب(٥٠) وقوله ﴿إني أريد أن انكحك أحدى ابنتي هتين﴾ القصص(٢٧).

وقد قالت العرب قديماً: من الكرم ستر الحرم[1] وإنما ذكر النص الكريم اسم السيدة مريم لحكمة بالغة ذكرها الامام الزركشي فقال"قيل: لم يذكر الله تعالىٰ امرأة في القرآن وسماها باسمها الا مريم بنت عمران فإنه ذكر اسمها في نحو ثلاثين موضعاً لحكمة ذكرها بعض الأشياخ قال:

إن الملوك والأشراف لا يذكرون حراترهم، ولا يبتذلون اسماءهن؛ يكنُّون عن الزوجة بالعرس والعيال والأهل ونحوه،فإذا ذكروا الاماء لم يكنّوا عنهن، ولم يصونوا اسماءهن عن الذكر، والتصريح بها.

فلما قالت النصارىٰ في مريم وابنها ما قالت صرح الله تعالىٰ باسمها ولم يكنِّ عنها تأكيداً لأمر العبودية التي هي صفة لها واجراء للكلام علىٰ عادة العرب في ذكر ابنائها. ومع هذا فإن عيسىٰ لا أب له واعتقاد هذا واجب. فإذا تكرر ذكره منسوباً إلىٰ الأم استشعرت القلوب ما يجب عليها اعتقاده من نفي الأب عنه وتنزيه الأم عن مقالة اليهود لعنهم الله"[2].

ومن هذا النوع قوله تعالىٰ: ﴿فلا يُخرجنكما من الجنة فتشقى﴾ طه(١١٧).ومن هذا

---

(١) الاتقان في علوم القرآن(٢/ ٣٤).

(٢) البرهان في علوم القرآن(١/ ١٦٣).

النوع قوله تعالى: ﴿فلا تخرجنكما من الجنة فتشقى﴾ طه(١١٧) قال في الاتقان: (قيل: أفرده (يعني آدم) بالشقاء إغضاءً عن ذكر المرأة).

قلت : ولقد يكون هناك حكمة اخرى هي ان ادم عليه السلام هو السئول عن طلب الرزق.

ومنه قوله تعالى: ﴿وقلنا يا آدم اسكن انت وزوجك الجنة﴾ البقرة(٣٥) ولم يقل حواء[١].

وقد راعى سيدنا يوسف عليه السلام هذا الأدب الرفيع فيما حكى المولى سبحانه عنه فقال: ﴿قال هي راودتني عن نفسي﴾ يوسف (٢٦).

قال ابو السعود: (التعبير عنها بضمير الغيبة دون الخطاب أو اسم الإشارة مراعاة لحسن الأدب مع الإيماء إلى الإعراض عنها)[٢].

ومراعاة لذلك لم تتكرر قصة يوسف عليه السلام في القرآن الكريم في حين تكررت معظم القصص القرآنية، ففي ذلك إغضاء وستر، حيث إن السورة تتضمن تشبيب النسوة به، والإخبار عن حال امرأة ونسوة افتتن بأبدع الناس جمالاً وأرفعهم مثالاً[٣].

» فائدة:

جاء في تفسير ابن القيم المسمى(التفسير القيم) حول قوله تعالى: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ يوسف(٣٠):

وقوله: "هذا كلام متضمن لوجوه من المكر:

١. قولهن ﴿ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ﴾ ولم يسمينها باسمها بل ذكرها بالوصف الذي ينادى عليها بقبيح فعلها، بكونها ذات بعل فصدور الفاحشة من ذا ت زوج أقبح من صدورها ممن لا زوج لها.

٢. إن زوجها عزيز مصر ورئيس مصر وكبيرها، وذلك أقبح لوقوع الفاحشة منها.

---

(١) البرهان(١/ ١٥٦)

(٢) تفسير ابو السعود(٣/ ٩٧)

(٣) انظر البرهان(٣/ ٢٩)

٣. إن الذي تراودهُ مملوك لا حر، وذلك ابلغ في القبح.

٤. إنه فتاها الذي هو في بيتها،وتحت كنفها،فحكمه حكم أهل البيت، بخلاف من تطلب ذلك من الاجنبي البعيد.

٥. إنها هي المراودة الطالبة.

٦. إنه قد بلغ عشقها له كل مبلغ ووصل حبه إلىٰ شغاف قلبها.

٧. إنه في ضمن هذا أعفُّ منها وأبر وأوفىٰ حيث كانت هي المراودة الطالبة وهو المتمنع عفافاً وكرماً وحياءً. وهذا في غاية الذم لها.

٨. انهن أتين بفعل المراودة بصيغة المستقبل الدالة علىٰ الاستمرار والوقوع حالاً واستقبالاً وأن هذا شأنها، ولم يقلنَ: راودت فتاها. وفرق بين قولك: فلان أضاف ضيفاً، وفلان يُقري الضيف ويطعم الطعام ويحمل الكل، فإن هذا يدل علىٰ أن هذا شأنه وعادته.

٩. قولهن ﴿إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي إنا لنستقبح منها ذلك غاية الاستقباح.

١٠. إنهن جمعن لها في هذا الكلام، واللوم بين العشق المفرط والطلب المفرط، فلم تقتصد في حبها ولا في طلبها.

فأما العشق: فقولهن ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ أي وصل حبه إلىٰ شغاف قلبها.وأما الطلب المفرط: فقولهن ﴿تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا﴾ والمراودة: هي الطلب مرة بعد مرة، فنسبنها إلىٰ سكرة العشق، وشدة الحرص علىٰ الفاحشة"[١].

قلت: ومع أن هذا الكلام يتضمن كما قال ابن القيم رحمه الله هذه الصور الكثيرة من المكر فإنه يتضمن معرفة عميقة بأصول البلاغة، وفنون الكلام وتصاريف القول وأساليب البيان وهذه علوم اساسية لا بد منها لكل راغب في الاطلاع علىٰ اسرار الخطاب القرآني.

---

(١) التفسير القيم ص٣١٤.

» ثانياً: أدب المناظرة

القرآن الكريم لا يتجه في المناظرة إلى مجرد الإفحام والإلزام بل يتجه في الكثير الغالب إلى إرشاد المخاطبين والأخذ بأيديهم إلى الحق، بعيداً عن التعصب، مع الالتزام بالقول المهذب، واستخدام الادلة المقنعة مراعياً بذلك بل مؤسساً القواعد العامة للجدال بالتي هي أحسن؛ وذلك بقصد التوصل إلى الحقيقة، التي هي الثمرة المنشودة للمناظرة.

ومن هذه الآداب.

- **اولاً:** عدم المفاجأة بالرد كفاحاً (أي مواجهة ومباشرة) دون التغاضي بالمجاملة والمسامحة، وهو نوع من المجاراة لاستنزال الخصم، وتليين موقفه، وإطفاء نار عصبيته[(١)].

من ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ﴾ هود(٣٥).

قال الفخر الرازي عند تفسيره لهذه الآية الكريمة: (لا يدل ذلك على أنه كان شاكاً، الا أنه قول يقال على وجه الإنكار عند اليأس من القبول)[(٢)].

ومن هذا النوع قوله تعالى: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ ابراهيم(١١).

قال ابو السعود ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ﴾ مجاراة لهم في أول مقالتهم ﴿إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ كما يقولون ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ﴾ بالنبوة ﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ يعنون أن ذلك عطية من الله تعالى يعطيها من يشاء من عباده بمحض التفضل والامتنان من غير داعية موجبة)[(٣)].

---

(١) الموافقات في أصول الشريعة(٢/ ١٠٦).

(٢) تفسير فخر الرازي(١٧/ ٢٢٩).

(٣) تفسير ابو السعود(٣/ ١٨٢).

- ثانياً: اخراج الكلام مخرج الشك في اللفظ دون الحقيقة لضرب من المسامحة وحسم العناد.

من ذلك قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ الزخرف(٨١) قال ابو السعود في تفسيره لهذه الآية الكريمة:

(قل) أي قل للكفرة تحقيقاً للحق وتنبيهاً لهم علىٰ أن مخالفتك لهم بعدم عبادتك لما يعبدونه من الملائكة عليهم السلام ليست لبغضك ولعداوتك لهم أو لمعبوديهم بل إنما هو لجزمك باستحالة ما نسبوا اليه وبنوا عليه عبادتهم من كونهم بنات الله تعالىٰ (إن كان للرحمن ولد فإنا أول العابدين) أي له وذلك لأنه عليه الصلاة والسلام أعلم الناس بشؤونه تعالىٰ، وبما يجوز عليه وبما لا يجوز، وأولاهم بمراعاة حقوقه، ومن مواجب تعظيم الوالد تعظيم ولده.

وفيه من الدلالة علىٰ انتفاء كونهم كذلك علىٰ أبلغ الوجوه وأقواها، وعلىٰ كون الرسول صلىٰ الله عليه وسلم علىٰ قوة يقين وثبات قدم في باب التوحيد ما لا يخفىٰ، مع ما فيه من استنزال الكفرة عن رتبة المكابرة)[١].

وقال الشيخ الألوسي رحمه الله مبيناً سر اختيار (إن) علىٰ (لو) في قوله تعالىٰ (قل إن كان للرحمن ولد):

"جيء بـ (إن) دون (لو) لجعل ما في حيزها بمنزلة ما لا قطع بعدمه علىٰ طريق المساهلة وارخاء العنان، للتبكيت والافحام"[٢]. ومعلوم ان الشرطية التي تفيدها (إن) المكسورة الخفيفة الأصل فيها عدم جزم المتكلم بوقوع الشرط[٣].

وقد سبق بيان ما في قوله تعالىٰ: ﴿**وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين**﴾

---

(١) نفسه(٥/ ٥٥٢).

(٢) تفسير روح المعاني(٢٥/ ١٠٤).

(٣) البرهان(٤/ ٢١٥).

سبأ (٢٤) من تأدب في الحجاج والمناظرة مما يمكن أدراجه أيضاً ضمن هذا النوع من الآداب[١]. التي يحسن بنا نحن أن نلمّ بها وأن نوظفها في خدمة القرآن الكريم والأهداف العالية التي نزل من أجلها.

وقد نهج القرآن الكريم في باب المناظرة والاستدلال منهجاً يؤكد الغاية التي نزل من أجلها، وينسجم معها، حيث اعتمد على مصادر استدلال متنوعة تناسب جميع المستويات والأزمنة.

ومن هذه المصادر[٢]:

١- **التعريف**: وهو أن يأخذ من ماهية الموضوع دليل الدعوى كالأخذ من حقيقة الاصنام أنها لا تصلح أن تكون معبوداً كما في قوله تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾﴾ الشعراء(٦٩-٧٧).

ومن بيان صفات الله أنه وحده المستحق للعبادة. من ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾﴾ الانعام (٩٥-٩٦).

قال الفخر الرازي في تفسير هذه الآية: "أعلم أن الله تعالى لما تكلم في التوحيد، ثم اتبعه بتقدير أمر النبوة، ثم تكلم في بعض تفاريع هذا الأصل، عاد ههنا إلى ذكر الدلائل الدالة على وجود الصانع، وكمال علمه وحكمته، وقدرته تنبيهاً على أن

---

(١) انظر ص١٢٥ من هذه الرسالة.

(٢) اعتمدت في هذا الموضوع بشكل أساسي على كتاب الشيخ محمد ابو زهرة (المعجزة الكبرى/ القرآن) انظر: ابو زهرة، محمد، (المعجزة الكبرى/ القرآن) دار الفكر العربي، القاهرة، ص٣٤٧ وما بعدها.

المقصود الأصلي من جميع المباحث العقلية والنقلية، وكل المطالب الحكمية إنما هو معرفة الله بذاته وصفاته وافعاله"(١).

وهذا التعريف الذي عرضته الآية الكريمة بالله سبحانه وبصفاته العليا يؤدي بالضرورة إلى التسليم والاذعان بأن الله هو المستحق للعبادة لا غيره فإن أحداً لا يقدر ولا يزعم أنه فالق الحب والنوى، أو أنه يخرج الحي من الميت أو أنه يستطيع أن يأتي بالصبح من أعماق الليل أو أن له أثراً ما في جعل الليل سكناً،أو ما شابه ذلك من الصنائع التي لا يقدر عليها إلا إله واحد أحد فرد صمد، فيقف مستسلماً أمام هذه القدرة القادرة والقوة القاهرة موقف العبد الضعيف من مولاه.

ومن هذا النوع قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾﴾ المؤمنون(١٢-١٤).

قال الفخر الرازي في تفسيره لهذه الآية:"اعلم أن الله تعالى لما أمر بالعبادات في الآية المتقدمة، والاشتغال بعبادة الله لا يصح الا بعد معرفة الاله الخالق، لا جرم عقبها بذكر ما يدل على وجوده واتّصافه بصفات الجلال والوحدانية فذكر أنواعاً من الدلائل:

النوع الأول: الاستدلال بتقلب الإنسان في أدوار الخلقة وأكوان الفطرة..."(٢).

وهكذا يشير الشيخ الرازي رحمه الله إلى أهمية التعريف بصفات المولى سبحانه وأثرها في الاشتغال بعبادته تبارك تعالى.

٢- **التجزئة**: وهي ذكر أجزاء الموضوع، ومن تتبع هذه الأجزاء يكون اثبات الدعوى.

---

(١) تفسير الفخر الرازي(١٣/ ٩٤).

(٢) تفسير الفخر الرازي(٢٣/ ٨٤).

من ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ البقرة(١٦٤).

قال الشيخ الرازي في تفسيره لهذه الآية: "أعلم أن الله سبحانه وتعالى لما حكم بالفردانية والوحدانية ذكر ثمانية أنواع من الدلائل التي يستدل بها على وجوده سبحانه أولاً وعلى توحيده وبراءته عن الأضداد ثانياً"[1].

وهذه الأدلة الثمانية (اختلاف الليل والنهار، الفلك، إنزال الماء..) إذا تتبعناها واحدة تلو الأخرى، ثم جمعنا ما توصلنا اليه كحصيلة لهذا التتبع، وجدنا فيها الدليل الواضح على الوحدانية، حيث إن كل واحد من هذه الأدلة الثمانية يُعَدُّ جزءاً من الدليل الرئيسي الذي يعرضه النص الكريم.

٣- **التعميم ثم التخصيص**: وهو أن تذكر قضية عامة، تؤدي إلى اثبات الدعوى باجمالها، ثم تعرض لجزئيات القضية فتبرهن على أن كل جزئي يؤدي إلى اثبات الدعوى المطلوب اثباتها.

من ذلك قوله تعالى: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ (٤٩) قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ (٥٠) قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ (٥١) قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى (٥٢) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ (٥٣) كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ (٥٤)﴾ طه(٤٩، ٥٤).

فقوله تعالى: ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ دليل واضح عام شامل على وحدانية الله تعالى، انتقل النص القرآني منه ليعرض جزئيات من هذا الدليل كل واحد منها كاف بحد ذاته للدلالة على الوجود والوحدانية من هذه الجزئيات ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا﴾ و﴿وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ و﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ﴾.

---

(١) نفسه(٢/ ١٩٦).

٤- **العلة و المعلول:** وهي أن تذكر العلة وتبين السبب كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾ البقرة (١٩٠).

فمن فنون الخطاب العالية ألا نحوج المخاطب إلىٰ طلب الدليل والبحث عن العلة، فما أن ينشأ في نفسه التساؤل عن ذلك حتىٰ يأتيه الجواب قبل أن يطلبه.

ومن ذلك قوله تعالىٰ(وقاتلوهم حتىٰ لا تكون فتنة) الانفال(٣٩) فقد بين النص القرآني علة القتال قبل أن يسأل عنه السامع أو المخاطب.

قال الشيخ المفسرين الطبري: (قاتلوهم حتىٰ لا يكون شرك، ولا يعبد الا الله وحده، لا شريك له، فيرتفع البلاء عن عباد الله من الأرض، وهو الفتنة ويكون الدين كله لله. يقول: وحتىٰ تكون الطاعة والعبادة كلها لله خالصة له دون غيره)[(١)]. ثم ذكر بضعة آثار تشير إلىٰ معان أخرىٰ مقاربة لما ذكر، منها: (حتىٰ لا يكون شرك، حتىٰ يقال لا اله الا الله، حتىٰ لا يفتن مؤمن عن دينه، حتىٰ لا يكون كفر).

٥- المقابلة: وتكون بين شخصين أو شيئين لمعرفة أيهما المؤثر في عمل معين ليكون له التقدم علىٰ غيره من ذلك قوله سبحانه: ﴿**افمن يخلق كمن لا يخلق. افلا تذكرون**﴾ النحل(١٧).

فالخطاب القرآني هنا يقابل بين موجودين أحدهما يخلق ويوجد الأشياء من العدم، والآخر لا يخلق ولا يقدر علىٰ إيجاد أي شيء من العدم، ثم يضع المخاطب أمام السؤال الذي لن يجد له الا جواباً واحداً يعلن فيه استسلامه وإذعانه وأن من يخلق ليس كمن لا يخلق.

﴿**فتبارك الله أحسن الخالقين**﴾ المؤمنين(١٤). ومن هذا النوع قوله تعالىٰ: ﴿أَفَرَءَيۡتُم مَّا تُمۡنُونَ ۝٥٨ ءَأَنتُمۡ تَخۡلُقُونَهُۥٓ أَمۡ نَحۡنُ ٱلۡخَٰلِقُونَ﴾ الواقعة(٥٨،٥٩).

---

(١) الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحقيق محمود محمد شاكر، راجع الاحاديث احمد محمد شاكر، دار المعارف، مصر(١٣/ ٥٣٨،٥٣٩).

فهذه مقابلة بين العبد وربه من حيث الخلق والتصوير والتقدير فمن هو الذي يصور النطفة بشراً سوياً[١].

﴿ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ والجواب محسوم معروف لا يحتاج إلى تردد، ولكن من شأن صيغة المقابلة هنا أن تعيد الخصم إلى صوابه من أقرب طريق، وهذه ميزة الأساليب القرآنية التي ترمي إلى إرشاد الناس، وتعريفهم بالله وبعظمة الله سبحانه وتعالى.

٦- **التشبيه والأمثال:** وهو آخر هذه الطرق الحكيمة في الاستدلال والمناظرة والتي يستفاد منها في تقريب الحقائق وتوضيح المعاني الكلية بالمشاهد الجزئية، والاستدلال بحال الحاضر على الغائب[٢].

والامثال القرآنية يستفاد منها أمور كثيرة: منها التذكير والوعظ والحث والزجر والاعتبار وغيرها، وسمي المثل مثلاً لأنه ماثل بخاطر الإنسان أبداً، فيتأسى به ويتعظ. ومن حكمة الأمثال تعليم البيان الذي هو من خصائص هذه الشريعة.

وتعلق الأمثال بالذهن أكثر من المعاني المعقولة المجردة عن الحس، لأن الامثال تعطي المعاني صوراً محسوسة. ولذلك تستعمل الأمثال لتشبيه الخفي بالجلي، والشاهد بالغائب، حتى تنكشف معانيها وتظهر فوائدها وحكمتها[٣].

من ذلك قوله تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾﴾ الكهف(٣٢-٣٤).

فهو مثل ضربه الله سبحانه للفريقين الكافر والمؤمن، أي إضرب مثلاً للكافرين

---

(١) تفسير ابو السعود(٥/ ٦٧٦).

(٢) البرهان(١/ ٤٨٨).

(٣) البرهان(١/ ٤٨٨).

والمؤمنين من حيث عصيان الأولين مع تقلبهم في نعم الله، وطاعة الآخرين مع مكابدتم مشاق الفقر، بحال رجلين مقدرين أو محققين[1].

وهذا المثل يقرب ويوضح حقائق ايمانية وقيمية كثيرة من أهمها:

١. الاستكثار بالمال قيمة جاهلية زائلة.

٢. كثرة الانصار والاولاد والاتباع في الدنيا ليست نافعة في الآخرة بالضرورة.

٣. الاغترار بالمتاع الزائل، والظن الخاطئ بانه باق مع أنه نافد زائل، شيمة الغافلين.

٤. إنكار قيام الساعة ينسجم مع أجواء الغفلة عن الله سبحانه.

٥. قياس منازل الآخرة على منازل الدنيا غير صحيح وفاسد فكم من عال في الدنيا نازل في الآخرة.

وميزة هذا المثل أنه أوصل الحقائق والمعاني المذكورة بأقصر طريق وبأوضح بيان.

ومن الأمثلة القرآنية التي تخدم الأغراض المذكورة فتقرب الحقائق وتوضح المعاني بمشاهدة جزئية قوله تعالى في سورة القلم ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾﴾. القلم (١٧-٢٠).

****

(١) انظر تفسير ابو السعود(٣/ ٣٧٩).

» ثالثاً: مخاطبة الناس على قدر عقولهم

لما كان مقصد الخطاب القرآني تفهيم المكلفين ما لهم وما عليهم مما فيه صلاح دينهم ودنياهم وآخرتهم، ولما كانت الافهام متفاوتة، والعقول متباينة، فقد راعى الخطاب القرآني هذا التفاوت والتباين، فجاءت عبارات القرآن سهلة ميسرة، لا تستعصي على فهم الإنسان السوي، إذا نظر إليها وتدبرها: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ القمر(١٧) فنجد الآيات القرآنية بما فيها من قصص وأمثال وتشبيهات وعبر ومواعظ وأحكام نجدها قريبة من فهم القارئ أو السامع، دون أن يغضّ هذا اليسر وهذه السهولة من اعجاز هذا الكتاب الكريم.

ويستطيع كل قارئ للقرآن أن يأخذ منه نصيبه من الفهم والاستيعاب بقدر ما ييسر الله له من وسائل المعرفة والاطلاع، وبقدر ما ينشرح له صدره لاستقبال انواره وبركاته.

وقد راعى الخطاب القرآني مستويات الناس المختلفة، فلم يحدثهم بما لا تستوعبه عقولهم ولا تدركه أفهامهم.

فعند حديث القرآن الكريم عن الأهلة في قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ البقرة(١٨٩).

نلاحظ أن الاجابة اتجهت إلى واقع الحياة العملي لا إلى مجرد العلم النظري؛ فقد حدثهم النص الكريم عن فائدة الاهلة في واقعهم، وحياتهم، ولم يحدثهم عن الدورة الفلكية للقمر وكيف تتم، ولم يحدثهم عن وظيفة القمر في المجموعة الشمسية أو في توازن حركة الأجرام السماوية.

رغم أن هذا كله داخل في إجابة السؤال الذي جاء النص الكريم للإجابة عليه وهو: لماذا خلقت الأهلة؟!.

لقد عدل القرآن الكريم عن الاجابة التي لم تتهيأ لها البشرية ولا تفيدها كثيراً في

المهمة الأولى التي جاء القرآن من أجلها، وليس مجالها على أية حال هو القرآن يضاف إلى ذلك أن العلم النظري بالنسبة للبشرية في ذلك الوقت كان بحاجة إلى مقدمات طويلة، تعد بالقياس إلى عقلية العالم إذ ذاك من المعضلات[١].

وعند حديثه عن الايات الدالة على الله سبحانه في السماء والأرض لفت الخطاب القرآني النظر إلى آيات مبسوطة أمام الجميع، يدرك كل من ينظر إليها عظمة الخالق وقدرته المبدعة.

فقال سبحانه (على سبيل المثال): ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾﴾ الغاشية(١٧-٢٠).

فهذه الآيات المبثوثة في السماء والأرض لا يتكلف الناس شططاً في سبيل إدراكها. بخلاف ما لو تحدثت الآيات عن تركيب الخلية مثلاً ووظائفها، والعوامل الوارثية ودورها في تحديد صفات الجنين، أو تحدثت عن الذرة ومكوناتها ومداراتها أو غير ذلك من الأمور التي لا يحسن فهمها إلا نفر قليل وعدد يسير. ولا عجب في ذلك فهو كتاب الله الذي يرضى خطابه عامة للناس وخاصتهم، بل هو خطاب الله إليهم أجمعين.

وقد سبق بيان حكمة اخراج الخطاب القرآني أحياناً على خلاف مقتضى الظاهر وتلقي المخاطب بغير ما يترقب، والسائل بغير ما يتطلب وذلك تنبيهاً على أنه هو الأولى بالقصد، وتذكيراً له بالطف وجه على تعدّيه عن موضوع سؤال هو أليق بحاله أن يسأل عنه[٢]. وذلك وضعاً للعقول والافهام في حدودها المأمونة، وتنبيهاً لها على العمل والاجتهاد في ميدان مثمر نافع يخدم قضايا الإنسان ويراعي أولويات حاجاته وفيه أيضاً تذكير بأن على الإنسان أن يجتهد في معرفة الأمور الضرورية التي يعاب على جهلة بها، وأن ينصرف عن البحث والتنقيب عن أمورِ الجهلُ بها لا يضر، والعلم بها لا ينفع كالذي

---

(١) في ظلال القرآن(١/ ٢٥٩) وقد سبق الحديث عن هذا الآية الكريمة ص٨٣ ولكن زاوية أخرى.

(٢) انظر ص٨٢ من هذا الرسالة، وأنظر تلخيص المفتاح ص٩٠-٩١.

يسأل عن الثمن البخس الذي اشتري به سيدنا يوسف عليه السلام[1] فيما تشير إليه الآية الكريمة ﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴾ يوسف(٢٠).

أو كالذي يجتهد في التعرف على اسم القرية[2] التي يشير إليها قوله تعالى ﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا .. ﴾ البقرة(٢٥٩).

وقوله ﴿وأضرب لهم مثلاً أصحاب القرية﴾ يس(١٣) وفي هذا صون للعقل الإنساني أن يستخدم في توافه الأمور وصون للوقت أن ينفق في ما لا يجدي.

ومن هذا النوع من آداب الخطاب إجابته عليه السلام لمن جاء يسأله عن الساعة: (ماذا أعددت لها؟)[3] ففي هذا توجيه للسائل إلى الموضوع الأهم الذي يجب أن يكون السؤال عنه، فماذا يفيدنا العلم بالساعة إن لم يكن منا عمل صالح نلقى به المولى سبحانه وتعالى في ذلك اليوم.

****

---

(١) البوطي، محمد سعيد رمضان، (من الفكر والقلب) مكتبة الفارابي دمشق طبعة١٩٦٩ ص١٩٥.

(٢) في ظلال القرآن(١/ ٤٣٨).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب فضائل الصحابه، باب مناقب عمر بن الخطاب، انظر فتح الباري(٧/ ٤٢) ومسلم في كتاب البر والصلة والآداب، باب المرء مع من أحب، وانظر صحيح مسلم بشرح النووي(١٦/ ١٨٦).

» رابعاً: البساطة والبعد عن التكلف

البساطة وعدم التعقيد والبعد عن التكلف سمات واضحة للخطاب القرآني، مثلما هي سمات للشريعة الإسلامية وللعقيدة الإسلامية على حد سواء.

وقد تركت هذه السمات آثارها واضحة على نمط الحياة الإسلامية بشكل عام؛ فهي حياة ميسورة بسيطة، لا تكلف فيها ولا شطط.

ونلمح طابع البساطة في القرآن الكريم في تشبيهاته وأمثاله، في قصصه ومواعظه، في أحكامه وتشريعاته على حد سواء، بل نهى القرآن صراحة عن التكلف فقال سبحانه: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾ ص(٨٦).

يقول الفخر الرازي في تفسيره لهذه الآية الكريمة: إن هذا الذي ادعوكم إليه دين ليس يحتاج في معرفة صحته إلى التكلفات الكثيرة بل هو دين يشهد صريح العقل بصحته)[١].

ولنتأمل - مثلاً - واحداً من تشبيهات القرآن وأمثاله، قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا﴾ النور(٣٩) لنلاحظ طابع البساطة في النص الكريم، حيث يفهم المقصود منه كل متأمل راغب في الفهم، فالسراب أمر معروف للناس وهو ما يرى في الفلوات من لمعان الشمس عليها عند الظهيرة، فيظن أنه ماء يسرب أي يجري، وهو في حقيقته ليس ماءً.

وقد أدى التشبيه الغرض المقصود منه بأيسر طريق، فالناس يدركون مدى خيبة من يتبع السراب ظاناً إياه ماءً، فهو تشبيه من وحي البيئة التي نزل فيها القرآن، ثم إن أهل الحضر أيضاً يعرفون السراب، فلا تكلف في هذا التشبيه، بل لقد أدى الغرض المقصود منه وكأننا نراه رأي العين.

وأمثال القرآن كذلك بسيطة واضحة، لا تعقيد فيها، ولا تكلف، فهي مأخوذة من واقع

(١) تفسير الفخر الرازي(١٣/ ٢٣٦).

الناس الذين نزل عليهم القرآن لكي يكون الاعتبار بها أكثر والتأثر بها أوفر مثال ذلك: قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَـٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ۖ هَلْ يَسْتَوُۥنَ ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ النحل (٧٥).

وقوله: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ۖ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ ۙ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ النحل (٧٦).

قال صاحب (في ظلال القرآن)

"فالمثل الأول مأخوذ من واقعهم، فقد كان لهم عبيد مملوكون، لا يملكون شيئاً ولا يقدرون على شيء، وهم لا يسوّون بين العبد المملوك العاجز والسيد المالك المتصرف، فكيف يسوون بين سيد العباد ومالكهم وبين أحد أو شيء مما خلق. وكل مخلوقاته له عبيد؟!

والمثل الثاني: يصور الرجل الأَبكم البليد الضعيف، الذي لا يدري شيئاً، ولا يعود بخير، والرجل القوي المتكلم الآمر بالعدل العامل المستقيم على طريق الخير. ولا يسوّي عاقل بين هذا وذاك، فكيف يمكن التسوية بين صنم أو حجر وبين الله سبحانه وتعالى، وهو القادر العليم الآمر بالمعروف الهادي إلى صراط مستقيم"؟![1].

فلا نجد في أي من المثالين السابقين أدنى تكلف في سبيل فهم المقصود منه وإدراكه، بخلاف أقوال المتكلمين والفلاسفة(ولله المثل الأعلى) التي تعقد الفكرة وتغيبها عن القارئ أو السامع أكثر مما تخدمها وتبرزها[2].

وقصص القرآن هي الأخرى تمتاز بسهولتها وابتعادها عن التكلف، وتأديتها الغرض

---

(١) تفسير في ظلال القرآن(٥/ ٢٦٤).

(٢) الكردي، راجح عبد الحميد، (علاقة صفات الله بذاته) دار العدوي للتوزيع عمان، طبعة اولى عام ١٩٨٠، ص١٠٤ وانظر ص٧٥.

الذي سيقت من أجله بأقصر عبارة على نحو يعجز الخلق أجمعين، ولنستمع: ﴿هَلْ أَتَنكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَنهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَرَنهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾ النازعات (١٥-٢٦).

فها هي قصة نبي بعثه الله إلى أحد جبابرة زمانه، فدعاه إلى الله، وأراه الآيات الدالة على صدقه، فنكل ولم يستجب له، فنال ما يستحقه من العذاب والعقاب.

قصة كاملة انتظمتها ثلاثة أسطر في كتاب الله تعالى، ومع ذلك فهي واضحة لا غموض فيها ولا إبهام، تؤدي الغرض الذي سيقت من أجله على الكمال والتمام.

ومواعظ القرآن هي الأخرى سهلة مفهومة حتى للناشئين والمبتدئين، ليس فيها صعوبة، ولا تستغلق عباراتها على ذوي العقول والافهام، ولنستمع إلى قوله سبحانه: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ يَبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾﴾ لقمان (١٣-١٧) نلاحظ.

أن مقصد الآيات تفهيم الناس وتوجيههم وارشادهم إلى الصواب والحق، وليس اظهار قدرة المتكلم على التعبير، كما هو شأن الكثيرين من علماء الكلام والمناطقة ولا عجب في ذلك فالقرآن كتاب هداية ورحمة للعالمين، يخاطب الناس على اختلاف عقولهم وأماكنهم ولغاتهم وأزمنتهم، فأنى لبشر أن يقدر على مثل ذلك دون أن يقع في انتقادات كثيرة تتعلق بالالفاظ والمعاني على حد سواء.

وهذا المنهج القرآني في عرضه الميسر لما يبينه من قصص وأحكام ومواعظ وأمثال وغيرها ينزع بالمسلمين نحو البساطة والبعد عن التكلف وهو أدب رفيع من آداب الخطاب، تنشرح بسببه الصدور وترتاح له النفوس، وتستقبل من أجله الكلام بارتياح وسرور ويقع منها موقع الرضى والقبول.

****

» خامساً: تجنب ما يثقل ذكره على النفوس

وهـذا أدب قرآني فريد يضـاف إلىٰ أدابـه الكثيرة التـي لا يحصيها عـدٌّ، ولا يحيط بها بيان، فعباراتـه وكلماته مختـارة منتقاه تنسـاب في النفس إنسـياب الماء الـزلال في جدوله لتعمل من داخلها، فيخبت لها القلب وتخشع لها الجوارح.

ومن أسـرار هذه الاسـتجابة الداخلية للخطاب القرآني أنه يتعامل مع النفس الإنسانية بكل أبعادها ويستجيب لكل اشواقها وتطلعاتها، متجنباً كل ما تنفر منه النفس السوية، وآتياً كل ما يرهف المشاعر، ويهذب العواطف، ويقوي الاتجاه نحو الخير والفضيلة.

ومن ملامح ذلك مايلي:

١- بعض الكلام يفحش ذكره في السـمع، فيكنىٰ عنـه القرآن بما لا ينبـو عنه الطبع، وذلك انسـجاماً مـع المنهج القرآنـي المتمثل في قولـه تعالـىٰ: ﴿**وإذا مروا باللغو مروا كراماً**﴾ الفرقان(٧٢).

من هـذا النـوع قولـه تعالـىٰ: ﴿يَجۡعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلۡمَوۡتِۚ وَٱللَّهُ مُحِيطُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ البقرة(١٩).

وإنما يوضع في الأذن السبابة، فذكر الأصبع، وهو الاسـم العام أدباً[١] لاشتقاقها من السبّ، ولهذا تكنىٰ بالمسبحة والمهللة والدعاءة، وإنما اجتنب ذكر أي من هذا الكنايات لأنها لم تكن في عهد التنزيل[٢].

ومن هذا النوع قوله تعالىٰ: ﴿**الخبيثات للخبيثين**﴾ سورة النور(٢٦) يريد الزناة[٣].

قال صاحـب البرهان: (فـإن قيل: قد قـال اللـه تعالىٰ "والتي أحصنـت فرجها" فصرح بالفـرج؟! قلنـا: أخطـأ مـن توهـم هنـا الفـرج الحقيقـي، وإنما هـو مـن لطيـف الكنايات

---

(١) انظر تفسير ابو السعود(١/ ٦٥).

(٢) الكشاف (٣/ ٢١٧) وانظر البرهان (٢/ ٣٠٦).

(٣) البرهان(٢/ ٣٠٦).

وأحسنها، وهي كناية عن فرج القميص، أي لم يعلق ثوبها ريبة، فهي طاهرة الأثواب.

وفروج القميص أربعة: الكمان والأعلىٰ والاسفل، وليس المراد غير هذا. فإن القرآن أنزه معنىٰ والطف إشارة، وأملح عبارة من أن يريد ما ذهب إليه وهم الجاهل[1].

٢- وضع الخبر موضع الطلب في حالتي الأمر والنهي، وذلك تجنباً لاستعمال صيغة الأمر أو النهي المباشر لما أن النفوس تستثقل ذلك. أما العدول عنهما إلىٰ صيغة الخبر فهو أدعىٰ للاستجابة وأبلغ من صريح الأمر والنهي، لما فيه من إبهام أن المنهي حقه أن يسارع إلىٰ الانتهاء عنه، فكأنه انتهىٰ فيخبر به الناهي[2].

من ذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ البقرة(٨٣).

ذكر الفخر الرازي في قوله تعالىٰ(لا تعبدون) أقوالاً: أحدها أن موضع (لا تعبدون) علىٰ النهي الا أنه جاء علىٰ لفظ الخبر كقوله تعالىٰ ﴿لا تضار والده بولدها﴾ بالرفع والمعنىٰ علىٰ النهي.

وذكر أن الإخبار في معنىٰ النهي آكد وأبلغ من صريح الأمر والنهي، كأنه سورع فيه إلىٰ الامتثال والانتهاء، فهو يخبر عنه[3].

ومنه قوله سبحانه: ﴿ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾ البقرة(٢٢٨) قال الرازي لا ﴿يَتَرَبَّصْنَ﴾ لا شك أنه خبر والمراد منه الأمر. فما الفائدة في التعبير عن الأمر بلفظ الخبر؟ والجواب من وجهين:

- **الأول**: أنه تعالىٰ لو ذكر بلفظ الأمر لكان ذلك يوهم أنه لا يحصل المقصود الا اذا شرعت فيها بالقصد والاختيار.

---

(١) البرهان(٣/ ٤٥٠).

(٢) تفسير ابو السعود(١/ ١٤٨).

(٣) تفسير الفخر الرازي(٦/ ١٧٦).

- الثاني: قال صاحب الكشاف التعبير عن الامر بصيغة الخبر يفيد تأكيد الأمر اشعاراً بأنه مما يجب أن يتعلق بالمسارعة إلى امتثاله. فكأنهن امتثلن الأمر بالتربص فهو يخبر عنه موجوداً.

ونظيره قولهم في الدعاء: يرحمك الله أخرج في صورة الخبر ثقة في الا جابة كأنها وجدت الرحمة فهو يخبر عنها[١].

ومنه قوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ۝١٠ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ..﴾ الصف(١٠،١١).

قال الشيخ الالوسي: المضارع في الموضعين(تؤمنون تجاهدون) كما قال المبرد وجماعة خبر الأمر أي آمنوا وجاهدوا، ويؤيده قراءة عبد الله كذلك، والتعبير به للإيذان بوجوب الامتثال، وكأن الايمان والجهاد وقعاً فأخبر بوقوعهما[٢].

وقال الفخر الرازي: لمَ قال (تؤمنون) بلفظ الخبر؟! نقول: للايذان بوجوب الامتثال)[٣].

قال الشيخ ابو البركات النسفي في تفسيره: تؤمنون بمعنى آمنوا، عند سيبويه، ولهذا اجيب بقوله(يغفر لكم)[٤] ومن هذا النوع قوله تعالى: **﴿فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج﴾** البقرة(١٩٧).

قال السيوطي في معترك الاقران: (ونازع ابن العربي في "أحكام القرآن ١/ ١٣٤"في قولهم إن الخبر يرد بمعنى الأمر والنهي فقال: قوله **﴿فلا رفث ولا فسوق﴾** ليس نفياً لوجود الرفث، بل لنفي مشروعيته، فإن الرفث يوجد من بعض الناس، وأخبار الله لا يجوز ان تقع بخلاف مخبره،

---

(١) نفسه(٦/ ٩٢).

(٢) تفسير روح المعاني (٢٨-٨٩)

(٣) تفسير الفخر الرازي(١٥/ ٣١٨.

(٤) النسفي، ابو البركات عبد الله بن احمد محمود(تفسير النسفي) دار احياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاه(٤/ ٢٥٣).

وإنما يرجع النفي إلىٰ وجوده مشروعاً لا محسوساً، فإنا نجد المطلقات لا يتربصن، فعاد النفي إلىٰ الحكم الشرعي لا إلىٰ الوجود الحسي، وكذا ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ الواقعة(٧٩) أي لا يمسه أحد منهم شرعاً، فإن وجد المس فعلىٰ خلاف حكم الشرع.

قال: وهذه الدقيقة التي فاتت العلماء فقالوا: إن الخبر يكون بمعنىٰ النهي وما وجد ذلك قط، ولا يصح ان يوجد فإنهما مختلفان، متباينان وضعاً)(١).

قلت: وسواء كان الخبر هنا للنهي أو لنفي المشروعية فإن مقصد الخطاب القرآني دعوة المكلفين للاستجابة إلىٰ أمر الله، ولكن باسلوب عظيم سبر أغوار النفس الإنسانية، فخاطبها بطريقة تستجر الاستجابة بيسر وسهولة.

ولا يخفىٰ أن صيغة الأمر المباشر لها وقع ثقيل علىٰ النفوس فكان العدول إلىٰ الصيغة القرآنية الآخرىٰ وهو وضع الخبر موضع الطلب، فسبحان القائل: ﴿**ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه، ونحن أقرب إليه من حبل الوريد**﴾ سورة ق(١٦) حيث خاطب الإنسان متجنباً ما يثقل ذكره علىٰ نفسه.

وهذا الأدب القرآني يمكن للآباء والمربين أن يستفيدوا منه كثيراً في مخاطباتهم لأبنائهم وطلابهم، حيث يحققون سبب استجابة أكثر، وفاعلية اعمق واكبر.

وذكر السيوطي في الاتقان أن الخبر يطلق علىٰ الطلب أمراً أو نهياً أو دعاءً مبالغة في الحث عليه، حتىٰ كأنه وقع وأخبر عنه.

ومثل الدعاء بقوله سبحانه: ﴿**لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين**﴾ يوسف (٩٢) أي اللهم اغفر لهم(٢).

٣- مواساة المخاطبين بسبب صعوبة التكليف حيث نلاحظ أن الخطاب القرآني

---

(١) معترك الاقران (١/ ٤٢٢).

(٢) الاتقان(٢/ ٣٩).

يحرص على مواساة المخاطبين وتطييب خاطرهم إذا كان التكليف ثقيلاً صعباً فنجده يخفف وقعه على نفوسهم بوسائل شتى، ولنأخذ لذلك مثلاً الصيام، فقد سبق في علم الله تعالى أنه تكليف يحمل في طياته مشقة على بعض النفوس، فلننظر إلى صيغة الأمر والتكليف الرباني بالصيام.

يقول المولى سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ..﴾ البقرة(١٨٣).

حيث نلاحظ ما يلي:

١. تصدير الخطاب بصيغة (يا أيها) الدالة على شرف المخاطب[(١)].

٢. مواساة المخاطبين وتطييب خاطرهم بأن الصيام شرعه لجميع الأمم السابقة[(٢)]، فإن الأمور الشاقة إذا عمت طابت[(٣)].

٣. النص على أنها أيام معدودات لا تلبث أن تفارق.

٤- وانسجاماً مع منهجه في تجنب ما يثقل ذكره على النفوس نجد الخطاب القرآني يرغب المؤمنين في بعض الأعمال والتصرفات والسلوكيات عن طريق مدح أصحابها المتصفين بها مبتعداً بذلك عن صريح الأمر أو النهي، من ذلك قوله تعالى: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا ...﴾ الفرقان(٦٣-٦٤).

وقوله تعالى ﴿ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝٣ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَمَغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ﴾ الأنفال(٢-٤).

---

(١) الاتقان(١/ ١٨)

(٢) تفسير ابو السعود(١/ ٢٣٥).

(٣) تفسير روح المعاني، (٢/ ٥٦).

وهكذا يحرض الخطاب القرآني المؤمنين على التزام الصفات والإعمال المذكورة بعدة صور، فمرة يصف أصحابها بأنهم عباد الرحمن، ومرة يحصر الإيمان فيهم، وأخرى يؤكد فلاحهم بسبب هذه الأعمال والصفات، فتهفو النفوس إليها. وقد سبق الحديث عن ذلك في الفصل الأول/ المبحث الثاني، أدب مخاطبة المؤمنين[١].

****

(١) انظر ص من هذه الرسالة.

» سادساً: التعريض بالمخطئين والتستر عليهم طمعاً في هدايتهم.

جاء الخطاب القرآني منسجماً مع الأهداف السامية التي نزل من أجلها القرآن الكريم وهي هداية الناس وارشادهم إلى طريق النجاة وسبيل السلامة في الدنيا والآخرة، لذلك اتجه الخطاب إلى التنديد بالخطأ لا إلى تجريح المخطيء وفضيحته، وإذا احتاج الأمر إلى ذكر المخطيء فإن النص القرآني يتحاشى ذكره بالاسم، وإنما يكني عنه أو يعرض به أو يبهم اسمه، ما لم تكن الحكمة في فضيحته ومواجهته بجريمته ليكون عبرة لغيره. فمن هذا النوع:

- **اولاً**: استعمال الاسم الموصول(الذي هو من الاسماء المبهمة) ليختفي تحته اسم المذنب وفي ذلك من الرجاء في هدايته ما ليس في افشاء اسمه وفضيحته من ذلك قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾ الحج(٨).

قال أهل التفسير: نزلت هذه الآية في النضر بن الحرث، وكان جدلاً يقول بأن الملائكة بنات الله وأن القرآن أساطير الأولين، وأنه لا يبعث الله من يموت، والآية عامة له ولأضرابه من العتاه المتمردين[١].

لكن النص القرآني لا يذكر اسم هذا المجادل صراحة، فليست المصلحة في ذكر اسمه، وليس المقصد تقريع شخص بعينه، ولكن الآية تريد أن تندد بشكل عام بالجدال الذي لا يستند إلى علم ضروري، ولا إلى حجة نظرية ولا إلى برهان سمعي[٢]. ومن شأن هذا التنديد أن يثير انتباه كل منصف باحث عن الحقيقة، فيغّير موقفه ما دامت اصابع الاتهام لا تتجه نحوه.

ومن هذا النوع قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ لقمان(٦) ففي هذا ذم لمن يتصف بذلك، ودعوة صامتة له إلى الاقلاع والكف عن فعله،

(١) أنظر تفسير أبو السعود(٤/ ٤) وابن كثير(٤/ ٦١٣) والكشاف (٣/ ٥).

(٢) تفسير ابو السعود(٤/ ٨).

ومنه قوله تعالى: ﴿ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ ال عمران(٧٢).

قال ابو السعود: "المراد بالطائفة كعب بن الإشراف ومالك بن الصيف، وقيل هم اثنا عشر رجلاً من أحبار خيبر، تعاهدوا بأن يدخلوا في الإسلام اول النهار، ويقولوا آخره نظرنا في كتابنا وشاورنا علماءنا فلم نجد محمداً بالنعت الذي ورد في التوراة لعل أصحابه يشكون فيه"[١].

- ثانياً: ومن التعريض إبراز غير الحاصل في معرض الحاصل[٢]. نحو قوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ الزمر(٦٥-٦٦).

قال الشيخ الالوسي: (هو كلام على سبيل الفرض لتهييج المخاطب المعصوم واقناط الكفرة، والايذان بغاية شناعة الاشراك وقبحه وكونه بحيث ينهى عنه من لا يكاد يباشره فكيف ممن عداه؟)[٣].

ومنه قوله تعالى: ﴿ومالي لا أعبد الذي فطرني﴾ يس (٢٢). ووجه حسنه اسماع المخاطبين الحق على وجه لا يزيد غضبهم، وهو ترك التصريح بنسبتهم إلى الباطل، ويعين على قبوله لكونه أدخل في امحاض النصح حيث لا يريد لهم الا ما يريد لنفسه[٤].

ومن هذا النوع قوله تعالى: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ البقرة(١٢٠)

قال ابو السعود: (وهذا من باب التهييج والالهاب، وإلا فانى يُتوهم امكان اتباعه صلى الله عليه وسلم لملتهم؟!)[٥].

---

(١) تفسير ابو السعود(١/ ٣٧٦).

(٢) مختصر المعاني بحاشية تلخيص المفتاح ص١٠٧.

(٣) تفسير روح المعاني (٢٤/ ٢٤).

(٤) مختصر المعاني ص١٠٧.

(٥) تفسير ابو السعود(١/ ١٨٣).

ومنه قولـه تعالىٰ: ﴿ومالي لا اعبد الـذي فطرني﴾ يس (٢٢) المـراد مالكم لا تعبدون بدليل قوله تعالىٰ ﴿واليه ترجعون﴾ يس(٢٣) ولولا التعريض لكان المناسب (واليه أرجع). (ووجه حسنه ظاهر لأنه المنكر، كأنك لم تعنه، وهو أعلىٰ محاسن الأخلاق وأقرب للقبول وادعىٰ للتواضع والكلام ممن هو رب العالمين نزله بلغتهم تعليما للذين يعقلون)[(١)].

وأدب الخطاب في التعريض واضح، يفصح عن حسـن خلق المتكلـم ورحمته علىٰ المخاطب، ورغبته في هدايته دون استثارة لغضبه أو ردود فعْله.

- **ثالثاً**: مناقشـة المعاندين غيابياً وهذا اسـلوب لـه ميزته وأثره؛ فقد يكـون من نتيجة ذلك أن بعضهم علىٰ الأقل قد يغير موقفه الداخلي ما دامت أصابع الاتهام ليست موجهة إليه.

من هـذا النـوع قولـه تعالـىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾﴾ لقمان(٢٩-٣٢).

يقول الاستاذ محمد قطب: "إن الحديث في هذه الآيات عام لـكل الناس، ولكنه في الحقيقة مناقشة للمكذبين المنكرين، الذين يرفضون أن يتبعوا ما انزل الله.

مناقشـة لا يشـتركون فيها هم، إنما يناقشـون غيابياً، ليقتنع بقية النـاس (الحاضرين)، ويؤمنوا ويزداد المؤمنون منهم ايماناً.

أما هـم (المكذبـون) فهم موجـودون قطعـاً بين المسـتمعين، لكـن السـياق يتجاهل

---

(١) نفسه(٢/ ٣١٣).

وجودهم ويناقشهم كما قلنا غيابياً، أي يعرض قضيتهم ويقدم الردود الحاسمة القاطعة عليها، دون توجيه كلام مباشر اليهم. وتلك طريقة من طرق التوجيه ذات مفعول تربوي مثمر، يكون من نتيجتها أن بعض هؤلاء المعاندين على الأقل يغير موقفه الداخلي، ويقتنع بالحق، ما دام أن أصبع الاتهام ليست موجهه اليه هو بالذات"[١].

****

(١) دراسات قرآنية ص٢٠٦.



الفصل الرابع

تأملات في خطب سجلها القرآن الكريم ورضي قول أصحابها

مقدمة

اخترت من الخطب التي سجلها القرآن الكريم، ورضي قول أصحابها ثلاث خطب؛الأولىٰ في سورة غافر، وهي خطبة مؤمن قوم فرعون، حيث سنطلع فيها علىٰ أدب قرآني رفيع من آداب الدعوة إلىٰ الله تعالىٰ علىٰ لسان رجل مؤمن في وسط جاحد مفتون.

والخطبة الثانية في سورة النمل، لكي نرىٰ في هذه الخطبة القصيرة الموجزة التي القتها نملة، وهي مخلوق ضعيف لكي نرىٰ ما فيها من فنون التعبير، وآداب المخاطبة.

والخطبة الثالثة في سورة يس، وهي خطبة رجل ناصر الحق في أجواء التهديد والنفور والمكابرة، حيث سنطلع من ثنايا كلامه علىٰ آداب الدعوة ووسائل الداعية اليها، وسأجتهد في التركيز علىٰ جوانب الأدب في هذه المخاطبات التي ذكرها المولىٰ سبحانه في كتابه العزيز ووضعها موضع الرضىٰ والقبول في القرآن الكريم.

وهذه نماذج من خطب كثيرة وردت في كتاب الله تعالىٰ، منها علىٰ لسان الأنبياء كقوله تعالىٰ في سورة هود علىٰ لسان سيدنا نوح عليه السلام: ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ .... ﴾ سورة هود(٢٨-٣١).

وقوله: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ .. ﴾ هود(٨٤-٩٣).

ومنها علىٰ لسان الطير كقوله تعالىٰ في سورة النمل علىٰ لسان الهدهد: ﴿ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴾ النمل (٢٢-٢٦) يضاف إلىٰ ذلك خطب أخرىٰ علىٰ لسان الجن والملائكة وغيرهم.

وفي كل منها فوائد عظيمة يحسن بنا أن نقف عندها ونتأملها لكي تكون لنا زاداً في طريق الدعوة الطويل، والله هو الهادي إلى سواء السبيل.

» اولاً: خطبة مؤمن قوم فرعون

﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَـٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَـٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَـٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَـٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَـٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ يُجَـٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَـٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾﴾ سورة غافر.

﴿**وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم ايمانه**﴾: هـذا الرجل من آل فرعون، وقد تقدم الجار والمجرور فـي الآية لازالة التباس وتوهـم أن الجار والمجرور متعلقـان بيكتم، وهو ما رجحه الزمخشري[١]، والرازي[٢] والشوكاني[٣]، وعليه تكون (مؤمن) صفة لرجل، و(من آل فرعون) صفة أخرىٰ و(يكتم إيمانه) صفة ثالثة.

وذكر الأمـام القرطبي أن من جعـل الرجل قبطيـاً جعل(من) متعلقـاً بمحذوف صفة. لرجل والتقدير(وقال رجل مؤمن، منسـوب من آل فرعون) أي من أهله وأقاربه ومن جعله

---

(١) الكشاف(٣/ ٤٢٤).

(٢) تفسير الفخر الرازي(٢٧/ ٥٨).

(٣) الشوكاني، فتح القدير، الطبعة الثانية، مطبعة مصطفىٰ البابي الحلبي/ مصر، (٤٨٨).

اسرائيلياً فـ (من) عنده متعلقة بـ (يكتم) في موضع المفعول الثاني لـ (يكتم)[١].

وقد استبعد كثير من المفسرين أن يكون اسرائيلياً لأنه من غير المحتمل أن يتحمل فرعون من بني اسرائيل مثل هذا القول، وهو ما نرجحه، ويشير قوله تعالىٰ: (يكم إيمانه) إلىٰ جو الأرهاب الفكري الذي كان يمارسه فرعون، ومصادرة الرأي الآخر والضيق به إلىٰ درجة أن الإنسان لا يستطيع ان يجهر بما يؤمن به.(اتقتلون رجلاً) الاستفهام هنا للإنكار والتبكيت.

وقال (رجلاً) ولم يقل (نبياً) أو (موسىٰ) مثلاً للإشارة إلىٰ أنه ليس بينه وبين القائل أية صلة أو معرفة إلا أنه (رجل) وهذا نوع تحرز واحتياط من اتهامه بالتحيز له.

﴿أن يقول﴾: أن صلة أكدت وجود فعلين مرتباً أحدهما علىٰ الآخر في وقتين متجاورين لا فاصل بينهما، كأنهما وجدا في جزء واحد من الزمان[٢] ويقصد الرجل المؤمن أن يقول(أتقتلون رجلاً وقت أن يقول ربي الله؟ اتقتلونه ساعة أن سمعتم منه هذا القول من غير روية ولا تفكّر في أمره؟ وكأنه يطلب منهم التريث وعدم التسرع في مؤاخذته[٣].

﴿وقد جاءكم بالبينات﴾: الجملة في محل نصب حال، والبينات هي المعجزات الواضحات والدلالات الظاهرات.

قال الامام القرطبي: يعني الآيات التسع[٤]. وقال الفخر الرازي أنها الدلالات الظاهرات المبينة في سورة طه عند قوله تعالىٰ ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَىۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ طه (٥٠).

---

(١) الجامع لأحكام القرآن(١٥/ ٣٠٧).

(٢) الكشاف(٣/ ٢٠٥)وانظر(لطائف المنان) للاستاذ الدكتور فضل حسن عباس ص٢٥٩ للوقوف علىٰ أسرار (أن) في الكتاب العزيز.

(٣) أنظر تفسير أبو السعود(٤/ ٤٨٨)، والكشاف(٣/ ٤٢٤).

(٤) تفسير الجامع لأحكام القرآن(١٥/ ٣٠٧).

وعند قوله سبحانه ﴿ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ الشعراء(٢٤)[١].

وجمع (البينات) ولم يقل(بالبينه) مثلاً للإشارة إلى كثرة الدلائل التي ساقها الرجل على دعواه، (من ربكم) ولم يقل (من ربي) أو من(ربه) وذلك احتجاجاً عليهم، واستنزالاً لهم عن رتبة المكابرة.

﴿وإن يك كاذبا فعليه كذبه﴾:

أي إن ضرر كذبه عائد عليه لا يتخطاه(فلا حاجة بكم في دفع شره إلى قتله، بل يكفيكم أن تمنعوه من اظهار هذه المقالة، ثم تتركوا قتله، فإن يكن كاذباً فحينئذ لا يعود ضرره الا إليه)[٢].

﴿وإن يكن صادقاً يصبكم بعض الذي يعدكم﴾:

ذكر (بعض) مع تقدير أنه نبي صادق في جميع ما يعد به، لأنه سلك معهم طريق المناصحة والمداراة، فجاء بما هو أقرب إلى تسليمهم، وأدخل في تصديقهم له، ليسمعوا منه ولا يردوا عليه نصيحته.

وذكر الأمام القرطبي أن هذا تلطف في الاستكفاف، واستنزال عن الأذى، وفيه تلويح بأنه إن لم يصبكم الا بعض الذي يعدكم هلكتم[٣].

وجاء في حاشية ابن المنير على الكشاف أنه قال(يصبكم بعض الذي يعدكم) ليهضمه بعض حقه في ظاهر الكلام، فيريهم أنه ليس بكلام من أعطاه حقه، وأثنى عليه، فضلاً عن أن يكون متعصباً له. وتقديم الكاذب على الصادق من هذا القبيل[٤].

---

(١) تفسير الفخر الرازي(٢٧/ ١٥٨)

(٢) تفسير الفخر الرازي(١٤/ ٥٩).

(٣) تفسير الجامع لأحكام القرآن(١٥/ ٣٠٧).

(٤) انظر حاشية ابن المنير على الكشاف(٣/ ٤٣٤).

﴿إن الله لا يهدي من هو مسرف كذاب﴾: احتجاج آخر ذو وجهين:

- **احدهما**: أنه لو كان مسرفاً كذاباً لما هداه الله تعالىٰ، إلىٰ البينات، ولما أيده بتلك المعجزات.
- **وثانيهما**: إن كان كذلك خذله الله وأهلكه، فلا حاجة بكم إلىٰ قتله(١).

وقد عرض به لفرعون بأنه مسرف كذاب لا يهديه الله سبيل الصواب ومنهج النجاة(٢).

﴿يا قوم لكم الملك اليوم ظاهرين﴾ قال الإمام القرطبي: في قوله يا قوم دليل علىٰ أنه قبطي(٣) وقد أضافهم إلىٰ نفسه ليكونوا أقرب إلىٰ قبول وعظه.

﴿ظاهرين في الأرض﴾ أي عالين غالبين لبني إسرائيل، والأرض أرض مصر. وكأنه يريد أن يقول: فاحرصوا علىٰ هذا العلو والظهور، ولا تتعرضوا لبأس الله وعذابه، فإنه لا قبل لكم به(٤).

﴿فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا﴾: وهنا يحاول الرجل المؤمن أن يُظهر من نفسه أنه منهم، وأن الذي ينصحهم به هو مشارك لهم فيه.

﴿قال فرعون ما اريكم الا ما أرى﴾ وكان رأيه أن يقتل موسىٰ وأنه لا يستصوب الا قتله مؤكداً أن هذا الذي يراه هو سبيل الهداية والرشاد **﴿وما أهديكم الا سبيل الرشاد﴾** وهي فرية قديمة جديدة يحملها الطغاة أبداً في مواجهة الحق وأهله.. **(ما اريكم الا ما أرى وما أهديكم الا سبيل الرشاد﴾**!!.

---

(١) انظر فتح القدير للامام الشوكاني(٤/ ٤٨٩).

(٢) تفسير ابو السعود(٤/ ٤٨٩)

(٣) تفسير الجامع لاحكام القرآن(١٥/ ٣١).

(٤) تفسير الفخر الرازي(١٤/ ٦٠).

﴿وقال الذي أمن يا قوم إني أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب﴾ وهنا يبدو الرجل المؤمن مشفقاً على قومه إذا تعرضوا لموسى بما يكره أن يحل بهم مثل ما حل بمن قبلهم ممن كذبوا الرسل.

وهذا خلق كريم من هذا الرجل المؤمن يحسن بالدعاة أن يقتدوا به، وهو الدعوة بالشفقة والرحمة على الناس.

﴿مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود، والذين من بعدهم، وما الله يريد ظلماً للعباد﴾؛نفي ارادة الظلم، ينتفى به الظلم من باب أولى.

﴿ويا قوم إني أخاف عليكم يوم التناد﴾ وهنا نرى الرجل المؤمن يشتد في وعظه وتخويفه لهم بالعذاب الأخروي بعد تخويفهم بالعذاب الدنيوي، ويوم التناد هو يوم القيامة.

في ذلك اليوم يتنادى الملائكة الذين يحشرون الناس للموقف، وينادي أصحاب الأعراف أصحاب الجنة وأصحاب النار، وينادي أصحاب الجنة أصحاب النار، كما ينادي أصحاب النار أصحاب الجنة فالتنادي واقع في صور شتى.

قال الإمام الشوكاني، ولا مانع من الحمل على جميع هذه المعاني[١]. وتسميته(يوم التناد) تلقي عليه ظل التصايح وتناوح الاصوات من هنا وهناك، وتصور يوم زحام وخصام. وتتفق مع قول الرجل المؤمن[٢].

﴿يوم تولون مدبرين﴾: بدل من (يوم التناد) (ما لكم من الله من عاصم) يعصمكم من عذابه بعد انصرافكم من الحساب إلى نار جهنم.

﴿ومن يضلل الله فما له من هاد﴾: ثم زاد في وعظهم وتذكيرهم فقال: (ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات أي جاء إلى آبائكم، حيث جعل المجيء إلى الآباء مجيئاً إلى الابناء.

---

(١) انظر تفسير فتح القدير(٤/ ٤٩١).

(٢) انظر تفسير (في ظلال القرآن): (٧/ ١٧)، وتفسير الكشاف(٣/ ٤٢٤).

﴿فما زلتم في شك منه﴾ وفي هذا دليل حسي على أن من يضلل الله فما له من هاد؛ حيث أمتد كفرهم بيوسف عليه السلام إلى موسى من بعده.

﴿كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب﴾في دينه، شاك فيما تشهد به البينات لغلبة الوهم والانهماك في التقليد)(١).

ثم يشتد الرجل المؤمن في مواجهتهم بمقت الله ومقت المؤمنين لمن يجادل في آيات الله بغير حجة ولا برهان. وهم يفعلون هذا في أبشع صوره.

ويندد بالتكبُّر والتجبُّر، ويندد بطمس الله لقلوب المتكبرين المتجبرين، (الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم، كبر مقتاً عند الله، وعند الذين آمنوا): (بغير سلطان) متعلقة بـ (يجادلون) و(أتاهم) صفة لسلطان. ونلاحظ هنا أن كلام الرجل المؤمن يكاد يطابق مطلع السورة الكريمة...

المقت للمجادلين في آيات الله بغير برهان،والإضلال للمتكبرين المتجبرين، حتى ما يبقى في قلوبهم موضع للهدى، ولا منفذ للادارك. ﴿كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار﴾.

ويبدو أن فرعون ظل مصراً على ضلالة بعد هذه الجولة التي أخذ الرجل المؤمن بها قلوبهم، فهو الآن يبحث عن مخرج جديد، يواجه به الحجة الناصعة والبينات الواضحة.

ولنستمع:

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ

(١) انظر تفسير ابو السعود(٤/ ٤٩١).

سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾ ۞ وَيَٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾﴾ سورة غافر.

﴿وقال فرعون يا هامان ابن لي صرحاً لعلي ابلغ الأسباب﴾ أي قصراً عالياً ظاهراً لكل أحد[(١)].

هكذا يموه الطاغية، ويحاور ويداور كي لا يواجه الحق جهرة، ولا يعترف بدعوة الوحدانية التي تهز عرشه، وتهدد الأساطير التي قام عليها ملكه. ومثل هذا الكلام من فرعون يشيء بالاستهتار والسخرية من جهة، مع التظاهر بالإنصاف والتثبيت من جهة أخرىٰ.

﴿أسباب السموات فأطلع إلى اله موسى، وإني لأظنه كاذباً، وكذلك زين لفرعون سوء عمله وصد عن السبيل، وما كيد فرعون الا في تباب﴾ كرر (أسباب) تفخيماً، لأن الشيء إذا أبهم ثم أوضح كان تعظيماً لشأنه[(٢)] وأسباب السماء أبوابها، ومنه قول زهير بن أبي سلمىٰ في معلقته:

ومن رام اسباب المنايا ينلنه ولو رام اسباب السماء بسلمِ

وهنا نجد فرعون مستحقاً لأن يُصد عن السبيل بهذا المراء الذي يميل عن الاستقامة، وينحرف عن السبيل، فكانت النتيجة أن هد الله صرحه، وأغرقه هو وقومه.

---

(١) القاسمي، محمد جمال الدين، محاسن التأويل، علق عليه محمد فؤاد عبد الباقي، دار أحياء الكتب العربية، عيسىٰ البابي الحلبي وشركاه، الطبعة الأولى،١٩٥٩،(١٤/ ٥١٦٧).

(٢) الجامع لأحكام القرآن(١٥/ ٣١٤) وانظر الكشاف(٣/ ٤٢٨) وابو السعود(٤/ ٤٩٠).

أمام هذه المراوغة وهذا الاستهتار، وهذا الإصرار ألقى الرجل المؤمن كلمته الأخيرة صريحة مدوية...

﴿وقال الذي آمن: يا قوم اتبعوني أهدكم سبيل الرشاد﴾ كلام مجمل يحتاج إلى تفسير، إنه تعريض شبيه بالصريح يفهم منه أن ما عليه فرعون وقومه هو سبيل الغي.

﴿يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع﴾ افتتح بذم الدنيا، وتصغير شأنها لأن الإخلاد إليها هو أساس الشر كله.

﴿وإن الآخرة هي دار القرار﴾: وثنى بتعظيم الآخرة مع التأكيد على أنها هي الوطن وهي المقر، وهي دار الاستقرار والخلود، ومراده بالدار الآخرة الجنة والنار لأنهما لا تفنيان[1].

﴿من عمل سيئة فلا يجزى الا مثلها﴾ وهنا يشير إلى عظمة رحمة الله سبحانه وان جانب الرحمة غالب على جانب العقاب.

﴿ومن عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب﴾. قال الأمام الزمخشري: "ذكر عاقبة كل من الحسنة والسيئة ليثبط عما يتلف، وينشط لما يزلف، ثم وازن بين الدعوتين؛ دعوته إلى دين الله الذي ثمرته النجاة، ودعوتهم إلى اتخاذ الانداد الذي عاقبته النار، وحذر وأنذر، وأجتهد في ذلك واحتشد، لا جرم أن الله استثناه من آل فرعون وجعله حجة عليهم وعبرة للمعتبرين"[2]. وذلك في قوله تعالى:

﴿فوقاه الله سيئات ماعملوا، وحاق بآل فرعون سوء العذاب﴾. وقوله: (بغير حساب) واقع في مقابلة (الا مثلها) يعني أن جزاء السيئة له حساب وتقدير لئلا يزيد على الاستحقاق وأما جزاء العمل الصالح فبغير تقدير حساب[3].

---

(١) الجامع لاحكام القرآن١٥/ ٣١٧.

(٢) الكشاف(٣/ ٤٢٨) وذكر الشيخ النسفي كلاماً قريباً من هذا انظر تفسير النسفي(٤/ ٨٠).

(٣) الكشاف(٣/ ٤٢٩).

﴿ويا قوم مالي ادعوكم إلى النجاة وتدعونني إلى النار﴾؛ يلاحظ أنه جاء بالواو العاطفة في هذا النداء ولم يأت بها في النداء الثاني وهو قوله (ياقوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع) وسر ذلك أن النداء الثاني تفسير لما اجمل في النداء قبله من الهداية إلى سبيل الرشاد؛ فإنها تحذير من الاخلاد إلى الدنيا والترغيب في إيثار الآخرة على الأولى. أما النداء الثالث فهو ليس بهذه المثابة، إنما جاء للموازنة بين الدعوتين، وتحقيق أنه هاد وانهم مضلون. وليس ذلك من تفسير الهداية في شيء؛فهو عطف على النداء الأول أو على المجموع [1]. وتكرير النداء بشكل عام يدل على فضل اهتمام بالمنادى (تدعونني لأكفر بالله واشرك به ما ليس لي به علم وأنا ادعوكم الى العزيز الغفار) المراد بنفي العلم هنا نفي المعلوم، كأنه يريد أن يقول تدعونني لأشرك به ما ليس بإله، وما ليس بإله كيف يعقل أن يكون شريكاً لإله [2]. وفي قوله (العزيز) إشارة إلى كونه كامل القدرة، وفيه تنبيه على أن الإله هو الذي يكون كامل القدرة، وأما فرعون فهو في غاية العجز فكيف يكون الها!؟ وقوله(الغفار) إغراء لهم باللجوء إلى الله الذي يغفر الذنوب ويقبل توبة من أناب اليه(لأجرم أن ما تدعونني إليه ليس له دعوة في الدنيا ولا في الآخرة وأن مردنا إلي الله وان المسرفين هم أصحاب النار). لقد حق ووجب عدم دعوة الهتكم إلى عبادتها اصلاً، أو عدم استجابة دعوة لها [3] قال الإمام أبو بركات النسفي موضحاً ذلك: إن من حق المعبود بالحق أن يدعو العباد إلى طاعته. وما تدعون اليه وإلى عبادته لا يدعو هو إلى ذلك ولا يدعي الربوبية، أو ليس له استجابة دعوى في الدنيا ولا في الآخرة أو دعوة مستجابة جعلت الدعوة التي لا إستجابة لها ولا منفعة كلا دعوة) [4].

﴿وأن مردنا إلى الله وأن المسرفين هم أصحاب النار﴾: وحق ايضاً أن مرجعنا إلى الله

(١) انظر تفسير روح المعاني(٢٤/ ٧١)، والكشاف(٣/ ٢٢٩)،وتفسير الرازي(١٤/ ٧١) والنسفي(٤/ ٨).

(٢) النسفي(٤/ ٨).

(٣) تفسير الكشاف(٣/ ٤٢٩) وانظر ابا السعود(٤/ ٤٩١).

(٤) النسفي(٤/ ٨).

تعالىٰ بالموت، وأن المسرفين وهم المشركون، أو اللذين غلب شرهم خيرهم[١] هم أصحاب النار ملازمون لها لا يفارقونها، ولا شك أن الإسراف وقع منهم بالكيفية والكمية أما الكمية فالدوام علىٰ المعصية وأما الكيفية فبالعود والإصرار.

ولما بالغ في هذه البينات ختم كلامه بخاتمة لطيفة فقال (فستذكرون ما اقول لكم) وفي هذا الإبهام من التخويف والتهديد ما لا يخفىٰ. ويحتمل أن يكون هذا الذكر عند الموت أو يوم القيامة عند مشاهدة الاهوال. وبالجملة فهو تحذير شديد رعيب. و(ما) يجوز أن تكون بمعنىٰ (الذي) ويجوز أن تكون مصدرية أي فستذكرون قولي لكم[٢]. ثم قال(وافوض امري إلىٰ الله) وهذا كلام يرد فيه علىٰ من هدده بأمر يخافه، قد يكون القتل، فخوفهم هو الآخر قائلاً (فستذكرون ما اقول لكم) إذا نزل بكم العذاب.وتعلمون أني قد بالغت في نصحكم وتذكيركم[٣] وهو بذلك يستدعي الا يتهموه فإن سرورهم سروره وغمهم غمه (وافوض امري الىٰ الله) يبدو أنه تعلم ذلك من موسىٰ عليه السلام عندما هدده بالقتل حيث قال (إني عذت بربي وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب) ثم قال(ان الله بصير بالعباد) أي يحرس من يلوذ به من كل مكروه.

مجمل الآداب المستفادة من هذه الخطبة

وفي ختام هذه الدراسة المتأملة لخطبة مؤمن قوم فرعون أجمل أهم أداب الخطاب التي تضمنتها: فأقول وبالله التوفيق: تضمنت هذه الخطبة مجموعة من الأداب أوجزها في مايلي:

---

(١) ذكر الامام القرطبي للمسرفين عدة معان منها انهم هم السفهاء والسفاكون للدماء بغير حقها وقيل الجبارون والمتكبرون وقيل هم اللذين تعدوا حدود الله. وهذا اجمع ما قيل في معنىٰ المسرفين. انظر لأحكام القرآن(١٥/ ٣١٨).

(٢) انظر تفسير فتح القدير للشوكاني(٣/ ٤٩٤).

(٣) نفسه(٣/ ٤٩٤).

- اولاً: إن الموقف الـذي وقفه مؤمن قوم فرعـون موقف رجولة، حيث جهر بالحق وناصر حملته ودعاته، في اوسـاط الجحود والكنود وفي اجـواء الرعب والتهديد، ولهذا استحق ان يذكر بوصفه(رجل) ويستفاد من ذلك أنه من التأدب في الخطاب أن يعطي كل مخاطب ما يناسبه من الكنى والالقاب شحذاً لهمته وانصافاً له.

- ثانياً: في كون هـذا الرجل من قوم فرعون إشـارة إلـى أن الأمل يخـرج من أعماق اليأس، فإن أحداً لم يكن يتوقع أن يخـرج من قوم فرعون الذين قادهم الطاغية الى الخطيئة والعثار، لم يكن يتوقع احد ظهور مثل هذا الرجل المؤمن، ولهذا يحسـن بالدعـاة أن يلتزموا جانب الأدب والملاينة والاسـعطاف، عنـد حديثهم مع الناس ولو كان الناس منكرين جاحدين فعسى أن يكون ذلك سبباً في مناصرتهم، أو دفع الأذى عنهم على الأقل.

- ثالثاً: في قول الرجل المؤمن ودفاعاً عن سيدنا موسـى عليه السلام(اتقتلون رجلاً أن يقول: ربي الله) إشارة إلى طريقة هذا النبي الكريم في الدعوى إلى الله تعالى، وهي طريقة لا استعداء فيها لأحد، فهو يقول:ربي الله، ولم يقل مثـلاً ربكم الله، أو رب كل شـيء، الله، ولكنه رضي لنفسـه(وأنعم بهذا الرضى) أن يكـون مربوباً لمولاه سبحانه، وفي هـذا ما يقطـع الطريق على أي أفـاك أو مكابر، حيـث أنه لم يكلف الناس شططاً في هذا القول مع يقيننا أنه يستدرجهم بذلك خطوة خطوة في الوصول إلى الحق.

وهذا ارشاد للدعاة للابتعاد عن طريقة القفز في دعوتهم وحرق المراحل والتفاؤل المفرط بالاستجابة لمجرد كلمة أو خطبة، وإنما نسـتدرج الناس قليلا قليلاً وهذا رغم أنه بطيء الثمرة لكن ثمرته أكثر وفائدته أكبر وأدوم.

- رابعـاً: من أدب الداعيـة في الخطـاب الا يظهر تعصباً لنفسـه أو انحيـازاً وتطرفاً إلى دعوته، بل لا بد له من اظهار المناصفة لخصمه، واعلان اسـتعداده لقبول الحق ولو ظهر في غير جانبه، وقد بدأ هذا الأدب في موضع متعددة من خطبة الرجل المؤمن.

- **خامساً**: الدعوة الاستعلائية التي تجعل الناس في جانب والداعية في الجانب الآخر لاتثمر إلا الكراهية وردود الفعل. والأدبُ في التحدث مع الناس وكأنك واحد منهم تريد لهم ما تريد لنفسك، وتنصح لهم ما تنصح لنفسك، ويؤخذ هذا من قوله (فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا).

- **سادساً**: من الأدب اظهار الشفقة على المدعوين، ومخاطبتهم بما يشعر بذلك باستعمال أدوات التنبيه، وكلمات التحنن والاستعطاف.

- **سابعاً**: الاستعانة بالمعاريض في انتقاد الخصوم ودعواتهم ومواقفهم، فذلك أدعى إلى امتصاص نقمتهم، والأمان من ردود فعلهم وقد ورد ذلك في أكثر من موضع في خطبة الرجل المؤمن، منها قوله (إن الله لا يهدي من هو مسرف كذاب) معرضاً بفرعون وقوله(وما أهديكم الا سبيل الرشاد) حيث يفهم من ذلك أن سبيل فرعون غير رشيد.

- **ثامناً**: يحسن بالدعاة أن يذكروا دائماً بالرجوع إلى الله، حيث يحاسب كل إنسان على ما قدم، ففي هذا التذكير اعانة للمدعوين أن يثوبوا إلى رشدهم ويراجعوا أنفسهم ويعيدوا تقييم مواقفهم مثلما يحسن بهم أن يعلنوا تفويض أمورهم إلى الله تعالى، لواذاً بجانبه الكريم، واستعانة به على كل ظالم جاحد.

وقد فعل الرجل المؤمن ذلك عندما قال (وأن مردنا إلى الله وأن المسرفين هم أصحاب النار) وعندما قال: (وأفوض أمري إلى الله، إن الله بصير بالعباد).

****

» ثانياً: خطاب النملة

﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾ سورة النمل.

يثير العجب حقاً أمر هـذه النملة، فقد حظيت بصفات جعلتهـا موضع احترام وتقدير. وأعلى هذه الصفات الأدب الرفيع الذي تحلت به، وهـي تخاطب مثيلاتها من عالم النمل، عندمـا خرجت عن حـدود ذاتها وانتدبت نفسـها للسـعي فيمـا يصلح احـوال الآخرين من سـكان واد النمل، مع التزام حسن الظن بالـمسلمين، والاعتذار الـمسبق عنهم إن وقع منهم خطأ.

وفي قوله تعالـى ﴿حتى إذا أتوا على واد النمل﴾ يقول الفخر الـرازي: "ويقال لِمَ عدى أتوا بعلى؟ فجوابه من وجهين:

- **الأول**: أن اتيانهم كان من فوق فأتى بحرف الاستعلاء.
- **الثاني**: أن يـراد قطع الوادي وبلـوغ آخره من قولهـم أتى على الشـيء إذا بلغ آخره كأنهم أرادوا أن ينزلوا عند منقطع الوادي"[(١)].

وقد تحدث بعض الـمفسـرين عن حيثيات جزئية تتعلق بهـذه النملة. ولا يرى البـاحث في الوقوف عندها كبيـر فائدة؛ حيث إنه ليس فيها خبر مؤكد يمكـن الركون اليه. وأعتقد أن أدب المسلم في القرآن الكريم يقتضي الا يقول فيه قولاً لا سند له ولا دليل عليه.

وإنه لمـن إضاعة الوقـت أن نجتهد في طلـب أمور لـم يـرد النص القرآني مـن أجلها، وقد لا يكون في التحقق من معرفتها فائدة تضاف. وجزى الله الأسـتاذ سـيد قطب صاحب

(١) تفسير الفخر الرازي(٢/ ١٨٧).

تفسير(في ظلال القرآن) كل خير عندما أعرض في تفسيره عن مثل هذه الأمور واكتفى بذكر ما يحقق العبرة من الخطاب القرآني لكي ينصبّ الاهتمام على تنفيذ مقتضى الخطاب والاعراض عما سوى ذلك[(١)].

﴿يا أيها النمل﴾: يا حرف نداء للبعيد حقيقة أو حكما، فقد تكون هذه النملة قصدت مخاطبة جميع النمل في ذلك المكان، القاصي منهم والداني، أو أنها أرادت التنبيه على غفلة المنادى، وعدم شعورهم بالخطر الداهم، وربما قصدت بهذا الاستهلال التنبيه على أن ما وراء هذا النداء أمر خطير يستحق العناية بشأنه.

و(أي): منادى نكرة مقصودة مبني على الضم في محل نصب، وقيل هي اسم مبهم جُعل وصلة إلى نداء المعرف باللام وهو هنا (النمل)لا على أنه المنادى أصالة بل على أنه صفة موضحة له مزيلة لابهامه.والتزم رفعه مع انتصاب موصوفه محلاً إشعاراً بأنه المقصود بالنداء.

وأقحمتْ بينهما أداة التنبيه(ها) تأكيداً لمعنى النداء، وتعويضاً عما يستحقه(أي) من المضاف إليه[(٢)].

وقد كثر استعمال هذه الصيغة في القرآن الكريم لما تميزت به من أسباب التأكيد ايقاظاً للناس وتنبيهاً لهم من غفلتهم.

قال الامام الزمخشري: لما جعل المولى سبحانه النملة قائلة، والنمل مقولاً لهم، كما يكون في أولي العقل، جعل خطابهم مجرى خطابهم، أي مجرى خطاب العقلاء (أدخلوا مساكنكم).

﴿لا يحطمنكم سليمان﴾: إما يكون جواباً للأمر (أدخلوا)، وإما أن يكون نهياً بدلاً

(١) انظر (في ظلال القرآن) (١/ ٤٣٨) عند تفسيره لقول الحق سبحانه (او كالذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها) البقرة(٢٥٩) وانظر كلاماً طيباً ذكره الشيخ الألوسي حول الموضوع(١٩/ ١٧٥).

(٢) انظر تفسير ابو السعود(١/ ٧١).

من الأمر، والذي جوز ذلك أنه في معنىٰ (لا تكونوا حيث انتم فيحطمنكم) علىٰ طريقة (لا أرينك هنا) والحطم الكسر[(١)].

وذكر الفخر الرازي أن هذه الآية تنبهُ علىٰ أمور:

١. إن من يسير علىٰ طريق لا يلزمه التحرز، وإنما يلزم من في الطريق التحرز. قلت: ولا يعفي ذلك السائر من الاحتياط والرحمة بخلق الله، فإن الضرر ممنوع في شريعتنا، والاجتهاد في كف الأذىٰ عن الآخرين واجب الجميع.

٢. إن النملة قالت: (وهم لا يشعرون) كأنها عرفت أن النبي معصوم فلا يقع منه قتل هذه الحيوانات الا علىٰ سبيل السهو، وهذا تنبيه عظيم علىٰ وجوب الجزم بعصمة الأنبياء عليهم السلام.

الشيخ ابو البركات النسفي: (لا يحطمنكم): هو في الظاهر نهىٰ لسليمان عن الحطم وفي الحقيقة نهىٰ لهن عن البروز والوقوف[(٢)] وضعف أن يكون (لا يحطمنكم) جواب الأمر لوجود نون التأكيد.

ونقل الأمام الشوكاني في جواز ذلك عند أبي حيان علىٰ قراءة الأعمش؛ فإنه قرأ (لا يحطمنكم) بالجزم بدون نون التوكيد؛ حيث لا تثبت النون في مثل هذا الموضع الا الضرورة الشعر[(٣)].

﴿وهم لا يشعرون﴾ حال من مجموع المتعاطفين، والضمير لهما وجوز أن تكون حالاً من الجنود والضمير لهم[(٤)].

قال الشيخ ابو الفضل شهاب الدين الألوسي: "وأيا ما كان ففي تقييد الحطم بعدم

---

(١) انظر القاموس المحيط(٤/ ٩٦).

(٢) تفسير النسفي(٣/ ٢٠٦).

(٣) انظر تفسير فتح القدير (٤/ ١٣١).

(٤) تفسير روح المعاني(١٩/ ١٧٨).

الشعور بمكانهم، المشعر بأنهم لو شعروا بذلك لم يحطموا ما يشعر بغاية أدب النملة مع سليمان عليه السلام وجنوده، وليت من طعن في أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ورضي الله تعالى عنهم، تأسى بها، فكف عن ذلك وأحسن الأدب"(١).

قال الشيخ القرطبي:"ونظير قول النملة في جند سليمان(وهم لا يشعرون) قول الله تعالى في جند محمد صلى الله عليه وسلم ﴿فتصيبكم منهم معره بغير علم﴾ سورة الفتح(٢٥) إلا أن المثنى على جند سليمان هي النملة بأذن الله، والمثنى على جند محمد صلى الله عليه وسلم هو الله عز وجل بنفسه، وذلك لما لجنود محمد صلى الله عليه وسلم من الفضل على جنده غيره من الأنبياء"(٢).

أهم الآداب التي تضمنتها خطبة النملة

١. استعمال صيغة خطاب تشعر بفضل الرعاية ومزيد الاهتمام بمن حولها حين بدأت حديثها بالقول: (يا أيها النمل) وقد علم كل من سمع نداء النملة في واد النمل أن الأمر الذي تلا النداء هو أمر مهم حقيقة يمكن أن يترتب عليه تحطيم أعداد كبيرة من النمل.

٢. خرجت هذه النملة من حدود نفسها، وتخلصت من كل صفات الأنانية والاستئثار عندما حرصت على سلامة من حولها، ولم تكتف بسلامتها وحدها. وفي ذلك درس لكل مسلم أن يحرص على سلامة إخوانه ووقايتهم من كل شر، وفي هذا يقول المصطفى صلى الله عليه وسلم: (لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه).

٣. تضمن خطاب النملة الاحتراز عن سوء الظن بالمسلمين حين قالت (وهم لا يشعرون) وهو أدب رفيع يحسن التزامه والعمل به.

---

(١) نفسه(١٩/ ١٧٨).

(٢) تفسير الجامع لاحكام القرآن(١٣/ ١٧١).

٤. في خطاب النملة إشـارة إلى أدب من آداب الطريق وهو أعطاء الأولوية، وإفساح المجال لمن هو أكثر حاجة لاستعمال الطريق، مع السعي في حفظ الإنسان نفسه من مخاطر السير والمرور.

****

» ثالثاً: خطاب الذي جاء من أقصى المدينة يسعى (سورة يس)

﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾﴾ سورة يس.

يفيد تقديم الجار والمجرور في قوله تعالى(وجاء من أقصى) لفت الانتباه إلى المسافة التي قطعها هذا الرجل، وهو يسعى انتصاراً وتأييداً للمرسلين؛ فقد هانت عليه المشقة، وسهل عليه الصعب في سبيل العقيدة، حيث أثر أن يترك الدعة والراحة ويلحق بموكب الدعاة الهداة، رغم ما يتوقع في مثل هذه الظروف من اللأواء والجهد[1].

ولعل في اختيار النص الكريم تسمية هذا الذي جاء بـ(رجل) إشارة إلى رجولته وشجاعته ومسارعته الى نصرة الدين، وتأييد الحق، والوقوف إلى جانب المرسلين[2]. وفي تنكير (رجل) إشارة إلى عظيم شأنه، وقد يكون التنكير لإفادة أن المرسلين لا يعرفونه ليتواطأوا معه[3].

أما المرسلون فقد بلغ من انذارهم أن دعوتهم وصلت أطراف هذه القرية بدلالة أن هذا الرجل جاء في مناصرتهم من أقصى المدينة[4].

وفي ذلك إشارة إلى ضرورة أن يشمل الإبلاغ والإنذار جميع الأوساط وأن يتحرك الدعاة في كل الميادين.

---

(١) وقد يكون تقديم الجار والمجرور لتبكيت قومه أن البعيد عما شاهدوه ينصح له ما لم ينصحوه لأنفسهم. أنظر بغية الايضاح (١/ ٢١٥) وانظر ص(٩٢) من هذه الرسالة.

(٢) تفسير الفخر الرازي(٢٦/ ٥٥).

(٣) تفسير روح المعاني(٢٢/ ٢٥).

(٤) انظر تفسير الفخر الرازي(٢٦/ ٥٥).

قال الشيخ الألوسي: عبر بالمدينة هنا بعد التعبير بالقرية إشارة إلى السعة[١]. مشيراً بذلك إلى قوله تعالى أولاً: (وأضرب لهم مثلاً اصحاب القرية..) ثم قال (وجاء من أقصى المدينة رجل)،ولا يخفى أن القرية التي شهدت هذا الحدث الكبير، وشاع ذكرها في كتاب الله تعالى وعلم بها جمع كبير من خلق الله تعالى تستحق أن تسمى مدينة وليس قرية كما كانت قبلاً.

﴿يسعى﴾: أي يعدو ويسرع في مشيه حرصاً على نصح قومه، وهذا يدل على جدية الرجل واهتمامه، ورغبته في مناصرة المرسلين.

﴿قال يا قوم اتبعوا المرسلين﴾: قوله (يا قوم) ينبيء عن اشفاق عليهم، حيث نسبهم إلى نفسه، وهو بهذا شبيه بمؤمن قوم فرعون الذي قال(يا قوم اتبعوني) وفي هذا تأليف لقلوبهم واستمالة لها إلى قبول النصيحة)[٢].

وهنا يرد سؤال عن الفرق بين القولين: مؤمن قوم فرعون قال(يا قوم ابتعوني) وهذا الرجل قال (يا قوم اتبعوا المرسلين). والجواب: أن هذا الرجل جاءهم، وفي أول مجيئه نصحهم وما رأوا سيرته؛ فقال: اتبعوا هؤلاء الذين اظهروا لكم الدليل، وأوضحوا لكم السبيل.وأما مؤمن قوم فرعون فكان فيهم، واتبع موسى، ونصحهم مراراً، فقال: اتبعوني في الإيمان بموسى وهرون عليهما السلام، واعملوا أنه لو لم يكن خيراً لما اخترته لنفسي[٣].

وقوله (اتبعوا المرسلين) جمع بين اظهار النصيحة، واظهار ايمانه. فقوله: (اتبعوا) نصيحة، وقوله (المرسلين): اعتراف منه برسالتهم وأنه مؤمن بهم مصدق لهم، وقدم النصيحة على اظهار الإيمان لأنه كان ساعياً في النصح[٤].

---

(١) تفسير روح المعاني(٢/ ٢٢٦).

(٢) نفسه(٢٢/ ٢٢٦).

(٣) تفسير الفخر الرازي(٢٦/ ٥٥).

(٤) انظر تفسير الفخر الرازي(٢٦/ ٥٥).

﴿اتبعوا من لا يسألكم اجراً وهم مهتدون﴾: كلام في غاية الحسن، حيث نجد الرجل قد نزل درجة في سبيل استقطابهم وهدايتهم، فكأنه يريد أن يقول بأن الامتناع عن الإتباع لا يحسن الا بأحد أمرين:

١. إما المغالاة بطلب الأجر.

٢. وإما لعدم الاعتماد على اهتدائه ومعرفته الطريق.

ولكن هؤلاء لا يطلبون أجره، وهم مهتدون عالمون بالطريقة المستقيمة فهب أنهم ليسوا بمرسلين هادين، أليسوا بمهتدين؟! فاتبعوهم.

﴿وما لي لا أعبد﴾: هنا يبرز الكلام في معرض النصيحة لنفسه، وهو يريد مناصحة قومه. وفي هذا الكلام إشارة إلى أن الأمر من جانب المعبود واضح لا خفاء فيه.

﴿الذي فطرني﴾ ينبيء عن الاقتضاء؛ فإن الخالق ابتداءً مالك، والمالك يجب على المملوك اكرامه وتعظيمه.

ونرى الرجل هنا يتلطف في إرشادهم، حيث أورده في معرض المناصحة لنفسه، فأراهم أنه اختار لهم ما اختاره لنفسه[1]، والمراد حقيقة تقريعهم على ترك عبادة خالقهم إلى عبادة غيره.

﴿واليه ترجعون﴾: يلمح في ذلك تهديدهم وتخويفهم من سوء المنقلب والرجوع إلى الله. كما فيه ترجية لهم بالله إذا هم أحسنوا عبادته.

قال الفخر الرازي (واليه ترجعون): إشارة إلى الخوف والرجاء[2]. وفي تقديم الجار والمجرور إشارة إلى اختصاص الله سبحانه بالرجوع إليه حيث إن مرجع الجميع إلى الله تعالى لا إلى غيره.

---

(١) تفسير أبو السعود(٤/ ٣٨١).

(٢) تفسير الفخر الرازي(٢٦/ ٥٦).

﴿أأتخذ من دونه آلهه﴾ قال الشيخ الالوسي (إنكار ونفي لاتخاذ جنس الآلهة على الإطلاق. وفيه من تحميق من يعبد الأصنام ما فيه)[١].

ولما بين هذا الرجل أنه يعبد الله بقوله (الذي فطرني) بين أن من دون الله لا تجوز عبادته، لأنه محتاج مفتقر حادث، والمتخذ لا يكون الهاً. ولهذا قال الله تعالى ﴿ولم يتخذ ولداً﴾ الفرقان(٢) ﴿ما اتخذ الله صاحبه ولا ولداً﴾ الجن(٣) وقال ﴿الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً﴾ الاسراء(١١١)[٢].

﴿إن يردن الرحمن بضر لا تغن عني شفاعتهم شيئاً ولا ينقذون﴾: قال صاحب الكشاف: (يريد هذا الرجل أن يقول: اسمعوا قولي، وأطيعوني، فقد نبهتكم على الصحيح الذي لا معدل عنه، إن العبادة لا تصح إلا لمن منه مبتدؤكم، واليه مرجعكم وما أدفع العقول وأنكرها لأن تستحبوا على عبادته أشياء، إن أرادكم هو بضر وشفع لكم هؤلاء لم تنفع شفاعتهم ولم يُمكَّنوا من أن يكونوا شفعاء عنده، ما لم يقدروا على انقاذكم منه بوجه من الوجوه)[٣]. وقد تدرج هذا الرجل في نقد الآلهة حيث نفى عنها الجاه أولًا وثنى بنفي القدرة حيث عبر عن ذلك بانتفاء الإنقاذ ﴿إني إذن لفي ضلال مبين﴾:

لم يرد الرجل أن يواجههم بما يمكن أن يكون سبباً لنفورهم وابتعادهم، ولذلك أتهم نفسه بالضلال إن اتخذ آلهة (هذه صفتها) من دون الله وهو في الحقيقة يقصدهم. وهذا من ادب الداعية في مخاطبة الناس؛أن يتحدث اليهم وكأنه واحد منهم، يريد لهم ما يريده لنفسه وينصح لهم ما ينصحه لنفسه، وأن تكون لهجته لهجة المحب المتواضع المتلطف، وهذا كله باد في مقولة هذا الرجل الذي جاء من أقصى المدنية يسعى.

﴿إني آمنت بربكم فاسمعون﴾: (الخطاب هنا يحتمل أن يكون للمرسلين بطريق

---

(١) تفسير روح المعاني(٢٢/ ٢٢٧).

(٢) انظر تفسير الفخر الرازي(٢٦/ ٥٧).

(٣) تفسير الكشاف(٣/ ٣١٩).

التلوين،روما لزيادة التقرير، وإظهارا للاختصاص،والاقتداء بهم، كأنه قال بربكم الذي أرسلكم، ويمكن أن يكون للكفار، ويمكن أيضاً أن يكون خطاباً للعامة)[١].

وقد رجح الشيخ شهاب الدين الالوسي أن يكون الخطاب للكفار من قومه، شافههم بذلك إظهارا للتصلب في الدين، وعدم المبالاة بالقتل، وإضافة الرب إلى ضميرهم لتحقيق الحق والتنبيه على بطلان ما هم عليه من اتخاذ الأصنام أربابا[٢].

فإذا كان الخطاب للكفار من قومه فهو يريد أن يخرج من ملامتهم وأن يقطع عليهم مقولة (لو أظهرت لنا الإيمان لآمنا معك)[٣].

وإنما قال (آمنت بربكم) ولم يقل (آمنت بربي) لأنه يريد أن يؤكد على أن ربهم هو ربه، والله سبحانه رب الجميع، وإنما حصل الربط عندما قال(وما لي لا اعبد الذي فطرني) وهنا قال(إني آمنت بربكم) حيث فُهم مقصده وأنه يريد أن يبين أن ربهم وربه واحد، وأنه هو فطره، وأنه هو أيضاً ربهم، بخلاف ما لو قال: آمنت بربي، فيقول الكافر: وأنا أيضاً آمنت بربي، ومثل هذا قوله تعالى:﴿الله ربنا وربكم﴾ الشورى(١٥). وإنما قال في البداية (ربي الله) وهنا قال(آمنت بربكم) لأن الأولى كانت بداية كلامه وهو يريد أن يستدرجهم فبدأ دفاعه عن موسى وكأنه لا ذنب له إلا إعلانه بأن الله سبحانه هو ربه ومولاه، وهذا ذنب لا يستوجب القتل؛ حيث أنه لم يمس عقيدتهم بشيء وإنما هو رجل يعلن عن عقيدته دون ان يدعو أحداً إلى ذلك.

أما هنا فقد قال (آمنت بربكم) بعد أن مشى بهم خطوات يستدرجهم ويفل شوكتهم بالهوينى، فهو هنا يوحي إليهم بأن ربهم وربه واحد.

﴿قيل ادخل الجنة﴾: يختفي ذكر الفاعل هنا لشدّ انتباه السامع إلى الحدث، إلى

---

(١) تفسير ابو السعود(٤/ ٣٩١).

(٢) انظر تفسير روح المعاني(٢٢/ ٢٢٨).

(٣) تفسير الفخر الرازي(٢٦/ ٦٠).

دخول الجنة، إلى موجب هذا الدخول. والنص عجيب معجز، يعرض الحدث وكأنه منظر مشهود أمامك كأنه يريد لك أن ترمق هذا الداخل بعينيك وهو يدخل الجنة، فهي مفتحة الأبواب أمامه، لا توجد أمامه عوائق، فليدخل إذن بصبره وجراءته ومناصرته للحق، و استهتاره بكيد أهل الباطل، واستعلائه على جميع المغريات.

قال ابو السعود: (وإنما لم يقل (قيل له أدخل الجنة) لأن الغرض بيان المقول لا المقول له لظهوره،وللمبالغة في المسارعة إلى بيانه)(١).

ومن عجائب فعل هذا الرجل أنه لا ينسى قومه، حتى في لحظة الفرح الكبير، الفرح بلقاء الله ودخول الجنة، فما الذي طاف في فكره وخطر على قلبه في تلك اللحظات؟!(قال يا ليت قومي يعلمون، بما غفر لي ربي، وجعلني من المكرمين).إنه الإيمان الذي يملأ النفس الإنسانية بالمعاني الكريمة، والقيم العالية، فلا يعيش الإنسان داخل حدود نفسه، يعمل في سبيلها ومن أجلها لا أكثر، ولكنه يعيش مع الإنسانية في عالمها الرحب الفسيح يعطيها، ويأخذ منها في تفاعل إيجابي يثري الحياة، ويزيدها بركة ونداوة. قال صاحب الكشاف حول ما قاله الرجل بعد تبشيره بدخول الجنة: (فيه تنبيه عظيم على وجوب كظم الغيظ، والحلم عن أهل الجهل والترؤف على من أدخل نفسه في غمار الأشرار وأهل البغي والتشمر في تخليصه، والتلطف في افتدائه، والاشتغال بذلك عن الشماته به والدعاء عليه...ألا ترى كيف تمنى الخير لقتلته والباغين له الغوائل، وهم كفرة، عبدة أصنام؟!(٢)).

مجمل الآداب المستفادة من هذا الخطاب

١. يجب أن تحمل الكلمة حرارة قلب صاحبها، لكي تلاقي الرضى والقبول ولكي يكون فيها الفاعلية والتأثير، وقد لبست كلمات هذا الرجل الدافئة الودودة

---

(١) تفسير ابو السعود(٤/ ٣٨٢).

(٢) تفسير الكشا ف(٣/ ٣١٩).

المخلصة لبوس قلبه المؤمن، حيث اندفع من أقصى المدينة يطوي المسافة البعيدة بالجهد والمشقة، ساعياً في تكميل قومه ومناصحتهم.

٢. في قول هذا الرجل(يا قوم) وقوله(إني آمنت بربكم) إشعار بأنه لا يضع نفسه خارج قومه، ويخاطبهم من موضع العلو ولكنه واحد منهم، وهو مؤمن بربهم، وهذا أسلوب من الخطاب يستدعي استنزال الخصم، وتليين موقفه واستدراجه إلى الحق.

وحبذا لو يستفيد الوعاظ والخطباء والمدرسون من هذا الأدب فيتركوا صيغة(يقول نبيكم محمد صلى الله عليه وسلم) مثلاً إلى صيغة(يقول نبينا محمد عليه الصلاة والسلام) لكي يدرج نفسه في غمارهم، وأن همهم همه.وصيغة(إن دينكم أيها الأخوة يامر بكذا) ليقولوا(إن ديننا) فهذا (لعمر الحق) أقرب إلى قلوب الناس وأدعى للتأثير في نفوسهم. ولكن مثل هذا الصيغة قد تكون أدعى للإستجابة في بعض الأحيان بالنظر لخصوصية المناسبة وطبيعة المخاطبين.

٣. يحسن بالداعية دائماً أن يهضم نفسه متواضعاً من أجل الله تعالى وخاصة في مجال الدعوة والحوار لتأليف الناس ودفع شرهم ونقمتهم وإطفاء غضبهم، وقد رأينا ما قاله الرجل الذي جاء من أقصى المدينة يسعى: (إني إذن لفي ضلال مبين) ولم يقل (أنتم أذن في ضلال) وقال (إني آمنت بربكم) ولم يقل (بربي).

وبعد أن تحمل أذاهم وتلقى البشرى بدخول الجنة قال: (يا ليت قومي يعلمون).

وهذا كله يشير إلى أنه ليس ماضياً في خدمة نفسه وإكرامها فحسب،ولكنه أيضاً ماض في خدمة دينه ونصرته، ولو أدى ذلك إلى تحمل كل أصناف الإذاية والضر.

٤. ومن أدب خطاب هذا الرجل أنه كان يقدم الدليل البيّن على صدق المرسلين، فهو ليس متطرفاً ولا متعصباً ولكنه يطلب من قومه اتباع الحق الصريح، فهو يقول لهم: (اتبعوا من لا يسألكم أجراً،وهم مهتدون).

أليس يكفي العاقل أن يجد في تفريغ هؤلاء الرسل أوقاتهم لدعوة الناس من غير دنيا يصيبونها أو مغنم قريب يأخذونه اليس يكفي ذلك دليلاً على صدقهم؟!.

ثم هناك دليل آخر (وهم مهتدون) طريقهم طريق هداية يوصل إلى الرشد والطمأنينة، تأنس له القلوب، وترتاح له النفوس إنهم يدعون إلى عبادة الله الذي فطر السموات والأرض. فهل في دعوة هذه علاماتها شك أو ريب؟!.

****

الفصل الخامس

جهل الكافرين بأدب الخطاب

تمهيد

الكلام في القلب، واللسان دليل على ما في القلب، ولهذا قال الشاعر:

إن الكلام لفي الفؤاد وإنما جعل اللسان على الفؤاد دليلا

وقلب الكافر قلب جاحد مقفر من الخير، يستولي عليه الشيطان، ويسيره وفق مقاصده الشريرة، فلا غرابة أن يظهر الجحود والنكران في كلمات وأحاديث الكفار ومخاطباتهم.

وفي هذا الباب نسلط الضوء على جوانب من مخاطباتهم مع أصفياء خلق الله؛ الأنبياء والرسل، ومخاطباتهم مع الأبناء والآباء ومخاطباتهم مع المؤمنين من قومهم.

ثم نشير بعد ذلك إلى دلالة هذه المخاطبات، وهي أشبه ما يكون بدراسات دقيقة لنفسياتهم وما يختلج بها، حيث نضع بذلك أصابعنا على مواضع الداء التي قادت خطاهم إلى العثار والضلال.

ويتضمن هذا الباب المباحث التالية:

١. جهلهم بأدب مخاطبة الأنبياء والمرسلين.

٢. جهلهم بأدب مخاطبة الأبناء والآباء.

٣. جهلهم بأدب مخاطبة المؤمنين من قومهم.

٤. مراكب النقص التي يشير إليها هذا الجهل.

****

» أولا: جهل الكافرين بأدب مخاطبة الأنبياء المرسلين

من فضل الله تعالى على الناس أجمعين أنه بعث الأنبياء والرسل مبشرين ومنذرين وهُداة إلى طريق الخير والرشاد، ولإخراج البشرية من أجواء الضياع والتيه والشتات، حيث إن الوحي هو المصدر الوحيد الذي يعطي التصور الشامل الكامل لحقيقة الوجود بدءا ًوانتهاء على وجه هذه الأرض. والإنسان مهما بلغ من العلم يظل محجوباً عن رؤية الطريق كله، بل إنه محجوب عن اللحظة التالية، فأنى له أن يضع خطة لطريق مجهول؟!.

والذين رضوا برسالات الأنبياء وهدايات السماء على مدى التاريخ عاشوا السعادة والطمأنينة والأنس، والذين واجهوها ورفضوها وناصبوا أصحابها العداء ذاقوا خزي الدنيا وعذاب الآخرة.

وقد تحمل الأنبياء والرسل المحامل، وركبوا أصعب المراكب في هذا الطريق؛ حيث لم يكتف الكافرون والضالون بالإعراض عن منهج الرسل، بل راحوا يصدون الناس عن هذا السبيل بكل الأساليب والوسائل، ومع هذا ظلت مسيرة الخير ماضية في طريقها قوية شماء تأخذ مددها من الحق الذي قامت عليه السماء والأرض.

وقد حدثنا القرآن الكريم عما واجه به الكفار هؤلاء الرسل الذين اختارهم الله هداة للبشرية ﴿الله أعلم حيث يجعل رسالته﴾ الأنعام (١٢٤) حدثنا عما لاقاه هذا النفر الكريم المجتبى المختار من عباد الله الذين حملوا مصابيح الهداية رحمة من الله تعالى إلى الناس أجمعين.

وقد اطلعنا على جانب من أكرام الله تعالى لهؤلاء الرسل عند الحديث عن أدب القرآن الكريم في مخاطبة النبي صلى الله عليه وسلم، ولا عجب في ذلك ولا غرابة فإن كرامة الرسول من كرامة المرسل، هؤلاء الرسل هم احباب الله،وأولياؤه وأصفياؤه.

أما الكفرة الفجرة فلهم منطق آخر، منطق جهنمي جاحد، لا يدرك خطر الكلمة ولا أثرها. والذي يشفي صدور قوم مؤمنين أن الله سبحانه أخزى الكافرين على مدى التاريخ، ونصر الأنبياء والمرسلين.

﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ الانعام(١١٥).

وقد تضمنت مخاطباتهم للأنبياء شتى الوان الهجر والتهديد والمضايقة فمن ذلك.

أولاً: التهديد بالسجن

فها هو فرعون الطاغية يهدد باطفاء شموع الهداية ومصادرة الكلمة الطيبة التي حملها اليه موسى عليه السلام، فيهدده بالسجن. ﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ الشعراء(٢٩).

(قال الرازي: "ولم يقل (لأسجننك) مع أنه أخصر لأنه لو قال(لأسجننك) لا يفيد الا صيرورته مسجوناً. أما قوله (لاجعلنك من المسجونين) فمعناه أني أجعلك واحداً ممن عرفت في سجوني"[1].

وهذه الطريقة الفرعونية هي نفس الطريقة التي بيّت كفار قريش عليها مكرهم بالنبي عليه الصلاة والسلام.

﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾ الانفال(٣٠).

قال الفخر الرازي: (والحاصل أنهم احتالوا على إبطال أمر محمد صلى الله عليه وسلم، والله تعالى نصره وقواه فضاع فعلهم، وظهر صنع الله تعالى)[2].

﴿يريدون ليطفئوا نور الله بافواهم﴾ الصف(٨) هكذا يحاولون، ولهذا يعملون. قال الزمخشري: (وإطفاء نور الله بأفواههم تهكم بهم في إرادتهم، مثلت حالهم بحال من ينفخ في ضوء الشمس بغيه ليطفئه)[3].

---

(١) تفسير الفخر الرازي(٢٤/ ١٣١).

(٢) تفسير الفخر الرازي(١٥/ ١٦٠).

(٣) الكشاف(٤/ ٩٨).

ثانياً: الإبعاد والتغريب

فها هو لوط عليه السلام يتآمر قومه ليخرجوه، لا لشيء إلا أنه استنكر الانحراف، وطالبهم بالانسجام مع الفطرة وعدم معاكستها.

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ النمل(٥٦).

قال الأستاذ سيد قطب رحمه الله: "وقولهم هذا قد يكون تهكماً بالتطهر من هذا الرجس والقذر، وقد يكون أنكاراً عليه أن يسمىٰ هذا تطهراً، فهم من انحراف الفطرة بحيث لا يستشعرون ما في ميلهم المنحرف من قذارة. وقد يكون ضيقاً بالتطهر إذا كان يكلفهم الاقلاع عن ذلك الشذوذ"(١).

قال الشيخ الالوسي: (وفي إضافة القرية إلىٰ "كم" تهوين للأمر)(٢). ولا عجب في ذلك فإن الكافر في عماية وضلال لا يرىٰ بسببها حقائق الاشياء ولا يرىٰ في ايذاء الأنبياء شيئاً كبيراً يستحق أن يذكر فهي قريتهم، وهم فيها أهل الرأي وأصحاب القرار، فما الحاجة لوجود إنسان مثل لوط عليه السلام يقترح عليهم؟!. إذن لا بد من اخراجه فهو الشاذ المخالف وإخراجه أيسر!!؛ فمن الذي خرج حقيقة؟!.

﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ النمل(٥٨).

وقد واجه سيدنا شعيب عليه السلام نفس التهديد: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ﴾ الأعراف(٨٨).

قال الشيخ أبو الفضل شهاب الدين الالوسي:"لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك

(١) في ظلال القرآن(٦/ ٢٨٤).

(٢) تفسير روح المعاني(٢٠/ ٢).

من قريتنا) بغضاً لكم، ودفعاً لفتنتكم المترتبة على المساكنة والجوار. والتأكيد القسمي للمبالغة والاعتناء بالحكم، و(معك) متعلق بالإخراج لا بالإيمان، ونسبة الإخراج إليه عليه السلام أولاً وإلى المؤمنين ثانياً للتنبيه على أصالته عليه السلام في ذلك، وتبعيتهم له فيه، وتوسيط النداء باسمه العلي بين المعطوفين لزيادة التقرير والتهديد الناشئين عن غاية الوقاحة والطغيان"[1].

حيث نلاحظ شدتهم وإصرارهم على اخراج النبي الكريم وأتباعه إن بقي على ما هو عليه من دعوتهم إلى عبادة الله، بل ذهبوا إلى أبعد من ذلك، فليس يكفيهم أن يذر النبي الدعوة كلها فحسب، ولكنهم يطمعون في أن يعود النبي – وحاشاه – إلى ملتهم!!.

ويبدو أن جميع الرسل واجهوا هذه المشكلة ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ابراهيم(١٣).

قال الشيخ الالوسي(إن في أبلغ من (إلى) في قوله تعالى(أو لتعودن في ملتنا) لدلالته على الاستقرار والتمكن كأنهم لم يرضوا بأن يتظاهروا أنهم من أهل ملتهم) ثم قال (إنهم لما أرادوا أخراج المخاطبين من ديارهم جعل عقوبتهم إخراجهم من دار الدنيا، وتوريث أولئك أرضهم وديارهم، وفي الحديث (من آذى جاره أو رثة الله تعالى داره) [2]. [3]

وهكذا يقابل الله تعالى قسوتهم على الأنبياء والاصفياء بالعذاب الشديد بعد الإنظار والامهال وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا يقول: "إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته"[4].

---

(١) تفسير روح المعاني (٩/ ٢).

(٢) أنظر كشف الخفاء للشيخ اسماعيل العجلوني، مؤسسة الرسالة، الطبعة الرابعة١٩٨٥م، (٢/ ٢٨٥) حديث رقم٢٣٣٢ ولم اعثر له على تخريج في كتب الحديث، لكن الشيخ العجلوني قال: لعله مثل سائر وليس بحديث.

(٣) تفسير روح المعاني(١٣/ ٢٠٠).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، أنظر فتح الباري، كتاب تفسير، باب (وكذلك اخذ ربك إذاً القرى وهي ظالمة إنه أخذه اليم شديد)(٨/ ٣٥٤).

وقد اخبر ورقة بن نوفل سيدنا الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم بما ينتظره من اخراج قومه له كما حدث مع الأنبياء السابقين فقال: (يا ليتني فيها جذعاً، ليتني أكون حيا إذ يخرجك قومك، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أوَمُخرجي هم؟ قال: نعم لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به الا عودي. وإن يدركني يومك انصرك نصراً مؤزراً)[1].

ثالثاً: التهدد بالقتل والرجم

بل لقد ذهب الكفار إلى مدى أبعد في التلويح بالقوة قتلاً ورجماً لرسل الله ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخۡشَوۡنَهُۥ وَلَا يَخۡشَوۡنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ﴾ الاحزاب(٣٩).

فهددوا سيدنا نوحاً عليه السلام بالرجم، وذلك أعلى درجات العداء والخصومة فقالوا: ﴿قَالُواْ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمَرۡجُومِينَ﴾ الشعراء(١١٦) ويشعر النص الكريم بأنهم معتادون على الرجم، حيث إن مرجوميهم كثراً، وليس نوح الا واحداً من المرجومين. ومثل هذا الكلام قيل لشعيب عليه السلام: ﴿وَلَوۡلَا رَهۡطُكَ لَرَجَمۡنَٰكَ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡنَا بِعَزِيزٖ﴾ هود(٩١).

فهم يعلنون من غير تحرج ولا استخفاء أن الذي يمنعهم من قتله وايذائه وجود رهطه الذين كانوا على ملتهم، أما هو فلا مكانة له عندهم!!.

قال صاحب الكشاف: "وقد دل ايلاء ضميره عليه السلام حرف النفي على أن الكلام واقع في الفاعل لا في الفعل، كأنه قيل: "وما أنت علينا بعزيز، بل رهطك هم الأعزة علينا"[2]. حيث أن تقديم الضمير (انت) وهو هنا فاعل معنوي وإن لم يكن خبره فعلًا بل صفة مشبهة وهي(عزيز) وإيلاءه النفي افاد الاختصاص بمعنى أن نفي العزة مقصور عليك لا يتجاوزك إلى رهطك[3].

---

(١) اخرجه البخاري في صحيحه، انظر فتح الباري، كتاب بدء الوحي، باب أول ما بديء به الرسول من الوحي(١/ ٢٢).

(٢) الكشاف(٢/ ٢٨٩) وانظر مفتاح العلوم ص٢٣٢).

(٣) تفسير روح المعاني(١٢/ ١٢٤).

رابعاً: التهديد بالإحراق

فقد هددوا أبا الأنبياء إبراهيم عليه السلام بالاحراق،ونفذوا تهديدهم، ولنستمع إلىٰ الحوار الذي انتهىٰ بهذا التهديد!!.

﴿وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ ۖ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يَئِسُوا۟ مِن رَّحْمَتِى وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ سورة العنكبوت.

قال الشيخ ابو البركات النسفي:

(قال بعضهم لبعض أو قاله واحد منهم- يعني اقتلوه أو حرقوه- وكان الباقون راضين فكانوا جميعاً في حكم القائلين فاتفقوا علىٰ تحريقه)(١).

ومعلوم أن نفوس الأنبياء الكبيرة لا ترغب إلا فيما عند الله، ولا ترهب من وعيد العباد ولا من تهديدهم، وكان الكفار إذا أفلسوا وفشل أسلوبهم في استعمال القوة ضد أنبيائهم يلجأون إلىٰ أساليب أخرىٰ.

---

(١) تفسير النسفي(٣/ ٢٥٥).

خامساً: الاستهزاء والسخرية:

حيث نجدهم يستهزئون بأتباع الأنبياء، ويصفونهم بأنهم فريق من الضعفاء والعبيد والسذج، ولنستمع ما خاطبوا به سيدنا نوحاً عليه السلام: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ﴾ هود(٢٧).

فهم يضعون ثلاث شبهات لطعنهم بالنبوة[١]:

- الأولى: أنهم يرون الأنبياء بشراً مثلهم.
- الثانية: ويرون اتباعهم ارذال القوم من أهل الصنائع الخسيسه.
- الثالثة: لا يرون لهم فضلاً في عقل، ولا في رعاية المصالح العاجلة.

وهي شبهات ساذجة لا تنهض. وكان الكفرة يصفون الأنبياء بأنهم بشر كسائر الناس، طالبين أن يحمل الرسالة السماوية اليهم ملائكة: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ﴾ الانعام(٨)، ففي عدم نزول الملائكة مصلحة محققة لهم. قال الامام الزمخشري: إنهم إذا عاينوا الملك قد نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم في صورته ثم لا يؤمنون لم يكن بد من إهلاكهم، ثم إنه يزول الاختيار الذي هو قاعدة التكليف عند نزول الملائكة فيجب اهلاكهم، ويمكن أنهم إذا شاهدوا ملكاً في صورته زهقت اوراحهم من هول ما يشاهدون[٢].

فنحن نرى هؤلاء الكفرة الفجرة يركضون وراء حتوفهم ومهالكهم،غير مدركين لرحمة الله ولطفه بالبشر أجمعين إذ ارسل اليهم رسلاً منهم على شاكلتهم.

---

(١) تفسير الفخر الرازي(١٧/ ٢٢٠).

(٢) تفسير الكشاف(٢/ ٦) بتصرف قليل.

سادسا:وصف الأنبياء بالجنون

يقول المولى سبحانه: ﴿وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ۝٥١ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ۝٥٢﴾ القلم(٥١، ٥٢).

ويقول: ﴿ وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾ الحجر(٦) وواضح أن هذا خطاب تهكم واستهزاء[١].

سابعاً: محاولة التنقيص من عباداتهم والاستهزاء بها، وعزلها عن التأثير في السلوك.

يقول المولى تبارك وتعالى: ﴿ قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴾ هود(٨٧).

حيث كانوا يقصدون بقولهم هذا السخرية والهزء كما أنك إذا رأيت معتوهاً يطالع كتباً ثم يذكر كلاماً فاسداً، فيقال له: هذا من مطالعة تلك الكتب؟! على سبيل الهزء والسخرية[٢].

ويشير قولهم هذا إلى تفريقهم بين العقيدة والشريعة، فهم لا يرون في العقيدة أكثر من هيامات روحية لا علاقة لها بالسلوك[٣].

ثامناً: الاستهتار وعدم المبالاة

حيث كانوا يخاطبون الأنبياء، مخاطبة غير المبالي بعواقب ما يقول، ولنستمع: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ

---

(١) الكشاف(٢/ ٣٨٧) تفسير الفخر الرازي(١٩/ ١٦٢).

(٢) تفسير الفخر الرازي(١٨/ ٤٤).

(٣) للاستاذ سيد قطب كلام في منتهى الروعة عند تفسيره لهذه الآية الكريمة أنصح بالرجوع اليه، انظر في ظلال القرآن(٤/ ٦١٢).

﴿٢٨ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ العنكبوت(٢٩).

ومن هذه المخاطبات ما بينه سبحانه بقوله: ﴿قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ﴾ الشعراء(١٣٦).

تاسعاً: محاولة تيئيس الأنبياء، وبث الوهن والضعف في نفوسهم

حيث كانوا يوقعون بلادتهم وقلة فهمهم على الأنبياء قائلين: ﴿مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾ هود(٩١) قالوا ذلك لشعيب عليه السلام، ووصفوا كلام نوح عليه السلام بأنه جدال: ﴿قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ هود(٣٢).

وهذا كلام أناس يائسين، غير جادين، يسيئون تقدير العواقب ويستعجلون العقوبة بدلاً من طلب الهداية، ويحاولون بأساليبهم هذه وضع الأنبياء في حيز اليأس، وأنى لهم ذلك؟!

عاشراً: التشكيك في مصدر الوحي

وتبنى مخاطبات الكفار لرسل الله عليهم الصلاة والسلام على قاعدة سوء الظن بهم، وأن هذا الذي ينزل عليهم من الوحي، إنما هو من عند أنفسهم، وأنه خاضع للتغيير والتبديل، وأنهم جاءوا بهذا السحر لإخراج الناس من ملكهم والاستيلاء على بلادهم.

يقول سبحانه: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ يونس(١٥).

(وهذا طلب عجيب لا يصدر عن جد، إنما يصدر عن عبث وهزل وعن جهل كذلك بوظيفة القرآن وجدية تنزيله، وهو طلب لا يطلبه الا الذين لا يظنون أنهم سيلقون الله)[١].

---

(١) في ظلال القرآن(٤/ ٣٩٩).

ومن هذا النوع قوله تعالىٰ في سياق الحديث عن فرعون ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ۝٥٦ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ۝٥٧ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ۝٥٨﴾ طه(٥٦ ،٥٨).

قال الشيخ ابو السعود: "إنما قاله لحمل قومه على غاية المقت لموسىٰ عليه السلام بإبراز أن مراده ليس مجرد إنجاء بني إسرائيل من أيديهم بل إخراج القبط من وطنهم وحيازة أموالهم وأملاكهم بالكلية، حتىٰ لا يتوجه إلىٰ اتباعه أحد، ويبالغوا في المدافعة والمخاصمه.

وسمىٰ- يعني فرعون- ما أظهره موسىٰ عليه السلام من المعجزة الباهرة سحراً لتجسيرهم علىٰ المقابلة والمخاصمة"(١) .

وقد سبق في هذه الدراسة أن اطلعنا علىٰ نماذج من أدب الخطاب لهذا النوع من الناس(اعنىٰ الكافرين) علىٰ نحو يفوّت عليهم كل مقاصدهم الآثمة، ليعلو صوت الحق، وتزل قدم الباطل فيهوي صريعاً.

لكن الاطلاع هنا علي نماذج مخاطبات الكفار لأنبياء الله يضعنا أمام الجهد الكبير الذي بذله هؤلاء الاصفياء في سبيل الدين، ونشر الدعوة، وهذا بدوره يؤكد علىٰ ضرورة تزود الدعاة والوعاة من أبناء هذا الدين بزاد الصبر والاحتساب، وأن يتعلموا سبل مواجهة الخصم بما يخفف من حدته ونُفرته، ويساعد علىٰ استنزاله إلىٰ أن يشرح الله صدره للإسلام، وهذا هو مقصد الدعوة وغايتها الكبرىٰ.

****

(١) تفسير ابو السعود(٣/ ٤٧١).

» ثانياً: جهل الكافرين بأدب مخاطبة الأبناء والآباء.

كل إناء ينضح بما فيه، والشيء من معدنه لا يستغرب، وهكذا فحال الكافرين تكشف عن نفوسهم الملوثة بأرجاس الشرك، وألسنتهم التي تثقل عليها الكلمة الطيبة، مثلما تنبئنا عن قلوبهم المغلقة التي لا ترىٰ الفهم والسداد الا في جانب أصحابها. ولا غرابة في ذلك فإن الكبر والإعجاب بالنفس يقودان الإنسان إلىٰ شر من ذلك.

ولنعرض الآن نموذجاً من مخاطبة الآباء الكافرين لابنائهم، ولنر إلىٰ أي مدىٰ استطاعت عاطفة الابوة أن تطامن من حدة اللهجة الكافرة الجافية، وقبل أن نستمع إلىٰ المخاطبة المقصودة، فإني استأذنك عزيزي القاريء بالاستماع إلىٰ موجب هذه المخاطبة.

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا﴾ مريم(٤١-٤٥).

هل رأيت اللطف والرفق والتودد بالمخاطبة؟! مخاطبة الابن المؤمن والصديق النبي لابيه، وهل وجدت فيها ما يحوج الي الا ستكبار والاعتزاز بالاثم؟! أم إنه الكفر يأبىٰ ألا أنه يعلن عن نفسه؟! أنانياً شريعته الهوىٰ، حيوانياً شهوته السيطرة والغلب؟!.

فلنستمع إلىٰ ردّ الأب علىٰ ما قاله ابنه النبي: ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا﴾ مريم(٤٦) فماذا نجد في رده؟!.

١. قابل حجة ابنهُ النبي بالتقليد، فإنه لم يذكر في مقابلة حجته الا ان قال اراغب أنت عن الهتي يا ابراهيم، حيث أصر علىٰ ادعاء الهية الاصنام جهلاً وتقليداً.

قال الشيخ ابو السعود في تفسيره لقوله تعالىٰ: (أراغب) "توجيه الإنكار إلىٰ نفس الرغبة مع ضرب من التعجب، كأن الرغبة عنها مما لا يصدر عن عاقل، فضلاً عن ترغيب غيره عنها.

وقوله تعالى (لئن لم تنته لأرجمنك) تهديد وتحذير مما كان عليه من العظة والتذكير"[١].

٢. قابل وعظه الرفيق الحنون بالسفاهة حيث هدد بالضرب والشتم[٢].

٣. قابل رفقه بالعنف، فلم يقل له يا بني مقابل يا أبت بل قال: يا إبراهيم[٣].

قال الفخر الرازي في تفسيره: (وإنما حكى الله ذلك لمحمد صلى الله عليه وسلم ليخفف عن قلبه ما كان يصل إليه من أذى المشركين، فيعلم أن الجهال منذ كانوا...على هذه السيرة المذمومة)[٤].

والرجم لغة: القتل والقذف واللعن والطرد ورمي بالحجارة[٥]. ولعل الوالد محفوزاً بكفره وفجوره يقصد كل هذه المعاني، ويهدد بها ابنه ابراهيم عليه السلام.

أما الهجر الذي طلبه بقوله(واهجرني ملياً) فيحتمل الهجر بالقول، أي لا تحدثني ولا تكلمني، ويحتمل الهجر بالمفارقة في الدار والبلد وهو الأظهر[٦].

والملّي لغة: هو الزمن الطويل[٧]، والملوان: الليل والنهار[٨].ومدة الهجر المطلوب(ملياً) أي مدة بعيدة.

ولنستمع الآن خاشعين إلى موقف إبراهيم عليه السلام من هذه المخاطبة القاسية

---

(١) تفسير ابو السعود(٣/ ٤٢٩).

(٢) انظر تفسير الفخر الرازي(١١/ ٢٢٨).

(٣) انظر الكشاف(٢/ ٥٢٢).

(٤) تفسير الفخر الرازي(١١/ ٢٢٨).

(٥) الفيروزابادي القاموس المحيط، دار العلم للجميع، بيروت،(٤/ ١١٧).

(٦) تفسير الفخر الرازي(١١/ ٢٢٩).

(٧) المعجم الوسيط(٢/ ٨٨٧).

(٨) مجمل اللغة(٤/ ٨٤١).

الغليظة: ﴿قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكَۖ سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيّٗا﴾ مريم(٤٧).

قال الامام الزمخشري: "(سلام عليك) سلام توديع ومتاركة كقوله تعالى: ﴿لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ لَا نَبۡتَغِي ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ القصص (٥٥).

وقوله ﴿خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا﴾ الفرقان(٦٣). وهذا دليل على جواز متاركة المنصوح والحال هذه.

ويجوز أن يكون دعا له بالسلامة استمالة له، ألا ترى أنه وعده الاستغفار؟"(١).

وهكذا يفتح الايمان بنداوته قلوب أصحابه لاستيعاب جهالة الجاهلين مقتدين في ذلك بقوله سبحانه ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ الاعراف (١٩٩).

فيطيب النبت بطيب المنبت، ويخبث بخبثه، وصدق الله العظيم ﴿وَٱلۡبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخۡرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ وَٱلَّذِي خَبُثَ لَا يَخۡرُجُ إِلَّا نَكِدٗاۚ﴾ الاعراف(٥٨).

ونقف الآن أمام مشهد آخر يخاطب فيه الابن الكافر أبويه المؤمنين لنعلم أن المنطق الجاحد هو هو لم يتغير، لأن المعين متجانس، فالكفر هو الكفر ولنستمع: ﴿وَٱلَّذِي قَالَ لِوَٰلِدَيۡهِ أُفّٖ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِيٓ أَنۡ أُخۡرَجَ وَقَدۡ خَلَتِ ٱلۡقُرُونُ مِن قَبۡلِي وَهُمَا يَسۡتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيۡلَكَ ءَامِنۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ الاحقاف (١٧).

وكأن هذا (الذي قال لوالديه) اختار الكلمة التي ورد النهي عنها بالنص الكريم وهي أدنى ما يعبر به المرء عن الضيق والضجر والكراهية ليطلقها في وجه والديه، ثم يعلن أن هذا الضيق والضجر موجه لهما بدليل قوله (أف لكما).

قال الشيخ ابو السعود: واللام في (لكما) لبيان المؤفف له كما في (هيت لك)(٢).

فهذا الولد العاق ليس متضايقاً من شيء آخر، الا من والديه وبهما. لذلك نجده يخاطبهما

---

(١) الكشاف (٢/ ٥١٢).

(٢) تفسير ابو السعود(٥/ ٥٧٦).

بالتأفف الجارح الخشن، ثم يمضي به ضلاله اليجحد الآخرة بالحجة الواهية.. وهي "أتعدانني أن أخرج وقد خلت القرون من قبلي".

والوالدان يريان الجحود ويسمعان الكفر، ويفزعهما قول ابنهما العاق لربه ولهما... ويرتعش حسهما لهذا التهجم والتطاول ويهتفان به (وهما يستغيثان الله): "ويلك آمن إن وعد الله حق". ويبدو من حكاية قولهما الفزع من هول ما يسمعان، بينما يصر الولد على كفره، ويلجُّ في جحوده! فيقول: (ما هذا الا أساطير الأولين)[(١)].

والأساطير جمع أسطورة وهي الأباطيل [(٢)]، وقيل جمع اسطاره، ومراده بها ما سطره الأولين أي كتبوه من الأشياء الباطلة التي لاحقيقة لها.

ويبدو من كلام هذا الولد العاق النكد انه يطلق الكلام على عواهنه[(٣)]. هكذا من غير نظر في صحة الكلام أو في عواقبه. ولو راجع نفسه قليلاً لتستر على كلامه واحتفظ به، لأنه يدل على جهله الكبير.

فقوله مثلاً: (أتعدانني أن أخرج وقد خلت القرون من قبلي) يدل على جهله بأخبار البعث والقيامة، فهو يهجم على عمياء، ولا يفهم ما يقوله خصمه فيتكلم كلام المندفع غير المتريث، حيث إن أحداً لم يقل بأن القيامة ستقوم على دفعات، حتى يصح احتجاجه بأن أحداً من أهل القرون السابقه لم يبعث.

أما قوله(ما هذا الأساطير الأولين) فإنه لو درس هذه الاساطير وتبين ما تحمله من مغالطات وخرافات، ثم درس القرآن الكريم لوجد بينهما بعد المشرقين ولأنصف نفسه من الوقوع في المكابرة.

---

(١) تفسير (في ظلال القرآن)(١٧/ ٤١٧).

(٢) انظر مختار الصحاح ص٢٩٨.

(٣) أي يقوله من غير فكر ولا رؤية، والعاهن الحاضر، فكانه اكتفى بما حضر من غير تروٍ انظر العجم الوسيط(٢/ ٦٣٤).

ويا لله ما اعظم خلق هذين الوالدين اللذين صبرا على ايذاء ابنهما، وهو يتأفف في وجوههما، ويظهر ضيقه بهما، فلم تزدهما جفوته الا رحمة به واشفاقاً عليه(وهما يستغيثان الله ويلك آمن إن وعد الله حق).

فما أعظم الإيمان عندما يعمل في النفس فيخلصها من حظوظ الأنانية والاستئثار حيث يتواضع الإنسان ويهضم نفسه في موادعه مخلصة استنزالاً لخصمه، واستقطاباً له ليأوي إلى رحاب الإيمان، ويدخل في رحمة الله.

وما اقبح الكفر الذي يفرق بين المرء وربه، ويجعل الإنسان الضعيف خصيماً مبيناً لخالقه، فينسى ضعفه، وعجزه وفقره، ويخرج من حَيز التأدب ويبوء بالخسارة الأبدية.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ خَٰسِرِينَ﴾ الاحقاف (١٨).

****

» ثالثاً: جهل الكافرين بأدب مخاطبة المؤمنين من قومهم

عرض القـرآن الكريم نماذج من مخاطبـات الكافرين للمؤمنين من أقوامهم في سـور كثيرة من كتاب الله تعالىٰ، وهذه المخاطبات على تباعد الزمان والمكان والمناسبة بنيها الا أنها تسير في اتجاه واحد رافض للإيمان وقيمه وتصوراته فمن هذه المخاطبات.

- أولا: قولـه تعالـىٰ ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾ العنكبوت(١٢، ١٣).

قـال الإمـام الشـوكاني: (الـلام فـي قولـه (للذيـن آمنـوا) هـي لام التبيلغ،والـلام في(ولنحمـل) لام الأمر، ونقـل عن الزجـاج قوله: هو أمر فـي تأويل الشـرط والجزاء أي: إن تتبعوا سبيلنا نحمل خطاياكم، وقد وصفهم الله سبحانه بالكذب في هذا التحمل فقال: (انهم لكاذبون) فيمـا ضمنوا به من حمـل خطاياهم.(وليحملن اثقالهـم) أي اوزارهم التي عملوها، والتعبير عنها بالاثقال للإيذان بأنها ذنوب عظيمة)[١].

وقال الشيخ ابو السعود عند تفسيره لقوله تعالىٰ (وقال الذين كفروا للذين آمنوا اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم).

"أي اسلكوا طريقتنا التي نسـلكها في الدين، عبر عن ذلك بالاتباع، الذي هو السير خلف ماشٍ آخر تنزيلاً للمسلك منزلة السالك فيه، أو أتبعونا في طريقنا"[٢].

وقال: "بأن الآية بيان لحملهم المؤمنين على الكفر بالاستماله بعـد بيان حملهم لهم عليه بالأذية والوعيد"يشـير بذلك إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ العنكبوت (٨).

---

(١) انظر فتح القدير(٤/ ١٩٤).

(٢) تفسير ابو السعود(٤/ ٢٥٢).

وقولـه: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ ﴾ العنكبوت(١٠).

وهكذا يستغفل الكافرون الناس، ويحاولون تمرير فهمهم القاصر لقضية التبعة والجزاء في الآخرة على المؤمنين باسلوب متهكم[١]. وهم بهذا إما جادون وإما هازلون، فإن كانوا جادين فقد كشفوا بهذا الكلام عن فساد تصورهم، وسوء فهمهم، وعدم ادراكهم لفردية التَّبعة، ومسؤولية الإنسان الشخصية عن كل ما يعمل، وإن كانوا هازلين ففي ذلك دليل على إفلاسهم في عالم المناظرة والجدل، حيث أن كلامهم لا يقنع أحداً، ولا يستميل أحداً. وهم في كل ذلك مفلسون، يعيشون على هامش الحياة، كما تعيش البهائم والسوائم على حد سواء.

- ثانياً: ومنها قوله سبحانه ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ يس(٤٧).

على نفس المنهج العاثر الذي بينته الآية السابقة يستمر الكافرون ويحاولون هنا الزام المسلمين بالقول بأنهم يوافقون مشيئة الله، فلا يطعمون من لا يطعمه الله تعالى. وهذا غلط ومكابرة ومجادلة بالباطل؛ فإن الله سبحانه أغنى بعض خلقه، وأفقر بعضاً، وأمر الغني أن يطعم الفقير)[٢]. وهو سبحانه يبتلي من يشاء بما يشاء.

ويلاحظ ان المؤمنين تأدبوا في مخاطبتهم حيث قالوا لهم: (انفقوا مما..) أي بعض ما هو لله في أيديكم، فليس في طلب هذا القدر احراج لهم أو تضييق عليهم.

ويفيد قوله تعالى في حكاية قولهم: (قال الذين كفروا للذين آمنوا...) أن مقصد الكفار الاعتراض على المؤمنين، لا الامتناع عن الاطعام؛ فقد كانوا يقرون الضيف، ويعترفون بأن ذلك من الصفات الحميدة، فانظر - رعاك الله- إلى مقاصدهم، وكيف أنهم يبحثون عن طريقة يعارضون بها أهل الإيمان، ويقفون بها في مواجهتهم!![٣]

---

(١) انظر (في ظلال القرآن): (٦/ ٣٩٤).

(٢) انظر تفسير فتح القدير (٤/ ٣٧٣).

(٣) انظر تفسير الفخر الرازي (٢٦/ ٨٤).

- ثالثاً: ومن مخاطبات الكافرين للمؤمنين من قومهم ما بينه قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ الاحقاف(١١).

وهكذا فهم يظنون أن الحق والخير دائماً في جانبهم، وأن أحداً لا يمكن أن يسبقهم اليه، (فلا بد من عيبٌ في الحق ما داموا لم يهتدوا به، ولم يذعنوا له، لا بد من عيب في الحق لأنهم هم لا يجوز لهم أن يخطئوا، وهم في نظر أنفسهم أو فيما يريدون أن يوجهوا به الجماهير مقدسون معصومون لا يخطئون!)[١].

ويظن هؤلاء الكفرة أن الرئاسة الدينية مما ينال بأسباب دنيوية، وزلَّ عنهم أنها منوطة بكمالات نفسية وملكات روحانية، مبناها الاعراض عن زخارف الدنيا الدنية، والاقبال على الآخرة بالكلية[٢].

قال الشيخ القرطبي(رحمه الله)(قيل لبعضهم: هل في القرآن من جهل شيئاً عاداه؟ فقال: نعم قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ ومثله: قوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِۦ﴾[٣] يونس (٣٩).

وقال الشيخ ابو الفضل شهاب الدين الألوسي رحمه الله في تفسيره لقوله تعالى: (لو كان خيراً ما سبقونا اليه).

"قالوا ذلك لما رأوا أن أكثر المؤمنين كانوا فقراء ضعفاء، كمعاذ، وصهيب وبلال، وكانوا يزعمون أن الخير الديني يتبع الخير الدنيوي، وأنه لا يتأهل للأول الا من كان له القدح المعلى من الثاني، ولذا قالوا: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ الزخرف(٣١) وخطؤهم في ذلك مما لا يخفى"[٤].

---

(١) في ظلال القرآن(٧/ ٤١٠).

(٢) تفسير ابو السعود(٥/ ٥٧٤).

(٣) الجامع لأحكام القرآن(١٦/ ١٩٠).

(٤) تفسير روح المعاني(٢٦/ ١٤).

وهـذا المسـلك فـي رفـض الحـق يبيـنُ عـن مـدىٰ تأثرهـم بالمظاهـر والشـكليات واغترارهم بها، مدفوعين لذلك بآفة الاعجاب بالنفس، والاستعلاء العلني علىٰ الآخرين، الأمر الذي يغلـق ابواب الحوار، ويقطع مسـالك الجدل بالتي هي أحسـن، حيث يتعذر في ظل ذلك الوصول معهم وبهم إلىٰ الحق والصواب.

وكيف يكون وصـول وهـم يعلنون سـلفاً أن أحـداً لا يمكن أن يسـبقهم إلـىٰ الخير؟ ثم إنهـم ينظـرون الىٰ الخيـر بمنظـار مزيف لا يعطـي للمنظـور حقيقتـه وأهميتـه؛ فالكثرة عندهم اشـارة علىٰ الحق، والقلة دليل علىٰ الباطل، ويُرفض الحـق إذا كان في اتباعه فقراء وبسطاء!!..منطق أعوج مكابر، يصعب علىٰ صاحبه أن يدرك الهداية والخير.

****

» رابعاً: مراكب النقص التي يُشير اليها جهل الكافرين بأدب الخطاب

اطلعنا في المباحث السابقة على نماذج من مخاطبات الكافرين لأنبيائهم، وأبنائهم وآبائهم مثلما اطلعنا على نماذج أخرى من مخاطباتهم للمؤمنين من قومهم، وقد بدت لنا من خلال ذلك معايبهم، ومراكب النقص التي تقود خطاهم العاثرة إلى نهايات لا يحسدهم عليها عاقل، وإنما رغبت في بيان ذلك بشيء من التفصيل لكي يستبين لنا أثر الإيمان في تهذيب مشاعر الإنسان واعماله ومخاطباته"وبضدها تتميز الأشياءُ".

أولاً: التوغل في الخطأ والتمادي في الجهل والعناد

ويستبين ذلك من خلال آيات كثيرة منها قوله تعالى: ﴿**ذلك بانهم قالوا إنما البيع مثل الربا**﴾ البقرة(٢٧٥) حيث نظموا البيع والربا في سلك واحد لافضائهما إلى الربح، وقالوا يجوز بيع درهم بدرهمين كما يجوز بيع ما قيمته درهم بدرهمين، بل جعلوا الربا أصلاً في الحل وقاسوا به البيع مع وضوح الفرق بينهما؛ فإن أحد الدرهمين ضائع حتماً في الربا، ومنجبر في البيع بمساس الحاجة إلى السلعة أو بتوقع رواجها[(١)].

فهم لم يكتفوا باستحلال الربا بل جعلوه أصل التعامل، وجعلوا البيع مثله بالقياس.

ثانياً: الاعجاب بالنفس والغرور والاستعلاء على الآخرين، وفساد التصور لكثير من الأمور، واختلال ميزان القيم

تُشير إلى ذلك آيات كثيرة من كتاب الله تعالى منها: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾﴾ سورة الزخرف(٥١-٥٤).

ولا تكاد النفس الإنسانية تنفر من شيء نفورها من إنسان مستعل معجب بنفسه

---

(١) تفسير أبو السعود(١/ ٣٠٩).

يرىٰ نفسه فوق الآخرين، ومحور القيم عنده يدور حول الدرهم والدينار، وحول الأحمر والاصفر، وليس لها(أي للقيم) فيما وراء ذلك عنده محل.

أنه منطق جاهلي كريه، (أليس لي ملك مصر؟!) فالجاهلية لا ترىٰ في الملك الا وسيلة للظهور علىٰ الآخرين و استعبادهم والاستخفاف بهم إلىٰ حد القول(أنا ربكم الأعلىٰ).

ثالثاً: البسطاء والضعفاء عندهم لا يسمع لهم كلام:

ولو كانوا علىٰ حق، وهذه الصفة ناشئة عن سابقتها وهي الإعجاب بالنفس والغرور والإستعلاء علىٰ الآخرين؛ فالكلام دائماً للملأ وهم أشراف القوم(١)، بل إن رؤية البسطاء والضعفاء بجانب الحق سبب كاف عندهم للنفور من الحق والابتعاد عنه والمناوأة له.

ولنستمع: يقول سبحانه: ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ ﴾ الاعراف(٦٦).

ويقول: ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴾ الاعراف(٧٥).

ويقول تبارك تعالىٰ: ﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴾ هود(٢٧).

وهكذا تشير الآيات إلىٰ أن هؤلاء الاشراف هم دائماً الذين يتولون كبر الاثم، ويقودون الحملة الظالمة ضد الحق واصحابه.ولعلهم يدركون أن شرفهم نابع من غفلة الآخرين، وابتعادهم عن الدين الحق الذي حمله أنبياء الله تعالىٰ انصافاً للبشرية، فنجدهم يهزؤن من الرسل مرة، ومن اتباع الرسل أخرىٰ، مثلما نراهم يهزؤن من دعواتهم ورسالاتهم نفسها.

---

(١) القاموس المحيط(١/ ٢٠).

ولكم حاول كفار مكة ان يساوموا رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم علىٰ إخلاء ساحة الدعوة الإسلامية من الفقراء والضعفاء لكن الوحي نزل مؤكدا أهمية هؤلاء الناس في ميزان الله تعالىٰ فقال سبحانه: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ الانعام (٥٢).

وقال: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ الكهف(٢٨).

رابعاً: اللجوء إلى القوة عند العجز عن مقابلة الحجة بالحجة

ويتخذ ذلك عندهم صوراً شتىٰ منها السجن ومنها الإبعاد، ومنها القتل، وكل ذلك تصرفات خاطئة تدل علىٰ الافلاس والنقص، وقلة الحيلة واضطراب النفوس وعجزها عن مواجهة الحق، وهزيمتها في ميدان المناظرة وضيقها بالرأي الآخر.

وقد تحدث القرآن الكريم عن ذلك بقوله سبحانه ﴿ قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾﴾ الشعراء(٢٤-٢٩).

قال الشيخ الألوسي رحمه الله في تفسيره لقوله تعالىٰ (لأجعلنك من المسجونين): (وفيه مبالغة في رده عن دعوىٰ الرسالة حيث اراد منه ما اراد، ولم يقنع منه عليه السلام بترك دعواها، وعدم التعرض له، وفيه أيضاً عتو آخر حيث أوهم أن موسىٰ عليه السلام متخذ له إلها في ذلك الوقت، وأن اتخاذ غيره الهاً بعد مشكوك، وعدل عن(لأسجننك) الأخصر لذلك أيضاً؛ فإن(ال) في (المسجونين) للعهد فكأنه قال: لأجعلنك ممن عرفت احوالهم في سجوني)[1].

(١) تفسير روح المعاني(١٩/ ٧٣).

ثم يشتد فرعون في ضيقه بموسى وبحجته الدامغة، فيلوّح بقتله ولنستمع: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾ غافر(٢٦).

قال الاستاذ سيد قطب رحمه الله(فهل هناك أطرف من أن يقول الوثني الضال، عن موسى رسول الله- عليه السلام- إني أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد؟!.

أليست هي بعينها كلمة كل طاغية مفسد عن كل داعية مصلح؟! اليست هي بعينها كلمة الباطل الكالح في وجه الحق الجميل؟! اليست هي بعينها كلمة الخداع الخبيث لإثارة الخواطر في وجه الإيمان الهاديء؟!

أنه منطق واحد يتكرر، كلما التقى الحق والباطل، والإيمان والكفر، والصلاح والطغيان على توالي الزمان واختلاف المكان)(١).

وهذا منطق مكرور واجهه الأنبياء والرسل على مدى التاريخ، ولنستمع: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ إبراهيم(١٣).

قال الامام الشوكاني: (اللام في (لنخرجنكم) هي الموطئة للقسم أي والله لنخرجنكم من أرضنا) (٢)فأية قلوب قاسية هذه؟! وأي ناس هؤلاء !! ولكن الزبد يتطاير ويذهب ويبقى الحق عتيداً مديداً محفوظاً بالله سبحانه وتعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ﴾ الرعد(١٧).

---

(١) في ظلال القرآن (٧/ ١٧٨).

(٢) تفسير فتح القدير(٤/ ٩٩).

خامساً: الاتهامية واغتيال الشخصية

ويكون ذلك عن طريق وصف الأنبياء بأنهم سحرة أو كاذبون ثم الاستخفاف بهم، والاستهزاء بأتباعهم ولنستمع: ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾﴾ طه (٥٦، ٥٧).

وفي هذا دلالة على أن كفر فرعون ليس ناتجاً عن قلة دليل موسى عليه السلام ولكن كُفره عناد لأنه رأى الآيات وكذب بها، وقد ذكر موضوع الإخراج من الأرض لتنفير قومه من إجابة موسى عليه السلام[١].

ومن ذلك قوله تعالى ﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ هود(٣٨).

حيث كان يعمل في صناعة السفينة في موضع بريّ بعيد من الماء، فكانوا يتضاحكون منه ويقولون له يا نوح صرت نجاراً بعد ما كنت نبياً[٢].

ومنه قوله تعالى حكاية عنهم: ﴿ وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾ الحجر(٦).

قال الشيخ العلامة ابو البركات النسفي:

(وكان هذا النداء منهم على وجه الاستهزاء، كما قال فرعون "إنّ رسولكم الذي ارسل اليكم لمجنون"وكيف يقرون بنزول الذكر عليه وينسبونه إلى الجنون؟! و التعكيس في كلامهم للاستهزاء والتهكم سائغ)[٣].

وقال الشيخ ابو السعود رحمه الله (يعنون: يا من يدعى مثل هذا الأمر البديع

(١) انظر تفسير فتح القدير(٣/ ٣٧٠).

(٢) انظر تفسر النسفي(٢/ ١٨٧).

(٣) نفسه(٢/ ٢٦٩) وانظر الكشاف(٢/ ٣٨٧).

الخارق للعادات إنك بسبب تلك الدعوى، أو بشهادة ما يعتريك عندما تدعي أنه ينزل عليك لمجنون)[١].

ومعلوم أن أسلوب الاتهام واغتيال الشخصية يلجأ إليه كثير من الناس على اختلاف مراتبهم لغايات متعددة منها إظهار فضلهم على الأخرين ومنها الأساءة إلى بعض الرموز والشخصيات التي يتخذها الناس قدوة لكي ينفضّ الناس من حولهم وقد يفعلون ذلك بحثاً عن مخرج أو عذر لابتعادهم عن الحق واصحابه.

وهذه كلها مراكب نقص لا تنتهي بذويها الا إلى زراية وهوان عند الحق وعند الخلق، في الدنيا وفي الآخرة.

سادساً: التركيز على المظاهر والانخداع بها

فالحق عندهم أجرب لأن بعض أصحابه والمنتسبين اليه فقراء أو بسطاء أو ليسوا من ذوي الجاه وأصحاب السلطة، وهو منطق الجاهلية في شتى عصور التاريخ.

فهذا نوح عليه السلام يواجه بقولهم ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا﴾ هود(٢٧) وقولهم: ﴿قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ﴾ الشعراء (١١١).

فدعوته مرفوضة لأن اتباعه بسطاء. وهذا موسى عليه السلام يواجه بقول فرعون: ﴿فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ الزخرف(٥٣).ويواجه نبينا عليه السلام بمقولة مشابهة ذكرها المولى سبحانه ﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ۝ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ الفرقان(٦-٨).

وركوب هذا المركب العاثر يدل على سفاهة وحماقة، وقد سخر المولى سبحانه من هذه المقاييس في الحكم، وأرى قوم نوح أن (الأرذلين) هم الناجون عندما دعا نوح ربه (أني مغلوب فانتصر) القمر(١٠) وأرى قوم فرعون ذل فرعون الذي له ملك مصر، وذل

---

(١) تفسير ابو السعود(٣/ ٢١٥).

قارون الذي خرج على قومه في زينته، مثلما أرى كفار مكة ذل أبي جهل الذي اطغاه الغنى وأغراه الجاه حتى هم بايذاء سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم حول الكعبة.

وقد رأى الكفار على مدى التاريخ هؤلاء البسطاء الذين لا يملكون كنوز الذهب والذين لم يفخروا يوماً بحسب ولا نسب رأوهم يتسنمون ذرا المجد، ويصلحون ما أفسد الكافرون في هذه الحياة وهم يرددون قول الله سبحانه: (ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون) الأنبياء (١٠٥).

سابعاً: رغبتهم عن الاستفادة من الامثال والعبر

وأني لهم أن يستفيدوا منها والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿**وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها الا العالمون**﴾ العنكبوت(٤٣).

وقد نص القرآن الكريم صراحة على ذلك فقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ البقرة (٢٦).

يقول الاستاذ سيد قطب رحمه الله عند قوله سبحانه(فأما الذين كفروا فيقولون ماذا اراد الله بهذا مثلاً) (وهو سؤال المحجوب عن نور الله وحكمته، المقطوع الصلة بسنة الله وتدبيره ثم سؤال من لا يرجو لله وقاراً، ولا يتأدب معه الأدب اللائق بالعبد أمام تصرفات الرب، يقولونها في جهل وقصور في صيغة الاعتراض والاستنكار أو في صورة التشكيك في صدور مثل هذا القول عن الله)[1].

وترد الامثال في القرآن بصورة رفيعة من الحسن، تقريباً وتوضيحاً للأفهام، لكن أفهام الكافرين لا تصل لإدراك الأمثال وعبرها، فهم يجهرون معلنين عن سوء فهمهم لها أو تغابيهم عن ذلك، وكلا الأمرين منقصة بحق صاحبه.

---

(١) في ظلال القرآن(١/ ٥٧).

ثامناً: التمسك بتراث الآباء رغم عيوبه الظاهرة

وهذا هو التقليد الأعمى الذي جعل الإنسان مسلوب الإرادة معطل التفكير، بعيداً عن الإبداع والتجديد، يعيش خارج حدود عصره وزمانه، واقفاً حجر عثرة في وجه التطور والتفاعل مع الحياة والانفعال مع مستجداتها.

والتقليد بهذه الطريقة مستقبح في الأمور المسلكية، فكيف به إذن عندما يكون في الأمور القلبية الاعتقادية؟!

وقد تحدث القرآن الكريم عن تمسكهم بما كان عليه الآباء والاجداد في مواضع كثيرة من كتاب الله تعالى؛ منها قوله سبحانه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ البقرة(١٧٠).

ثم ان تمسكهم بعقيدة الآباء وعاداتهم ثابت مستمر، ولو كانت موروثاتهم فواحش ومنكرات.

يقول سبحانه: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ الاعراف(٢٨).

ويشتد هذا التمسك والضلال اكراماً لعيون الآباء لدرجة أنهم يقلدونهم في الأعمال التعبدية، فيعبدون أصناماً لا تسمع ولا تنفع ولا تضر:

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ (٧٠) قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ (٧١) قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ (٧٢) أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ (٧٣) قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ (٧٤)﴾ الشعراء(٦٩-٧٤).

وليس لهم من كلام يقولونه في حجاجهم الا قولهم: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ الزخرف(٢٣).

حتى لو استبان لهم الحق والهدى في غير ما وجدوا عليه آباءهم فإن شقوتهم

غالبـة عليهـم، فلا يجـدون للحـق طريقـاً ولا اليـه سـبيلا ﴿قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ الزخرف(٢٥).

وإن الشريعة الإسلامية بقدر ما تكرم الآباء وتوصي بهم خيراً إلا أن ذلك لا يعني تأييد باطلهم أو مجاملتهم على حساب الدين والعقيدة.

﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ المجادلة(٢٢).

والشـريعة الإسـلامية ليسـت ضد اتباع الاباء على الاطلاق، ولكنها ضد اتباع الباطل من أعمالهـم وعاداتهـم وتقاليدهـم؛ فالمسـلم لا يـدع القديم لقدمـه، ولا يأخـذ الحديث لحداثته. ولكنه يدور مع الحق حيـث دار، ويكون معه حيـث كان ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ الكهف(٢٩).

تاسعاً: المكابرة:

وهذا فـي تقديري مـن أعتى وأشـد مـا واجـه الأنبيـاء والدعـاة ولا يزال حتى الآن؛ حيث إن الذي يواجهك بمقررات سـابقة راسـخة في نفسـه لن تسـتطيع أن تغير من مواقفه وسلوكياته شـيئاً فهو يسـمع منك- اذا اسـتمع- لا ليسـتوعب ولا ليفهم ولكنه يسمع وهو يهيء نفسه للرد عليك بأية طريقة؛ سواء أصاب أم أخطأ؛ فالحق ليس رائده ولا مقصدة.

وقد كشـف الله سـبحانه حال الكفار هذا عندما تحدث عن مركب الشقاء الذي قادهم إلى هذا المصير العاثر، فأصمهم واعمى أبصارهم عن رؤية الحق؛ فقال سـبحانه: ﴿وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ الأعراف(١٣٢).

وقال تعالى: ﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴾ الحجر (١٤، ١٥).

وقال سبحانه ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣﴾﴾ القمر (١-٣).

وهذه هي طريقة الكفار في مواجهة الحق المؤيد بالحجة والدليل؛ الهروب منه، والانسحاب من مواجهته، وكيل الاتهامات لأصحابه؛ فتارة يقولون إنّه سحر، وطوراً يواجهونه بالهزء والسخرية، ولكن الحقيقة تظل ناصعة عالية قوية:﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴾ الرعد(١٧).

****

الخاتمة

النتائج والتوصيات

يمكن تلخيص أهم النتائج والتوصيات التي توصل إليها الباحث بما يلي:

١- ضرورة الالمام بعلوم اللغة والنحو والصرف وعلم البيان والبديع وعلم المعاني وأصول الفقه والقراءات وغيرها من العلوم لكل من يبغى الاطلاع على كنوز القرآن الكريم، واستخراج بعض حكمه وأحكامه.

ويلاحظ أن الضعف باللغة وعلومها قرين للضعف بفهم الكتاب ثم الضعف بالالتزام به عقيدة وسلوكاً، وقد ادرك اعداؤنا هذه المعادلة فعملوا على محاربة اللغة العربية بشتى صور الكيد والمكر، فمن داع إلى كتابتها بالحروف اللاتينية[1]، إلى داع إلى كتابتها بالعامية[2]، وداع آخر إلى تجريدها من قواعدها.

وقد ازدادت هذه الدعوة بشاعة وشراسة عندما دعت إلى صرف الاهتمام عن الأدب العربي القديم رغبة في التقليل من أهمية الماضي العربي والإسلامي؛ شعره ونثره وتاريخه بزعم أنها أصبحت شيئاً قديماً لا يلائم حياتنا ولا يتصل بها[3].

ولولا أن حكمة المولى سبحانه اقتضت أن تكون العربية هي لغة القرآن الكريم، وأن تكون حروفها قوالب للمعاني القرآنية الرفيعة، ولولا تعهد المولى سبحانه بحفظ الكتاب العزيز لاندثرت هذه اللغة وبادت، تحت وطأة الكيد الناصب بها قديماً وحديثاً.

---

(١) محمد محمد حسين، (الاتجاهات الوطنية في الادب المعاصر)، دار الارشاد، بيروت(٢/ ٢٦٢).

(٢) للتعرف على مقاصد هذه الدعوة وأغراضها الخبيثة يراجع الفصل الأول من الباب الثالث من كتاب الاستاذ الدكتور فضل حسن عباس(البلاغة المفترى عليها) تحت عنوان: دعوات مشبوهة لطرح العربية قديماً وحديثاً،وانظر الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر(٢/ ٣٥٩-٣٨٢).

(٣) الاتجاهات الوطنية في الادب المعاصر (٢/ ٣٨٢).

ولا بد هنا من الإشارة إلىٰ ضرورة اعادة النظر في مناهج تعليم اللغة العربية في مختلف المراحل الدراسية، مع الاتجاه بهذه المناهج نحو التسهيل والتبسيط باتباع الأساليب المنهجية الملائمة.

وإن المرء ليشعر بالاسىٰ والمرارة وهو يرىٰ افواج الخريجين من مختلف مراحل التعليم، وقد استعجمت عليهم قواعد اللغة والخط والاملاء والنحو والصرف وغيرها، فضلاً عن علوم البلاغة وفنونها، فأصبحت العربية تشكو من الغربة بين أهلها.

والمأمول أن تواكب الصحوةَ الإسلامية صحوةٌ اخرىٰ علىٰ أهمية هذه اللغة التي شرّفها الله، فاختارها لغة لكتابة المنزل، فازدادت شرفاً وتيهاً علىٰ ما غيرها من اللغات بخصائصها الذاتية، وخصائصها الأخرىٰ المكتسبة[1].

٢- يوصىٰ الباحث أن تشمل مناهج الكليات الشرعية مادة مختصة بالبلاغة القرآنية، وأن يخرج منهاج مادة علوم القرآن عن الطريقة التقليدية التي تتحدث عن نزول القرآن وجمعه وتدوينه وناسخه ومنسوخه، والمكي والمدني،والحكم والمتشابه وغير ذلك من الموضوعات التي لا تتعامل مع جوهر النص القرآني.

أقول هذا مع تقديري الكبير لهذه العلوم، واعترافي بفضلها وأثرها في فهم جوهر النص القرآني الكريم والكشف عن معانيه.

وفي حديثها عن البلاغة القرآنية يحسن بالمناهج المذكورة أن تتحدث عن الفاظ القرآن الكريم من حيث البلاغة والنظم، واختيار الألفاظ، والفاصلة القرآنية، والغريب، ومقاصد ذكره في القرآن، وكذلك ما يسمىٰ بالزائد من الكلمات والحروف، وأسرار ورودها، مع التعرض للحديث عن التقديم والتأخير والذكر والحذف والنكت البلاغية في ذلك، كما يحسن الحديث في موضوع البلاغة القرآنية حول التعريف والتنكير ومقاصدهما

(١) للاطلاع علىٰ خصائص هذه اللغة يراجع كتاب(البلاغة المفترىٰ عليها) لاستاذنا الدكتور فضل حسن عباس، دار النور، بيروت، الطبعة الأولىٰ، ١٩٨٩، ص١٩.

في القرآن وكذلك التوكيد والتكرير والقصر والاستفهام والأمر والنهي، والنداء والقسم، والفصل والوصل والتشبيه (خصائصه، وأهدافه،وأدواته) مع الالمام بمجازات القرآن وكناياته، والتصوير الفني في القرآن الكريم، وغير ذلك من الموضوعات.

واعتقد أن الروعة والمهابة والاجلال الذي يغشى الدارس لهذه العلوم تبلغ في النفس أضعاف ما يجده الدارس لموضوعات جمع القرآن وأسباب النزول وترتيب السور والمكي والمدني وغيرها. أقول هذا مع كل الاجلال والاحترام لهذه العلوم وآثارها في فهم الجو الذي نزل به النص القرآني الكريم.

٣- المتأمل في صيغ الخطاب الرباني للعباد وما تتضمنه هذه الصيغ من أدب رفيع يدرك مدى رحمته تعالى بعباده، وهو يتلطف بهم، ويتودد إليهم ولا شك أبداً في أن هذا الادراك مقدمة مفيدة في تحقيق العبودية الخالصة لله سبحانه وتعالى، رضى بقضائه، وصبراً على ابتلائه وشكراً على نعمائه، مع دوام التوجه لفعل ما يرضى الله والرضى بفعل الله سبحانه.

٤- في المخاطبات القرآنية الموجهة الى سيدنا المصطفى صلى الله عليه وسلم اشارة إلى سمو قدره وعظيم شرفه ورفعة مكانته الأمر الذي يحدو بنا إلى التوصية والتذكير بضرورة انزال النبي عليه السلام المكانة التي يستحقها اطراءً واتباعاً. وأن نتأدب مع كل السائرين على طريقته، المتبعين لسنته الشريفة، وأن يكون الاطراء والادب متجهاً نحو جوهر الإنسان وصفاته الخلقية والسلوكية بعيداً عن المجاملة والانبهار بالمظاهر التي لا تخدع سوى المغفلين الناكبين عن الميزان الصحيح لقيم الحياة.

٥- توصي هذه الدارسة بحسن الأدب مع المؤمنين واللطف بهم وخفض الجناح لهم تأسياً بالأدب القرآني معهم، فهم أولى بالكلمة الطيبة الدافئة. وهم أحرى بها وأهلها وفي هذا يقول المولى تبارك وتعالى:

﴿واخفض جناحك للمؤمنين﴾ الحجر(٨٨) ويقول **﴿فسوف ياتي الله بقوم يحبهم ويحبونه،أذلة على المؤمنين﴾** المائدة (٥٤).

٦- توصي هذه الدراسة باقامة علاقات إنسانية مع أهل الكتب السماوية وبدء حوار معهم على قاعدة: **﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾** آل عمران(٦٤) مع التزام بأدب الحوار، والجدال بالتي هي أحسن، وذلك تأليفاً لقلوبهم وسعياً في دخولهم بالدين القويم،وانسجاماً مع الأدب القرآني في مخاطبتهم حيث حرص القرآن على استمالتهم إلى الدين الجديد، فخاطبهم بعنوان أهلية الكتاب، وذكرهم بنعمة الله عليهم، وأثنى على الصالحين منهم من القساوسة والرهبان.

٧- التخلص من خطوط النفس عند مخاطبة الكفار، وإلانة الكلام لهم عند الطمع في هدايتهم، وتجنب أسلوب التهديد والاتهام بالكفر استنزالاً لهم وتليينا لمواقفهم، ثم الاتجاه إلى متاركتهم وموادعتهم عند ظهور المكابرة منهم. وغالباً ما يحتاج ذلك إلى هضم النفس والتواضع واستقصار العمل.وهذا كله مستفاد من اسلوب القرآن وطريقته وأدبه في مخاطبتهم ثم طلبه منا التأدب معهم ومداراتهم، واتيانهم من جهة المناصحة؛ يقول سبحانه **﴿فقولا له قولاً لينا لعله يتذكر أو يخشى﴾** طه(٤٤)، فإن تليين القول مما يكسر سورة عناد العتاه، ويلين عريكة الطغاة[١].

٨- يرى الباحث أن بذل الندى للآخرين وكف الأذى عنهم، والتطامن من أجل الله لهم، واعانة المغلوب فيهم، ومساعدة المحتاج، وغير ذلك من انواع السلوك، كل ذلك يشكل ارضية مناسبة لدعوتهم إلى الله تعالى، وذلك من باب تقديم الوسيلة بين يدي الطلب، وإن تعذر ذلك ففي بسط ا لوجه وحسن الخلق مدخل واسع لدعوة الناس الى دين الله سبحانه.

(١) انظر تفسير ابي السعود(٣/ ٤٦٤).

وكذلك الحال في مخاطبة المرء من هو أعلىٰ منه يحسن أن يقدم طلبه علىٰ فراش من الثناء الحسن علىٰ المخاطب حفزاً له علىٰ الاستجابة، واستثارة لكمائن الخير في نفسه.

ومقصد هذا الأدب توجيه الناس إلىٰ الله وترغيبهم فيما عنده من خزائن الخير والرحمة، وعدم اثارة ردود فعلهم واستعدائهم علىٰ الحق ووضعهم من ثم في دائرة السخط والنقمة.

وقد كان هذا شأن النبي الكريم صلىٰ الله عليه وسلم حيث كان يواجه الاذىٰ بقوله (اللهم اغفر لقومي فأنهم لا يعلمون)[١].

٩- ابرزت هذه الدراسة أثر الكناية في تهذيب الكلام، لذلك فإن كاتب هذه السطور يوصي بمزيد من الاهتمام بأبحاث الكناية، ومعرفة اركانها وأقسامها والفرق بينها وبين التعريض، ومحل الكناية من البلاغة واسباب ورود الكنايات في القرآن وغير ذلك. هذا وقد سبق الحديث عن موضوع الكناية بشيء من التفصيل في الفصل الثالث- المبحث الأول[٢]. ولكني هنا أشير إلىٰ أن الكناية (كما مر معنا) هي ترك التصريح بذكر الشيء إلىٰ ذكر ما يلزم لننتقل من المذكور الىٰ المتروك، كما نقول فلان طويل النجاد للنتقل إلىٰ ملزومه وهو طول القامة التي يدل عليها طول حمالة سيفه.

أما التعريض فهو الدلالة علىٰ المعنىٰ عن طريق المفهوم، وسمي تعريضاً لأن المعنىٰ يفهم من عرض اللفظ، ويسمىٰ التلويح لأن المتكلم يلوح منه للسامع ما يريده، ومنه مخاطبة شخص والمراد غيره. وابراز غير الحاصل في معرض الحاصل. وقد مرت معنا بدائع استعمال كل من الكناية والتعريض في موقع آخر من هذه الرسالة.

---

(١) اخرجه البخاري ومسلم، انظر فتح الباري، شرح صحيح البخاري،الطبعة السلفية، كتاب الانبياء(٦/ ٥١٤) وصحيح مسلم، كتاب الجهاد، حديث رقم(١٠٤) وأخرجه ابن ماجه في سننه طبعة دار الفكر، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي كتاب الفتن، باب الصبر علىٰ البلاء(٢/ ١٣٣٥)رقم الحديث ٤٠٢٥.

(٢) انظر ص من هذه الرسالة

١٠- إن للمناظرة آداباً يحسن بالمسلم أن يعرفها، لكي لا يقع في المكابرة أو المغالطة أو التناقض ولكي تؤتي المناظرة ثمرتها المنشودة وهي الوصول الحقيقة.

ومن أهم ما يجب أن يحرص المناظر عليه تجنب المصادمة مع الخصم، وعدم مواجهته بالرد كفاحاً، واعلان استعداده لقبول الحق، ولو كان في غير جانبه وعدم استصغار مناظره أو اظهار ما يسؤه من قول أو فعل أو إشارة وملاحظة التخلص من حظوظ النفس خلال المناظرة؛ كأن يشتد في الانتصار لرأيه والتشبث به ولو خالف الدليل الواضح الصريح، ويحسن بالمناظر الا يرى قبيله شيئاً كثيراً، الا بقوة دليلة والتزامه بأصول المناظرة والجدال، ولا ينخدع بما سوى ذلك.

هذه وقد سبق الحديث عن المناظرة وآدابها في موقع آخر من هذه الرسالة بشيء من التفصيل.

١١- توصي هذه الرسالة بتجنب ذكر اسماء المخطئين، والاكتفاء بالتعريض لأن المقصد الاساسي معالجة الخطأ والتنفير من فعله، وليس التشهير بالمخطئين والسخرية منهم، حيث إن ذلك مدعاة لشرودهم وتوغلهم في الخطأ.

ويستعمل لذلك الاسم الموصول وسائر المبهمات اقتداءً بأدب القرآن الكريم في ذلك، كما يستعمل اسلوب الالتفات من الخطاب إلى الغيبة رغبة في مناقشة المعاندين غيابياً طمعاً في أن يغيروا مواقفهم الداخلية ما دامت أصابع الاتهام ليست موجهة إليهم.

وينزع هذا الأدب من منزع الرحمة الذي هو سمة بارزة من سمات الدعوة الإسلامية؛ ﴿فبمارحمة الله لنت لهم، ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك﴾ آل عمران(١٥٥).

١٢- أبرزت هذه الدراسة أهمية اطلاع الوعاظ والخطباء والمربين والدعاة على الخطب التي ذكرها القرآن الكريم ورضي قول اصحابها ليسفيدوا من صيغها

في الدعـوة والخطـاب والتوجيه والوعـظ، مثلما كشـفت عن مواطـن العثار في مخاطبـات الكافريـن. وبينت مراكـب النقص التـي حملتهم على اسـتعمال هذه الصيغ الجافية المجدبة.

وفي ضوء ذلـك توصي هذه الدراسـة بتجنـب صيغ الخطـاب العاثرة التي يسـتعملها الكفار، والتي تدل على الاسـتكبار والقسـوة والتعالي على الآخرين، ورفـض قبول الحق، واتخـاذ مقررات سـابقة فـي مواجهتـه إضافة إلـى السـلبيات الكثيرة التـي سـبق بيانها عند الحديث عن (مراكب النقص الي يشير إليها جهلهم بأدب الخطاب)[١].

١٣- توصي هذه الدراسـة بالتبسـط في الكلام، وتجنب الالفاظ المعقـدة والتراكيب الصعبة؛ فالقرآن وهو كلام الله ميسـر للذكر، سهل على اللسـان. وقد ورد النهي في الحديث الشـريف عن التشـدق والتقعر فـي الكلام؛ فعـن جابر بـن عبد الله رضي اللـه عنهما أن الرسـول صلى الله عليه وسـلم قـال:"إن من احبكـم الي، وأقربكم مني مجلسـاً يوم القيامة، أحاسـنكم اخلاقاً وإن ابغضكـم الي وابعدكم مني يـوم القيامة الثرثـارون والمتشـدقون، والمتفيهقـون. قال: يا رسـول الله قد علمنا الثرثارون والمتشدقون: فما المتفيهقون: قال المتكبرون"[٢].

والثرثار هو كثير الكلام تكلفاً[٣]، والمتشـدق هـو المتطاول على النـاس بكلامه[٤] والمتفيهق أصله من الفهق وهو الامتلاء، وهو الذي يملأ فمه بالكلام ويتوسـع فيه ارتفاعاً، واظهاراً لفضيلته على غيره[٥].

---

(١) انظر ص من هذه الرسالة وما بعدها.

(٢) وراه الترمذي وقال حديث حسـن، انظر ابن العربي المالكي، عارضة الاحوذي بشرح صحيح الترمذي، دار الفكر، كتاب البر والصلة باب ما جاء في معالي الاخلاق، (٨/ ١٧٤-١٧٥).

(٣) وقال صاحب القاموس المحيط، الثرثرة كثرة الكلام وترديده(١/ ٣٨٢).

(٤) تشدّق: لوى شدقه للتفصح، انظر القاموس الميحط(٣/ ٢٤٨).

(٥) نقول تفيهق في كلامه: تنطع وتوسع كأنه ملأ به فمه، القاموس المحيط(١/ ٢٧٨).

١٤- وأخيراً أوصي نفسي واخواني في الله أن يتأدبوا بأدب القرآن الكريم، ويوثقوا الصلة به كي ينالوا من بركاته، ويفيدوا من انواره وخيراته وأنت اذا اقبلت على القرآن أقبل عليك، وبقدر ما تعطيه يعطيك، وإذا اشتغلت به عما سواه يغنيك، ويملأ حياتك أنساً وحبوراً.وفرحاً بالله وسروراً

وكتاب الله تعالى للأمم كما هو للأفراد، نور ودستور ومنهج حياة، يرفع الحياة ويباركها ويزكيها، وتأمن الأمة معه وبه العثار والضياع والزلل؛ عندما يلتزم كل فرد فيها جانب الأدب مع الله ومع عباد الله، فيؤمن بواجبه تماماً كما يؤمن بحقه، ويحرص على ترسيخ صفة عبوديته لله تعالى، فيفعل ما يرضيه، ويرضى بفعله سبحانه ليكون بالنتيجة من الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه.

أسأله سبحانه أن يجعلني وإياكم منهم وهو المستعان وعليه البلاغ

والحمد لله رب العالمين

عبد الرحمن سعود إبداح

١٩٩١/٨/٢٧

وادي الريان- الاغوار الشمالية



****

المصادر والمراجع

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

ابن الاثير: ضياء الدين، (المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر) القاهرة، دار نهضة مصر، الفجالة

الالوسي شهاب الدين السيد محمود البغدادي،(تفسير روح المعاني) بيروت،دار احياء التراث العربي.

انيس: ابراهيم ورفاقه،(المعجم الوسيط) القاهرة، الطبعة الثانية عام١٩٧٢م.

الباقلاني: القاضي ابو بكر، (اعجاز القرآن) على هامش الاتقان للسيوطي، بيروت، المكتبة الثقافية، طبعة١٩٧٣م.

بدوي: احمد احمد، (من بلاغة القرآن)، القاهرة، مكتبة نهضة مصر بالفجالة، الطبعة الثالثة.

البوطي: محمد سعيد رمضان، (من الفكر والقلب)،دمشق مكتبة الفارابي طبعة ١٩٦٩م.

البوطي: محمد سعيد رمضان، (من روائع القرآن) دمشق، مكتبة الفارابي، الطبعة الخامسة.

الجرجاني: عبد القاهر، (دلائل الإعجاز)، بيروت دار المعرفة، طبعة١٩٧٨م.

ابن جزي: محمد بن احمد بن جزي الكلبي، (تفسير ابن جزي)بيروت، دار الكتاب العربي، طبعة١٩٧٨م.

الحسناوي: محمد، (الفاصلة في القرآن)، عمان، دار عمار،الطبعة الثانية، ١٩٨٦م.

حسين: محمد محمد، (الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر)، بيروت، دار الارشاد، طبعة ١٩٧٠م.

ابن حنبل: احمد بن حنبل الشيباني، (مسند الامام احمد) طبعة دار الفكر.

ابو حيان: محمد بن يوسف بن علي الغرناطي الاندلسي، (البحر المحيط)، دار الفكر الطبعة الثانية.

الخطيب القزويني: محمد بن عبد الرحمن، (تلخيص المفتاح وشرحه مختصر المعاني) القاهرة،البابي الحلبي،الطبعة الاخيرة،١٩٦٥.

الخطيب القزويني: محمد بن عبد الرحمن، (الايضاح في علوم البلاغة)، شرح وتعليق محمد عبد المنعم خفاجي، القاهرة، مكتبة الكليات الازهرية، الطبعة الثانية.

الخليلي: احمد بن حمد، (جواهر التفسير)، مكتبة الاستقامة، مطابع جريدة عُمان للصحافة طبعة١٩٨٦.

دراز: محمد عبد الله، (النبأ العظيم)، مصر،مطبعة السعادة، طبعة ١٩٦٠.

الرازي: فخر الدين بن ضياء الدين،(التفسير الكبير ومفاتح الغيب)، دار الفكر،الطبعة الثانية١٩٨٣.

الرازي: محمد بن بكر بن عبد القادر، (مختارالصحاح) بيروت، دار الكتاب العربي،الطبعة الأولى، سنة١٩٦٧.

الرازي: محمد بن عمر بن الحسن بن علي، (نهاية الايجاز في دراسة الاعجاز) تحقيق د. بكري شيخ أمين، بيروت، دار العلم للملايين، الطبعة الاولى، ١٩٨٥.

الرافعي: مصطفى صادق، (اعجاز القرآن والبلاغة النبوية)،مصر المطبعة التجارية الكبرى، الطبعة الثامنة،١٩٦٥.

الرافعي: مصطفى صادق،(وحي القلم) بيروت، دار الكتاب العربي،الطبعة الثانية.

رضا: محمد رشيد، (تفسير المنار)بيروت، دار المعرفة، الطبعة الثانية.

الزبيدي: محمد مرتضى الحسيني،(تاج العروس من جواهر القاموس)،مطبعة حكومة الكويت، طبعة ١٩٦٦.

الزركشي: بدر الدين محمد بن عبد الله (البرهان في علوم القرآن)، دار الفكر، الطبعة الثانية.

الزفزاف: محمد (التعريف بالقرآن والحديث) الكويت، مطبعة الفلاح، الطبعة الثانية، سنة ١٩٧٩م.

ابو زهرة: محمد (المعجزة الكبرى- القرآن) القاهرة، دار الفكر العربي.

ابو السعود: ابن محمد العمادي، (ارشاد العقل السليم الى مزايا الكتاب الكريم) دار الفكر.

السكاكي: يعقوب بن يوسف بن أبي بكر،(مفتاح العلوم)،بيروت، دار الكتب العلمية،الطبعة الاولى،سنة١٩٨٣.

السيوطي: جلال الدين عبد الرحمن، (الاتقان في علوم القرآن) بيروت،المكتبة الثقافية، طبعة١٩٧٣م.

السيوطي: جلال الدين بن عبد الرحمن،(معترك الاقران في إعجاز القرآن)،تحقيق محمد علي بجاوي، دار الفكر العربي.

الشاطبي: ابراهيم موسى اللخمي الغرناطي، (الموافقات في أصول الشريعة)، بيروت، دار المعرفة، الطبعة الثانية، سنة١٩٧٥م.

الشافعي: محمد أدريس (الرسالة)،تحقيق أحمد محمد شاكر.

الشوكاني: محمد بن علي بن محمد، (فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية) علم التفسير)،القاهرة، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، الطبعة الثانية.

الصابوني: محمد علي،(صفوة التفاسير)، بيروت، دار القرآن الكريم، الطبعة الرابعة.

الصعيدي: عبد المتعال،(بغية الايضاح في علوم البلاغة) المطبعة النموذجية.

الطبري: ابو جعفر، محمد بن جرير، (جامع البيان في تأويل القرآن)، تحقيق محمود محمد شاكر،مصر، دار المعارف.

الطيالسي: ابو داود سليمان بن داود بن الجارود، (مسند أبي داود الطيالسي) الهند،حيدر أباد، مطبعة دائرة المعارف، الطعبة الأولىٰ، سنة ١٣٢١هـ.

عباس: د. فضل حسن، (البلاغة فنونها وأفنانها- علم المعاني- عمان، دار الفرقان، الطبعة الثانية.

عباس: د. فضل حسن(لطائف المنّان، وروائع البيان في دعوىٰ الزيادة في القرآن)، بيروت، دار النور، الطبعة الاولى١٩٨٩م.

عباس: د. فضل حسن، (البلاغة المفترىٰ عليها)، بيروت، دار النور، الطبعة الأولىٰ، سنة١٩٨٩.

عبد الباقي: محمد فؤاد، (المعجم المفهرس لالفاظ القرآن الكريم)، القاهرة، مطبعة دار الكتب المصرية، طبعة١٣٦٤هـ.

عتيق: عبد العزيز(علم المعاني)، بيروت، دار النهضة، طبعة١٩٧٢م.

العجلوني: اسماعيل، (كشف الخفاء)، بيروت، مؤسسة الرسالة، الطعبة الرابعة عام١٩٨٥م.

ابن العربي: المالكي، (عارضة الأخوذي بشرح صحيح الترمذي) دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.

العسقلاني: احمد بن علي بن حجر، (فتح الباري شرح صحيح البخاري)، تحقيق الاستاذ عبد العزيز بن عبد الله بن باز، بيروت، دار المعرفة، الطبعة السادسة.

عياض: ابو الفضل عياض بن موسى بن عياض اليحصبي،(الشفا بتعريف حقوق المصطفى)، تحقيق علي محمد البجاوي، طبعة دار الكتاب العربي،سنة١٩٨٤م.

ابن فارس: ابو الحسين احمد، (مجمل اللغة)، تحقيق زهير عبد المحسن، بيروت، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية.

فقيهي: محمد حنيف، (نظرية اعجاز القرآن عند عبد القاهر)، صيدا، بيروت المكتبة العصرية، الطبعة الأولى،١٩٨٣م.

الفيروزأبادي: ماجد الدين محمد بن يعقوب، (القاموس المحيط) بيروت، دار العلم للجميع.

الفيروزأبادي: مجد الدين محمد بن يعقوب،(بصائر ذوي التمييز)، تحقيق محمد علي النجار.القاهرة،طبعة١٣٨٣هـ.

القاسمي: محمد جمال الدين،(محاسن التأويل) تعليق محمد فؤاد عبد الباقي، مصر دار أحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاه، طبعة أولى،١٩٥٩.

القرطبي: ابو عبد الله بن احمد الانصاري، (الجامع لأحكام القرآن)، بيروت، مؤسسة مناهل الفرقان.

قطب: سيد، (التصوير الفني في القرآن)، بلا دار نشر،وبلا طبعة.

قطب: سيد، (في ظلال القرآن)، بيروت، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الخامسة١٩٦٧.

قطب: محمد،(دراسات قرآنية)، بيروت، دار الشرق.

ابن قيم الجوزية: شمس الدين أبو عبد الله،(التفسير القيم)، جمعه محمد أويس الندوي، حققه محمد حامد الفقي، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٧٨م.

ابن كثير: ابو الفداء اسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي،(تفسير القرآن العظيم)، بيروت، دار الاندلس، الطبعة الاولى، ١٩٨٦.

ابن كثير: ابو الفداء، اسماعيل بن كثير الدمشقي(البداية والنهاية)، تحقيق د. أحمد أبو ملحم، بيروت، دار الكتب العلمية، سنة١٩٨٧م.

الكردي: د.راجح عبد الحميد،(علاقة صفات الله بذاته) عمان، دار العدوى للتوزيع. طبعة أولى، ١٩٨٠.

الكرماني: تاج القراء محمود بن حمزة بن نصر،(اسرار التكرار في القرآن)،دراسة وتحقيق عبد القادر احمد عطا، دار الاعتصام، الطعبة الثانية.

الكفوي: ابو البقاء أيوب بن موسى الحسني(الكليات- معجم في المصطلحات والفروق اللغوية) دمشق منشورات وزارة الثقافة والأرشاد القومي طبعة١٩٧٤.

الموصلي الحفني: عبد بن محمود بن مودود، (الاختيار لتعليل المختار) تعليق الشيخ محمود أبو دقيقة، بيروت، دار المعرفة، الطبعة الثالثة، ١٩٧٥.

النسفي: ابو البركات عبد الله بن احمد، (تفسير النسفي)، القاهرة، دار احياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.

ابن هشام: عبد الله جمال الدين بن يوسف،(مغني اللبيب عن كتب الاعاريب)، صيدا، المكتبة العصرية، طبعة١٩٨٧م.

****

فهرس المحتويات



فهرس المحتويات

الفصل الأول: أدب خطاب المولى سبحانه للعباد......٩٧

****



رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com



أدب الخطاب
في القرآن الكريم

الدكتور عبد الرحمن سعود إبداح







